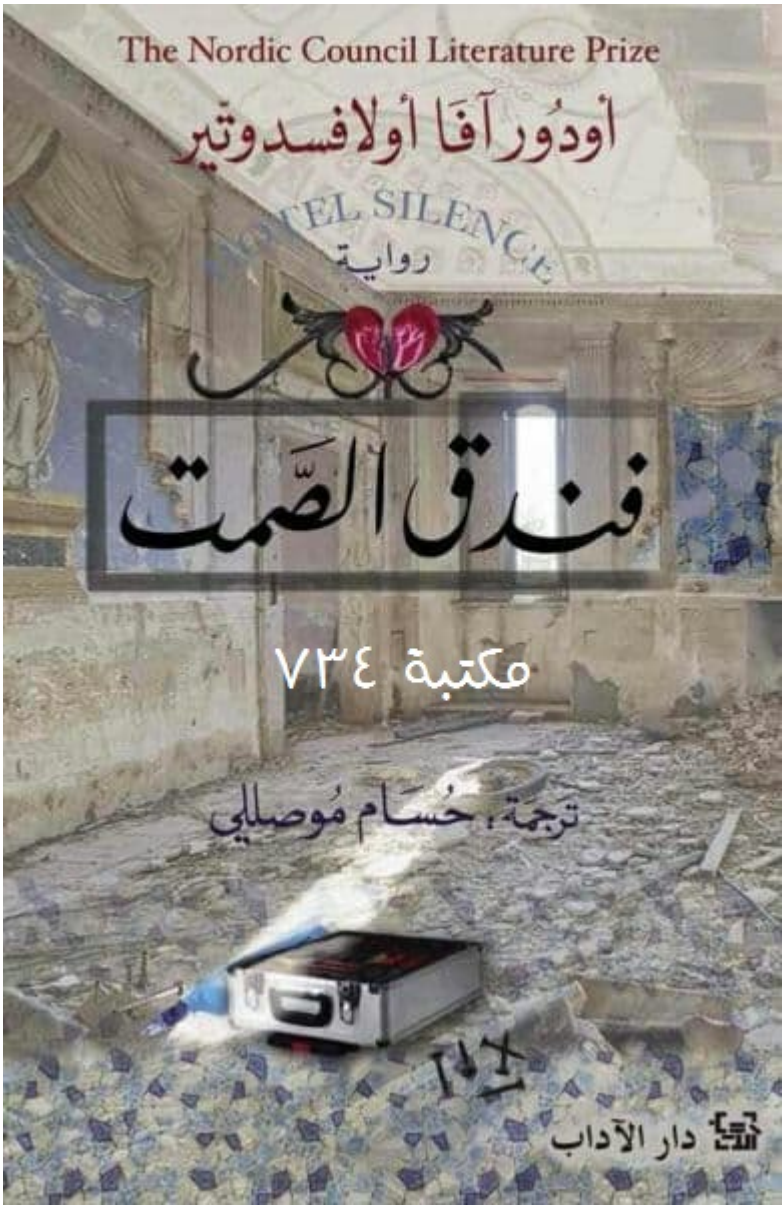
The Nordic Council Literature Prize
أودُور آفَا أولافسدوتير
رواية
فندق الصَّمت
مكتبة ٧٣٤
ترجمة: حُسام مُوصللي
دار الآداب

أودور آفا أولافسدوثير

فندق الصمت

ترجمة : حسام موصللي

دار الآداب

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

كلمة الغلاف

تَحكي رواية فندق الصمت قصةَ رجلٍ كسير الفؤاد، يخرجُ إلى عالَمٍ مدمَّر، وسلاحُه مِثقاب. وبدافعٍ لا يُقاوم، يُصلح الأشياءَ التي يجدها في طريقه.

يوناس إبنسير رجلٌ على حافَّة التاسعة والأربعين من عمره، مُطلّق، يكتشفُ أنَّه ليس الأب البيولوجي لابنته. ثم نُدرِك أنَّه غرقَ في أزمة وجوديّة، وفقدَ رغبتَه في العيش. وهو يتركنا أمام السؤال الكبير: هل لأيٍّ منَّا أن يتعافى من كونه قد وُلِد؟

إنَّها رواية تتحدَّث عن قدرة رجلٍ على تجديد نفسه، وإعادة اكتشاف المعنى، ولو كان نابعًا من أعماق اليأس.

حازت رواية فندق الصمت للكاتبة أودور آفا ألاوفسدوتير جائزة المجلس الأعلى للأدب الإسكاندينافيّ، وجائزة أفضل رواية آيسلنديَّة.

اختارَتها The Independent واحدة من ضمن أفضل عشر روايات عالميّة لسنة 2018.

جميع الهوامش المدرَجة في الرواية هي من إضافة مُترجم الرواية إلى العربيَّة.

مُهداةٌ إلى كلِّ الضحايا المجهولات: المُمرِّضات ، والمُعلِّمات ، والساقيات في الحانات ، والشاعرات ، والتلميذات في المدارس ، وعاملات المكتبات ، والمُشتغِلات بالكهرباء. وإلى ي/ ج أيضًا.

إنَّ تشكُّل النَّدبة جزءٌ طبيعيٌّ من العمليَّة البيولوجيَّة ، وتَحدُث عندما تنمو آفةٌ على الجلد ، أو على نسيجٍ آخر من الجسد ، عقب حادث ، أو مرَض ، أو عمليَّةٍ جراحيَّة. ولأنَّ الجسد غير قادرٍ على تكوين نسخةٍ طبق الأصل من النسيج التالِف ، فإنَّ النسيج الحديث ينمو ببنيةٍ وخصائص جديدةٍ تختلفُ عن الجلد غير التالف الذي يحيطُ بها.

سرَّة البطن مَركزُنا وصَميمُنا ، ونقصدُ بهذا أنَّها مَركزُ الكون. هيَ ندبةٌ لم يَعدُ لها أيُّ غرَض.

أعرفُ كم أبدو مُضحِكًا عندما أكون عاريًا. ومع ذلك، فقد شَرعتُ في خلع ملابسي: السروال والجوارب أوَّلًا، ثمَّ فككتُ أزرارَ قميصي، كاشفًا عن زنبقة الماء اللَّامعة على جسدي الورديّ، على بُعدِ نصفِ سكِّينٍ عن العضو العضليِّ الذي يَضخُّ ثمانيةَ آلاف لترٍ من الدم في اليوم الواحد. وأخيرًا، خلعتُ ملابسي الداخليَّة .كلُّ ذلك بالترتيب نفسه. لم يَستغرق الأمر وقتًا طويلًا. ثمَّ ، وقفتُ عاريًا تمامًا على الأرضيَّة الخشبيَّة أمام المرأة، مثلما خلقني الربُّ، بالإضافة إلى تسعةٍ وأربعين عامًا وأربعة أيَّام، من غير أن يعني ذلك أنَّني كنتُ في صدد التَّفكير بالرَّبِّ في هذه اللَّحظة. ما زالت تفصلُ بيننا ثلاثةُ ألواح من الأرضيَّة؛ قطعٌ ضخمةٌ من أخشاب الصنوبر من الغابة المُجاورة المفروشة بالمناجم، وكلُّ قطعةٍ منها بعرض ثلاثين سنتيمترًا، تتخلَّلها فجواتٌ غير مُنتظمة. مَددتُ ذراعيَّ، وتلمَّستُ الطريقَ إليها كما لو كنتُ ضريرًا يُحاول التَّعرف إلى مُحيطه. في البداية، وَصلتُ إلى سطح الجسد، الجلد. ثمَّة مسحةٌ من ضوء القمر تُربِّتُ بلطفٍ على ظهرِها عبر فتحةٍ بين الستائر. اقتربَتْ منِّي خطوةً واحدة. خَطوتُ على لوحٍ أرضيَّةٍ يُصدر صريرًا. هي أيضًا رفعَتْ يدها، تقيسُ الكفَّ قبالة الكفّ، وخطَّ الحياة قبالة خطّ الحياة. شعرتُ بارتباكٍ يسري في شرياني السباتيّ، وبنبضةٍ في ركبتيَّ وذراعيّ، وبتدفُّقِ الدم من عضوٍ إلى آخر. ثمَّة ورقُ جدرانٍ مُزخرفٌ بأوراق الشجر يُزيِّنُ الجدران حول سرير الغرفة الحادية عشرة في فندق الصمت. أقول لنفسي: سأشرع غدًا بصنفرة الأرضيَّة وتلميعها.

I. جسَد

الجلدُ أكبرُ أعضاء الجسد البشريّ. تُقدَّر مساحةُ جلدِ الإنسان البالغِ بقرابة متريْن مربَّعيْن ، ويصلُ وزنه إلى خمسة كيلوغرامات. وعندما يتعلَّق الأمر بالعديد من الحيوانات الأخرى ، فإنَّه يُشار إلى الجلد بالفرو أو الوبر. وفي الآيسلنديَّة القديمة ، تَحملُ كلمةُ الجلدِ معنى الجسد أيضًا.

الطاولة في صالون تريغفي للوشوم مغطَّاةٌ بجِرارٍ زجاجيَّةٍ صغيرةٍ مليئةٍ بأحبارٍ متعدِّدة الألوان. يسألني الشاب الصَّغير إنْ كنتُ قد اخترتُ صورةً ما ، أم أنَّني أفكِّرُ برَسمٍ أو رمزٍ شخصيّ ؟

هو نفسُه مُغطًّى بوشومٍ على كلِّ شبرٍ من جسده. أرصدُ أفعى تتلوَّى إلى أعلى رقبته ، وتلتفُّ حول جُمجمةٍ سوداء. يَسري الحبرُ عبر أطرافه ، وتَظهرُ على العضلة الخلفيَّة لذراعه التي تحملُ الإبرةَ حزمةٌ ثلاثيَّةٌ من الأسلاك الشائكة.

«يأتي الكثير من الناس إلى هنا كي يُموِّهوا نَدباتهم» ، يقول الموشِّم ، مُتحدِّثًا إليَّ عبر انعكاس المرآة. وعندما يستدير ، تَنبثقُ حوافر حصانٍ واثبٍ من وراء سُترته.

ينحني فوق مجموعةٍ من المُصنَّفات البلاستيكيَّة ، ويختار أحدها ، ثمَّ يقلِّب النَّظرَ فيه من أجل أن يعثر على صورةٍ كي يُريَها لي. أسمَعُه يقول: «تحظى الأجنحةُ بتفضيلٍ كبيرٍ لدى الرجال في منتصف العمر». ألاحظُ أربعةَ سيوفٍ تخترقُ قلبًا مُضطرِمًا على ذراعه الأخرى.

أحملُ على جسدي سبعَ نَدبات: أربع ندباتٍ فوق السرَّة ، مَركزِ المنبَت ، وثلاثًا أسفلها. باستطاعة جناح طيرٍ على الكتف ، من الرقبة نزولًا إلى الترقوة ، أن يُخفي نَدبتَيْن ، بل رُبَّما ثلاثًا. وعلى غرار المعرفة القديمة المألوفة التي تبعثُ على الراحة ، فمن شأن الجناح

أن يصير ظلًّا لنفسي يكسوه الرِّيش، درعي وحصني. وسيحجبُ الريشُ الزيتيُّ هذا الجسد الورديَّ الضعيف.

يُقلِّبُ الفتى بعجالةٍ عبر الرسوم كي يُريَني نماذجَ مُختلفةً من أجنحة الطيور. وفي النهاية، يُشير بسبَّابته إلى إحدى الصور:

«أجنحة النسر هي الأكثر شعبيَّةً».

كان في وسعه أن يُضيف: وأيُّ رجلٍ لا يحلمُ بأن يكون طيرًا جارحًا يطفو وحيدًا في جميع أنحاء العالم، ويُحلِّق فوق أهوار الجبال والأخاديد والسبخات، ويقتنص الطريدةَ كي ينتشلها؟!

لكنَّه، يقول:

«خُذ وقتك».

ويوضحُ لي أنَّ ثمَّة زبونًا غيري على كرسيٍّ في الجانب الآخر من الستارة، وأنَّه على وشك الانتهاء من وَشْم عَلَم البلاد، بكامل خفقانِه وظِلاله.

يُخفِضُ صوتَه.

«أخبرتُه أنَّ ساريةَ العلم قد تنحني إذا ما ازداد وزنُه كيلوغرامَيْن، لكنَّه أصرَّ على وجودها».

كنتُ أخطِّطُ لزيارة أمي قبل قيلولتها، وأردتُ أن أَفرغ من هذه الصفقة في أسرع وقتٍ مُمكن.

«أفكِّرُ بوشمٍ مثقاب».

إنْ كان ما طلبتُهُ قد فاجأه ، فإنَّه لم يُبدِ أيَّ علامةٍ على ذلك ، وشرع على الفور بالبحث في المُصنَّف المُناسب.

«قد يكون لدينا مثقابٌ في مكانٍ هنا ضمن قسم الأجهزة المنزليَّة» ، يقول ، «على أيِّ حال ، لن يكون أكثر تعقيدًا من الدرَّاجة رُباعيَّة الدَّفع التي وشمتُها الأسبوعَ الفائت».

«لا ، كنتُ أمزح» ، أقول له.

يرمقني بنظرةٍ خاويةٍ يَصعُب فكُّ رموزها ، فلا أدري إنْ كان قد شعر بالإهانة أم لا!

أدسُّ يدي في جيبي على عجلٍ ، ثمَّ أسحبُ منها ورقةً مطويَّة ، وأفتحُ الرَّسمَ ، وأعطيه للموشِّم. يأخذ الورقة ، ويُسوِّي كلَّ زواياها ، قبل أن يرفعها أخيرًا من جهة الضوء. لقد تمكَّنتُ من مفاجأتِه ، إذ لم يَعُد قادرًا على إخفاء ريبتِه.

«أهذه زهرة ، أم...»

«زنبقةُ ماء» ، أقولُ دونما تردُّد.

«وبلونٍ واحدٍ فقط ؟»

«أجل ، بلونٍ واحدٍ فقط ؛ الأبيض. بلا تظليل» ، أضيف.

«وبلا كتابةٍ منقوشةٍ ؟»

«لا ، بلا كتابةٍ منقوشةٍ».

يُعيدُ المصنَّف إلى مكانِه ، ويُخبرني أنَّ في مقدوره وشمَ الزهرة على نحوٍ حرّ. ثمَّ يُشغِّلُ مثقابَ الوشم.

«وفي أيِّ مكانٍ تُريدها ؟»

يستعدُّ لغمس الإبرة في سائلٍ أبيض.

أفكُّ أزرارَ قميصي ، وأشيرُ إلى قلبي.

«ينبغي أوَّلًا أن نحلق الشَّعْر» ، يقول لي ، ويُطفِئُ المثقاب. «وإلَّا ، فستضيعُ زهرتُك في ظلمة الغابة».

أشيرُ إلى تلك الحالة حين يندرجُ الانتحارُ البطيء للبشر

كلِّهم تحت مسمَّى «حياة»

عَبْر المقبرة ، تمرُّ الطريقُ الأقصرُ إلى دار المُسنِّين.

لطالما تخيَّلتُ أنَّ الشهر الخامس سيكون الشهرَ الأخيرَ من حياتي ، وأنَّه ستكون هنالك أكثر من (خمسةٍ) واحدةٍ في ذلك التاريخ النِّهائيّ. فإن لم يكن الخامس من الخامس ، فسيكون الخامس عشر من الخامس ، أو الخامس والعشرين من الخامس ؛ وهو الشهر الذي ولدتُ فيه أيضًا. بحلول ذلك الوقت ، سيكون البطُّ قد أتمَّ موسَم تزاوجه ، بَيْد أنَّ البطَّ لن يكون وحده عند البُحيرة ، بل ستوجد هناك صائداتُ المحار والدريجات البحريَّة ، إذ ثمَّة أغانٍ للطيور في ذلك اليوم الرَّبيعيِّ عديم اللَّيل حين أرحل.

هل سيفتقدني العالم ؟ كلَّا. هل سيزداد العالمُ فقرًا من دوني ؟ كلَّا. هل سينجو العالم من دوني ؟ أجل. هل العالم مكانٌ أفضل الآن ممَّا كان عليه حين جئتُه ؟ كلَّا. ماذا فعلتُ كي أُحسِّنَه ؟ لا شيء.

في الطريق عبر شارع Skothúsvegur ، أفكِّرُ مَليًّا في قدرة المرء على استعارة بندقيَّة صيدٍ من جاره ، وهل يستعيرها كما يستعير وصلةً لتطويل خرطوم مياه ؟ ما هي

الحيوانات التي تُصطاد في أوائل أيّار؟ ليس بإمكان المرء أن يُطلق النار على رسول الرَّبيع ، القطقاط الذهبيّ ، الذي عاد لتوِّه إلى الجزيرة ، أو على فرخ بطَّةٍ تفقسُ من بَيضة. هل بإمكاني القول إنّي أريدُ أن أصطادَ النورس البحريَّ أسود الظهر الذي يُبقيني مُستيقظًا داخل شقَّتي في الطابق الأخير من مبنًى سكنيٍّ في مركز المدينة؟ ألن يَتملَّكَ الشكُّ سفانور إنْ تحوَّلتُ فجأةً إلى ناطقٍ رسميٍّ باسم حقوق فراخ البطّ؟ وعلاوةً على ذلك ، يَعلمُ سفانور أنَّني لستُ صيَّادًا. ومع أنَّني جرَّبتُ الوقوفَ وسط نهر باردٍ حدَّ التجمُّد ، مُرتديًا جزمةً تصلُ إلى الركبتَيْن ، وحيدًا على أرضٍ مضطربة ، وشعرتُ بالبرد يضغطُ على جسدي مثلَ جدارٍ سميك ، وبالحصى على السرير الإسفنجيّ تحت جزمة الصيد ، ثمَّ شعرتُ بالنهر الذي جذبَني بقوَّةٍ وسرعةٍ إلى الأسفل ، وكيف ازداد عمقُ القاع وتلاشى ، بينما كنتُ أحدِّقُ في الدوَّامة العريضة ؛ مع ذلك كلِّه ، فإنَّني لم أطلق النارَ من قبلُ قطّ. عقب رحلتي الأخيرة لصيد السمك ، عدتُ إلى المنزل وفي جعبتي سمكتا سلمون مرقَّط ، قطَّعتُهما إلى شرائح ، وقليْتهما مع ثومٍ مُعمَّرٍ كنتُ قد اقتلعته من أصيصٍ على الشرفة. يعلمُ سفانور أيضًا أنَّني لا أحتمل العنف ، وذلك بعد أن حاول أن يجرَّني لمشاهدة الجزء الرابع من سلسلة أفلام دايْ هارد. على أيِّ شيءٍ يستطيع المرء أن يطلق النار في أيَّار ، باستثناء نفسِه ، أو أحد زملائه من سلالة الإنسان العاقل؟ لا بُدَّ من أنَّ سفانور سيستنتجُ ذلك.

بَيْد أنَّ سفانور ليس من النوع الذي يَطرحُ الأسئلة ، أو الذي يتأمَّلُ عُمومًا في حياة المرء الشَّخصيَّة. هو ليس من النوع الذي قد يشيرُ إلى بدرٍ كامل ، أو يعلِّق على الأضواء

القطبيَّة. هو لن يتحدَّث أبدًا عن ألوان قوس قزح في أقصى نهايات المعرفة الإنسانيَّة. بل إنَّه لن يَلفت انتباهَ زوجته ، أورورا ، إلى الألوان في السماء ، إلى تدرُّج الألوان ما بين الزهريِّ والورديِّ ساعةَ طلوع الفجر ، ولن يقول لها: «ها هي ذي ، سَميَّتُكِ(1)». ولن تفعل أورورا أكثر من ذلك أيضًا. ثمَّة توزيعٌ واضحٌ للمهامِّ في مَسكنهما: فهيَ وحدها من تجرُّ ابنهما المراهق خارج سريره في الصباح. أمَّا هو ، فيهتمُّ باصطحابِ كلبتهما البوردر كولي ، العَرْجاء على نحوٍ يبعث على الأسى ، ذات الأعوام الأربعة عشر إلى الخارج. كلَّا ، لن تُخالطَ سفانور أيُّ مشاعر بصدد هذه المسألة ، ولسوف يُعطيني البندقيَّة ويُخبرني أنَّها من طراز ريمنغتون ٤٠- إكس بي ، بزنادٍ وفوَّهةٍ أصليَّين ، وإنْ اشتَبَه أنَّني قد أطلُق النارَ على نفسي.

السرَّة ندبةٌ على البطون ، تكوَّنَتْ عندما تساقطتْ بقايا الحبل السرّيّ. عندما يولدُ طفل ، يُثبَّت الحبلُ السرِّيّ بإحكامٍ ، ثمَّ يُقطَع لكي يفصلَ الرابط ما بين الأمِّ والطفل. لذا ، فإنَّ الندبة الأولى مرْتبطةٌ بالأمّ

في شمس الربيع الباردة ، وعلى مقاعد الحديقة ، يجلسُ المسنُّون ، برؤوسهم وأكتافهم المحنيَّة إلى الأمام ، تحت بطَّانيَّاتٍ صوفيَّة ، على مقربةٍ من سرب إوزٍّ يسبح في ثنائيَّات. انتبهتُ إلى طائرٍ يجثم بمفرده بعيدًا عن المجموعة ، ولم يتحرَّك برغم اقترابي منه. كان أحد جناحَيْه مَلويًّا إلى الخلف ؛ من الواضح أنَّه مكسور. ليس للإوزَّة المصابة شريك ، ولن تتركَ نسلًا. لقد أرسلَ الرّبُّ إليَّ رسالة ؛ ولا يعني ذلك أنَّني أؤمن به.

تجلسُ أمّي بجَسدِها المترهِّل على كرسيٍّ بذراعَيْن ، قَدماها لا تلمسان الأرض ، وخُفَّاها أكبر ممَّا ينبغي ، يحملان فوقهما ساقَيْها النحيلتَيْن. لقد تلاشت تقريبًا ، ولم تَعُد جسدًا ، وأضحَت خفيفةً مثل ريشة ، ولا تُبقيها مُتماسكةً سوى عظامِها ، المصنوعة من الستيروفورم ، وبعض الأوتار. وهو ما يستدعي إلى الذهن الهيكلَ العظميَّ المُجوَّى لطيرٍ تُرك على أرضٍ يباب طيلة فصل الشتاء ؛ تبقى بقايا الهيكل الخاوية ، لكنَّها تتحلَّلُ في نهاية المطاف ، وتستحيل كُرةً من الغبارِ ذي المخالب. من الصعب تخيُّل أنَّ هذه المرأة الصَّغيرة الهزيلة ، التي لا تصلُ إلى ارتفاع كتفيّ ، قد سكنتْ جسدَ أنثى ذات يوم. أميِّزُ تنُّورتها ، التي كانت ترتديها للمناسبات الخاصَّة ، وقد باتت فضفاضةً جدًّا ، وكأنَّها كيسٌ حول الخصر ، وواسعةً أكثر من اللَّازم بكثير. ملابسُ تنتمي إلى حياةٍ سابقة ، إلى منطقةٍ زمنيَّةٍ أخرى.

لن ينتهي بي المطاف كحال أمّي

ثمَّة رائحةٌ مُعلَّقةٌ في الهواء. أسيرُ عبر سُحب البخار التي تنبعثُ من كُرات اللَّحم المنتفخة والملفوف. على عربة الطعام ، في الممرِّ ، أوعيةٌ بلاستيكيَّةٌ نصف مملوءةٍ بالكرنب الأحمر ومُربَّى الراوند. تمتزجُ قرقعة أدوات المائدة بأصوات الموظَّفين وهم يرفعونَها ويُخفضونها بالتناوب كي يسمعهم المسؤولون.

في الغرفة ، لا مساحةَ كافيةً للكثير من الأثاث ، باستثناء آلة الأرغن التي تلتصق بالحائط ؛ فقد كان مسموحًا لمُدرِّسة الرياضيَّات سابقًا وعازفة الأرغن بأن تحتفظ بآلتها ، إلَّا أنَّه يبدو مؤكَّدًا أنَّها لن تستطيع العزف مرَّةً أخرى.

إلى جانب السرير ، ثمَّة رفوفٌ للكتب لا تزال شاهدةً على هواية أمِّي: حروب العالم ، وليس أقلّها الحرب العالميَّة الثانية. هُناك نابليون بونابرت وأتيلا الهوني واقفان جنبًا إلى جنب ، وكتابٌ عن الحرب الكوريَّة ، وآخرُ عن فيتنام ، وقد حُشِرَ الكتابان بين مُجلَّدَيْن: الحربُ العالميَّة الأولى والحرب العالميَّة الثانية باللُّغة الدَّنماركيَّة.

تخضَعُ زياراتي إلى طقوسٍ يوميَّةٍ منحوتةٍ في الصخر ، وأوَّلُها أن تسألَني إنْ غسلت يديَّ.

«هل غسلتَ يديْك ؟»

«فعلت».

«لا يكفي أن تشطفهما ، وإنَّما ينبغي أن تُبقيهما تحت صنبور الماء الساخن لمدَّة ثلاثين ثانية».

خطرَ في بالي فجأةً أنَّني كنتُ في داخِلها ذات يوم.

أبلغُ من الطول مِترًا وخمسةً وثمانين سنتيمترًا ، وهذا بحسب آخر مرَّةٍ صَعدتُ فيها مقياس الطول .في غرفة تبديل الملابس في أحد حمَّامات السباحة .وأزِنُ أربعةً وثمانين كيلوغرامًا. هل تساءلَتْ هي نفسُها يومًا إنْ كان هذا الرجُل الضخم حقًّا في داخلها ذات يوم؟ أين حملَتْ بي؟ فوق السَّرير المزدوج على الأرجح ، تلك الكتلة من خشب الماهوغني ، وإلى جانبها الطاولة الجانبيَّة ، أضخم قطعة أثاثٍ في الشقَّة ، وكأنَّها مركبٌ شراعيٌّ ضخم.

تأخذُ الفتاةُ صينيَّةَ الطعام. ليست لدى أمِّي الشهيَّةُ لتناول الحلوى ، بودِنغ الخوخ مع القشدة.

«هذا يوناس إبِنِسِر ، ولَدي» ، تقولُ أمِّي.

«أجل ، أعتقدُ أنَّك عَرَّفْتِنا بعضنا إلى بعض في الأمس ، يا أمِّي...».

لا تتذكَّرُ الفتاة أيًّا من هذا ، لأنَّها لم تكن تعمل في الأمس.

«يوناس يعني الحَمَام ، وإبِنِسِر يعني المُعين. لقد اخترتُ هذيْن الاسمَيْن بنفسي» ، تواصل أمِّي حديثَها.

يَتبادر إلى ذهني فجأةً أنَّه ربَّما كان عليَّ أن أطلُبَ من الرجل في صالون تريغفي للوشوم أن يرسم لي حَمَامًا بدلًا من زنبقة ماء ؛ الحمامتان مَعًا ، أنا والطير ، مع بعض الشَّعر الشائب لكليْنا.

أتمنَّى أن تختفي الفتاة قبل أن تشرَع أمِّي بسردِ حكاية مولدي. لكنَّها لن تغادر الآن ، لأنَّها تضعُ صينيَّة الطعام جانبًا ، وتبدأ بترتيب المناشف.

«كانت ولادتُك أصعبَ من ولادة شقيقك» ، تقول أمِّي. «بسبب حجم رأسِك. لقد كان الأمرُ كما لو أنَّ لك قرنيْن على جبينك ، جَدعين» ، توضحُ قائلة: «مثل عجل ثور».

تُحدِّق الفتاة فيَّ ببلاهة. أعلمُ أنَّها تقارن بين أمِّي وبيني.

أتبسَّمُ في وجهها.

تتبسَّمُ بدورها.

«كانت رائحتُك مُختلفة ، أنتَ وشقيقك» ، تواصلُ أمِّي كلامها من على كُرسيِّها ذي الذراعَيْن. «كانت رائحتك كالوحل ، باردةً ورطبة ، وبوجنتَيْن باردتَيْن. كانت المنطقة

حول فمكَ داكنة. وجئتَ إلى المنزل وقد خدشتكَ قطَّةٌ على ظهر يديْك. لم تُشفَيا تمامًا».

تتوقَّفُ فجأةً ، كأنَّها تحاول أن تتذكَّرَ السطر التالي من نصٍّ لفيلمٍ أو مسرحيَّة.

«كتبَ يقطينتي مقالةً عن البطاطا عندما كان في الحادية عشرة من عمره فقط. كان عنوانها الطبيعة الأمّ. لقد كانت عنّي ، المقالة...».

«يا أمِّي! لستُ على يقينٍ من أنَّها مُهتمَّةٌ بِ... عُذرًا ، ما اسمُك ؟»

«ديليا».

«لستُ متأكِّدًا أنَّ ديليا مُهتمَّةٌ بسماع هذه القصَّة ، يا أمِّي...».

غير أنَّ الفتاة تبدو مُهتمَّةً حقًّا بما تقوله أمِّي. تومِئُ مُتعاطفةً ، وتتَّكئ إلى هيكل الباب.

«إنَّهُ لمن المُذهِل النَّظر إلى ما هو عليه هذا الرجل الضخم اليوم ، والتَّفكيرُ بمدى حساسيَّته في السَّابق».

«يا أمِّي...».

«كان يبكي إذا ما رأى طائرًا كسيرَ الجناح في الحديقة... لقد كان جُرحًا مفتوحًا... كان يقلق دائمًا بصدد ما إذا كان الناس يُعاملون بعضهم بطيبةٍ أم لا.. عندما أكبر ، كان يقول ، أريدُ أن أُصلِح العالم... لأنَّ العالم كان يُعاني ، لأنَّ العالم يحتاج إلى مَن يعتني به. لطالما كان يقطينتي مولعًا بالشفق... عندما تهوي الظلالُ ، يَستلقي على الأرض بالقرب من النافذة ، ويُحدِّق في الغيوم والسَّماء... مُوسيقيٌّ جدًّا... ثمَّ فرَّغ نفسه لصناعة دمى مسرح العرائس. لقد صنع دُمًى مُتحرِّكةً من جرائد رطبة ، ولوَّنَها ، وحاك لها ثيابًا.

أقفلَ الباب وقتَها ، وحشا ثقبَ المفتاحِ بورق الحمَّام. عندما كان في سنِّ المراهقة ، كان لا يزال شديد القلق حيال العالم. لن أتزوَّجَ ما لم أقع في الحبّ ، قال. ثمَّ وقع في حبِّ غودرون ، وكانت ممرِّضةً ورئيسةً لجناحٍ في مُستشفى ، كما أصبحتْ فيما بعدُ قابلةً أيضًا ، وخضعتْ لدورةٍ دراسيَّةٍ في الإدارة ...».

«يا أمِّي ...».

يَخنقُني ثِقلُ الهواء في الغرفة الحارَّة ، فأسيرُ إلى النافذة التي تُطلُّ على البحيرة ، حيثُ تَلمعُ بقوَّةٍ مجموعةٌ من الأضواء الحمراء التي لا تزال مُعلَّقةً على حوافِّ النافذة منذ عيد الميلاد الفائت. على هذه النافذة ، التي يُمنَع فتحُها لئلَّا تتسلَّل أيُّ نسمة هواءٍ باردةٍ إلى الغرفة ، عُلِّقَت الستائرُ التي أحضرَتها أمِّي وقصَّرتها ، من غرفة المعيشة ، بمنزلنا القديم في سيلفورتون. أميِّزُ نمطَها. من موضع المراقبة الممتاز هذا ، يستطيع المرء رؤيةَ عربة نقل الموتى وهي تُعبَّأ بحمولتها اليوميَّة.

«حبِلَتْ غوردون بحفيدتي ووترليلي بين كتلتَيْن من الحشائش الكثيفة في نهاية شهر أيَّار. فتاةٌ ذات وجهٍ مُنمَّشٍ كبيضة قطقاطٍ ذهبيٍّ ، وخبيرة في شؤون البحر. وحبيبها مغنِّي راب يمضغ التبغ ، ويعلِّق في أذنه قرطًا. لم يكن قرطًا عاديًّا ، بل كان ثقبًا واسعًا جدًّا ، وتتخلَّله بكَرةٌ كاملةٌ من الخيطان. رجلٌ وَدودٌ من قرية صيد السمك Eskifjördur ، ظلّ يعتني بجدَّته عندما كانت على فراش الموت ...».

«وصلَتْ فكرتُكِ يا أمِّي».

«ثمَّة رجالٌ لا يتعافون أبدًا إنْ هجرتْهُم امرأة ...».

«لا تصدِّقي كلَّ ما تقولُه» ، أقولُ وأفتح النافذة.

ثمَّ بدا وكأنَّها على وشك سرد قصَّةٍ ما. بَيْدَ أنَّها لم تَعُدْ قادرةً على تذكُّر ما أرادت أن تقوله ، وذبُلَتْ مثلما يحدث لمذياعٍ تلاشَت إشارتُه. وخلال لحظات ، غابت في عالمٍ آخر ، وزمنٍ آخر ، تُحاولُ أن تستكشف المشهدَ الضبابيّ ، لعلَّها تعثر على نجمةٍ تدلُّها على الطريق. كانت مثلَ طفلةٍ أضاعت خروفَها ، وراحت تُلقي نظراتها التائهة حول الغرفة ، وشيئًا فشيئًا ، تملأ وجوهٌ قديمةٌ ذلك المشهدَ القاحل.

تخرجُ الفتاة خلسةً من الغرفة ، وتحاول أمِّي أن تَضبِط جهازَ تقوية السَّمع في أذنها ؛ أن تضبطه على طول موجة صوتي ، على المجال المغناطيسيِّ لكوكب الأرض ، بتردُّد الزمن الصَّحيح.

أقفُ إلى جانب رفوف الكتب ، وألقي نظرةً على عناوينها: الحرب والسلم لتولستوي ، ووداعًا للسلاح لهمنغواي ، وكلُّ شيءٍ هادئٌ على الجبهة الغربيَّة لإريك ماريا ريمارك ، وليل لإيلي ڤيزيل ، وإلى حُجرة الغاز ، أيَّتها السيِّدات والسادة لتاديوش بوروفسكي ، واختيار صوفي لويليام ستايرون ، ولا مصير لإيمري كيرتيس ، وقُل نعم للحياة برغم كلِّ شيءٍ لڤيكتور فرانكل ، وهل هذا هو الإنسان لبريمو ليڤي. أسحبُ من أحد الرفوف مجموعةً شعريَّةً لپول سيلان ، وأقلِّب في صفحاتها حتَّى أصل إلى «ضباب الموت»: «نشربُكَ في الليل/نشربُ ونشرب». أضعُها في جيبي ، ثمَّ أسحبُ كتاب الحرب العالميَّة الأولى.

«مُذ خرجتَ من رحم أمِّك ، وقعَتْ ٥٦٨ حربًا» ، يقول الصوتُ القادمُ من الكرسيِّ ذي الذراعيْن.

من الصَّعبُ معرفة زمن حضور أمِّي معنا ، لأنَّها كتيَّارٍ كهربائيٍّ متناوب ، أو ربَّما ينبغي أن أشبِّهها بشَمعةٍ يرتعش ضوؤها. ففي اللَّحظة التي ظننتُ فيها أنَّها خمدَتْ ، توهَّجَتْ فجأةً من جديد.

ما إنْ غادرَت الفتاة ، حتَّى أخذتُ أساعد أمِّي على العودة إلى سريرها. أرفعُها من تحت ذراعيْها ، في حين تجرُّ خُفَّيْها على طول مُشمَّع الأرضيَّة ذي اللَّون الأخضر الفاتح. كم وزنها ؟ أربعون كيلوغرامًا ؟ إنَّ عَصفة ريحٍ ستكون كفيلةً بإسقاطها ، وربَّما أضعف نسمة ، بل إنَّ نفخة هواء قد توقعها أرضًا. أُبعِدُ الوسادتَيْن المطرَّزتَيْن جانبًا ، وأجلسُ على حافَّة سريرها للحظات. تستلقي ، ويتوارى جسدُها في المرتبة. أرى زجاجةَ العطر التي أعطيتُها إيَّاها على الطاولة إلى جانب السرير ، «Eternity Now» ، لأنَّ أمِّي تحبُّ أن تَمسح بها خلف أذنَيْها. تُمسِكُ بيدي ؛ فأرى ظهرَ يدها التي خَبرتِ الحياةَ ، وأوردتها الزرقاء ، وأظافرها التي تلمِّعُها مرَّةً كلَّ أسبوع.

كانت أمِّي هي مَنْ ساعدني في الرياضيَّات عندما كنتُ في المدرسة الثانويَّة. ولم يكن في مقدورها أن تفهم لماذا لم تكن مُقرَّرًا سهلًا بالنِّسبة إلى الجميع.

«المعادلات الرياضيَّة غايةٌ في البساطة» ، كانت تقول.

ثمَّ تشرحُ لي كيف أستطيع معرفة الجذور التربيعيَّة من دون الحاجة إلى استخدام آلةٍ حاسبة. تقول إنَّ الجذر التربيعيَّ للعدد ٢ ($\sqrt{٢}$) هو العدد الذي يعطي ٢ عندما نضربه

بنفسه. إذًا، نحن نبحث عن عددٍ مجهولٍ ×، وبناءً على ما سبق، فإنَّ ×٢.= ٢. نعلمُ أنَّ × يتراوح ما بين ١.٤ و١.٥، لأنَّ ١.٤٢= ١.٩٦<٢، لكنَّ ١.٥٢=٢.٢٥>٢. الخطوة التالية تفحُّص الأعداد ما بين ١.٤٠، و١.٤١، و١.٤٢، وهكذا حتَّى نصل إلى ١.٤٩. يتَّضح أنَّ ١.٤١٢=١.٩٨٨١<٢، و١.٤٢٢=٢.٠١٦٤>٢. ويدلُّ هذا على أنَّ الجذر التربيعيَّ للعدد ٢ يقع في مكانٍ ما بين ١.٤١ و١.٤٢.

«هل توصَّلوا إلى هُدنة؟»، أسمعُها تقول من على سريرها.

تُصفِّف شعرَها مرَّةً كلَّ أسبوع، وتنسكبُ شمسُ الرَّبيع عبر النافذة الغربيّة، ليتوهجَّ شعرُها الجميل بلونه الأرجوانيِّ الفاتح؛ هي كرةُ زغبٍ في أشعَّة الشمس.

«قُتِل ستُّون مليونًا في الحرب العالميَّة الثانية»، تُواصل القولَ.

الحديث إلى أمِّي كالحديث إلى لا أحد. وهذا مناسبٌ تمامًا لي، إذ يكفيني أن أشعرَ بدفءٍ يأتي من جسدٍ آخر على قيد الحياة. أقرِّرُ بأنَّها تَفهمُني، وأدخلُ في صلب الموضوع مباشرة.

«أنا سعيد»، أقول.

تُربِّتُ على ظهر يدي.

«لدينا جميعًا معاركُ كي نخوضها»، تقول لي، ثمَّ تضيف: «لقد نُفيَ نابليون من نفسِه. وكانت جوزفين وحيدةً في زواجِها، كحالي تمامًا».

فوق خزانة الكتب، مجموعةٌ من الصور المؤطَّرة، معظمُها لابنتي، ووترليلي، في مراحلَ عمريَّةٍ مختلفة. هناك صورتان لي، وصورتان لأخي، لوجي، بتمثيلٍ مُتساوٍ. في

إحدى الصور ، كنتُ في الرابعة من عمري ، واقفًا على كرسيّ ، ومُتعلِّقًا بعنق أمّي. كانت ترتدي سترةً صوفيَّةً زرقاء فاتحة ، وقِلادةً من اللؤلؤ الأبيض ، وتضعُ أحمرَ شفاهٍ داكنَ اللَّون.

وكانت تسريحة شعري أشبه بقنفذ ، وذراعي مُضمَّدةً بحمَّالةٍ طبِّيَّة. هذه أقدمُ ذكرياتي ؛ وكان عليهم أن يعيدوا تثبيتَ الذراعِ مرَّةً أخرى. تقفُ أمّي إلى جانب الأرغن. بماذا كنَّا نحتفل ؟ هل كان عيد ميلادها ؟ أرى الآن ، بينما أحدِّقُ في الصورة ، شجرةَ عيد ميلادٍ في الخلفيَّة. مرَّت خمسٌ وأربعون سنةً منذ التقاط هذه الصُّورة ؛ منذ أن كانت تعابيرُ وجه الصبيِّ حقيقيَّةً وصادقة.

أمَّا الصُّورة الثانية ، فكانت من باب التأكيد. شفتاي مشقوقتان قليلًا ، وأحدِّقُ في المُصوِّر حائرًا ، كما لو أنَّ شخصًا غريبًا أيقظني من نومي ، كما لو أنَّ عليَّ أن أتحسَّسَ طريقي في العالم الذي ولِدتُ فيه. كان عالمًا من خشب الساج وأوراقُ الجدران المزخرفة بالأزهار في كلِّ غرفة ؛ وباستثناء ذلك ، كان كلُّ شيءٍ بالأبيض والأسود ، مثل التلفاز.

أُجري محاولةً أخيرة:

«لا أعرفُ من أنا. لستُ شيئًا ، ولا أملكُ شيئًا».

«لم يعِش والدُكَ الحربَ الإيرانيَّة ، ولا العراقيَّة ، ولا الأفغانيَّة ، ولا الأوكرانيَّة ، ولا السوريَّة... ولا حتَّى احتجاجات محطَّة توليد الطاقة في kárahnjúkar ، ولا أعمالَ الطرق التي ضاعفَتْ عرض طريق Miklabraut السريع...».

تمدُّ يدها إلى طاولة السرير ، وتلتقطُ أحمرَ الشفاه.

بعد ذلك بوقتٍ قصير ، تَشرعُ بالحديث عن ملاحم الملوك النورديّين:

«هاكون آثيلستان ، وهارالد بلوتوث ، وسوين فوركبيرد ، وإريك بلوداكس ، وأولاف تريغفاسن...» ، تُتمتِمُ بعجالة.

يضيقُ صدرُها ، وتُخبرني أنَّها مشغولة.

«أنا مشغولةٌ قليلًا ، يا يقطينتي الغالية».

يَقتربُ موعدُ نشرة الأخبار ، فتنهضُ في نصف استقامةٍ كي تُشغِّل المذياع ، وتستعرضَ حرب اليوم في الموجز الإخباريّ ، ثمَّ تستلقي برفقة بلاغات الموت وإعلانات المآتم تتردَّدُ في أذنها.

بعد أن أغادر ، أتَّصلُ بخطِّ المساعدة المُباشرة كي أُعلمهم بوجود إوزَّةٍ مكسورة الجناح في دار المسنِّين.

«طائرٌ ذكر» ، أقول. «وحيد ، بلا شريكة».

أحاول بعد ذلك أن أتذكَّر. ألم يُطلق همنغواي النارَ على نفسه من بندقيَّته المفضَّلة ؟

...إنَّ شكوكيَّة الرجولة ترتبطُ بالنبوغ في الحرب والغزو

أخبرني الرَّجلُ في صالون الوشوم أنَّ جلدي سيؤلمني بضعةَ أيَّام ، وقد يُصاب بالاحمرار ، وربَّما بحكَّةٍ تستحيل طفحًا. وإنْ تورَّم الجلدُ وأصبتُ بحمّى ، فقد أحتاجُ إلى مضادَّاتٍ حيويَّة ، أو قد أحتاج في أسوأ الحالات إلى الذهاب إلى غرفة الطوارئ. لن أتفاجأ ، إذ كنتُ أعاني الأعراضَ الأولى بالفعل.

أعود من زيارة أمّي. أرى سفانور يُلمّع سيَّارته الأوبل ، وكاراڤانه جاهزًا للانطلاق في الممرّ. يرتدي صندلًا وسترةً صوفيَّةً برتقاليَّة ، يظهر عليها شعارُ شركة الإطارات التي عمل فيها لفترةٍ قصيرةٍ قبل بضع سنوات. التقينا عندما كان يعمل في شركة ستيل ليغز المحدودة ؛ وفي الواقع ، كان سفانور هو من أخبرني أنَّ في هذا الحيِّ شقَّةً شاغرةً في الطابق الأخير ، قبالةَ مسكنه هو وأورورا. عدا ذلك ، نحن لسنا مُقرَّبين. في الوقت الحاليّ ، يقضي فترة نقاهةٍ في منزله ، كي يتعافى من عمليَّة انزلاقٍ غضروفيّ. يمكن وصفُنا بأنَّنا رجلان «بيتوتيَّان».

كان سفانور قد وضعَ على الرَّصيف كُرسيَّيْن قابلَيْن للطيّ ، كأنَّه يتوقَّع ضيفًا ، يومئ إليَّ بالمجيء.

ينتابني شعورٌ بأنَّ جاري يُراقبني ؛ فعندما خرجتُ إلى الشارع هذا الصباح ، رأيتهُ يتمشَّى على مَهلٍ بالقرب من حاويات القمامة بصحبة كلبته ، يراقبُ المدخل الأماميَّ للبناء الذي أعيش فيه.

تضاعفَتْ زياراتُه لي خلال الأيَّام القليلة الماضية أيضًا. فقد أرادَ استعارَة مفتاحٍ إنكليزيٍّ بحجمٍ مُحدَّدٍ ، ثمَّ أعادَه إليَّ ، وطلب منّي أن أساعده في حمل الثلَّاجة الجديدة التي اشتراها للتوّ ، كي يضعها في الكاراڤان. ومع ذلك ، وقبل كلِّ شيء ، فقد كان يرغب في التَّحدُّث عمَّا يَشغلُ تفكيره: العربات الآليَّة ، وأوضاع المرأة في العالم ؛ وهُما المجالان اللَّذان يحاول أن يجمع بينهما بقدر ما يستطيع. يَجرُّ أحدَ الكراسي القابلة للطيّ ، ويشيرُ إليَّ بالجلوس. ولا بديل لديَّ سوى الدردشة مع جاري.

«لا يولي الناسُ سيَّاراتِهم ما يكفي من الاهتمام» ، هذا أوَّل ما يقوله لي. «نعيشُ على جزيرةٍ يضربها البحر ، فتصدأ هياكلُ السيَّارات. لا يكفي أن ترُشَّها مرَّةً كلَّ سنة ، وتبدِّلَ زيتها ؛ بل عليك أيضًا أن تلمِّعَها بانتظام. ثلاثُ طبقاتٍ من التَّلميع ، وأن تمسح بين كلِّ طبقةٍ وأخرى. الموادُّ التي يستخدمونها في مغاسل السيَّارات رديئةٌ كالقمامة».

يستندُ إلى الكرسيِّ الآخر.

«يقودُ بعضُ الناس سيَّاراتهم بإطاراتٍ مثقوبةٍ لسنوات ، وينتهي بهم الأمر إلى تغيير العربة كلِّها!»

لا يُجري سفانور أيَّ مُحادثة ، بل يُقدِّمُ مونولوجاتٍ من دون أن ينظُر إليَّ ، مُحدِّقًا في مكانٍ ما ورائيّ ، كأنَّ الشخص الذي يتحدَّثُ إليه فوقي أو إلى جانبي.

«عندما تُفكِّر بأسلوبِ تعامُلِ العالم مع المرأة ، ستشعر بالخزي لكونك رجلًا» ، يواصلُ حديثه.

يجلس على الكرسيِّ مباعدًا ما بين رجلَيْه ، ويميل إلى الأمام ، ويضغطُ بمرفقَيْه على ركبتَيْه.

يتبيَّنُ أنَّ سفانور اشترك في بعض القنوات التلفزيونيَّة الأجنبيَّة ، وشاهد في اللَّيلة الماضية وثائقيًّا عن ختان الإناث ، وبرنامجًا عن الأحداث الجارية التي تتناول النساءَ والحرب.

«لديك ابنة...».

«صحيح».

«أتعلمُ أنَّ النساء يُنفِذن تسعين في المئة من جميع الأعمال على الأرض ، لكنَّهنَّ لا يملكن سوى واحدٍ في المئة من الموجودات ؟ وماذا يفعل الرجال في هذه الأثناء ؟»

لا ينتظرُ إجابةً ، بل يتابع بالقول:

«يضيّعون الوقت ، ويَسْكرون ، ويشنُّون الحروب».

يرفعُ يدَيْه الخشنتَيْن إلى وجهه ، وشحمُ السيَّارات يتخلَّلُ أصابعه.

«هل تعرف كم امرأةً تُغتصبُ في كلِّ ساعة ؟»

«تقصدُ ، في العالم ؟»

«أجل ، في العالم».

«كلَّا».

«سبعة عشر ألفًا وخمسمائة».

نصمت كلانا.

ثمَّ يواصلُ كلامه:

«وهل تعرفُ عدد النساء اللواتي سيمُتْنَ أثناء الولادة غدًا ، الخميس ، السادس من أيَّار ؟»

«كلَّا».

«ألفا امرأةٍ تقريبًا».

يسحبُ نَفسًا عميقًا.

«عليهنَّ أيضًا أن يُكابدن الزواجَ القسريّ ، وكأنَّ الموتَ أثناء الولادة لم يكن يكفيهنَّ».

يرفعُ نظَّارته السَّميكة مثل كعب زجاجة، والتي لم يُنظِّفها منذ زمنٍ بعيد. يقول إنَّه يعاني قِصَرَ البصر واللَّابؤريَّة، وإنَّهُ عندما يخلع نظَّارته، يُصبحُ مشهدُ البركان على الجانب الآخر من الخليج ضبابيًّا. وللمرَّة الأولى، ينظر في وجهي مباشرةً.

«الذنب ذنبنا؛ نحنُ الذين ندري ذلك ولا نفعل شيئًا».

في الحديقة سربٌ من الطيور الصَّغيرة، تطيرُ من السطح، تحت أنابيب التَّصريف، وتختفي في لحظات. أنهضُ. يُخبرني بوجود كعكة شوكولاتة أميركيَّة في الفرن، ويسألني إنْ كنتُ راغبًا في الدخول.

«Betty Crocker»، يُضيف. وبعد برهةٍ من التردُّد، يقول: «تتبعُ أورورا نظامًا غذائيًّا خاليًا من الغلوتين». لهذا، يتولَّى سفانور إعدادَ الكعكة.

يُخبرني أنَّه وضعها في الفرن للتوّ ، وينبغي أن تكون جاهزةً خلال فترةٍ قصيرة.

أفكِّرُ في الأمر. لم أستعِرْ منه بندقيَّة الصَّيْد بعد.

«جيِّدٌ أن يكون لدى المرء من يأتمنه على أسراره» ، أسمعُه يقول.

أخبرُه بأنَّني لن أغيب طويلًا.

عليَّ أن أذهب إلى شقَّتي أوَّلًا كي أتحقَّق من شيءٍ ما!

أنا لونٌ مائيّ.. إلى زوال

بمقدوري هذا الصَّباح أن أرى نصفَ جبلٍ عبر نافذة المطبخ، وأن أرى امتداد البحر الأخضر البارد. يتلاشى الجبلُ بعد أن أضيفَ طابقٌ آخر إلى ناطحة السحاب المقابلة.

أشغِّلُ الكمبيوتر، وأبحثُ في غوغل عن الكتَّاب المشهورين المنتحرين. يُفاجئني عددُ الصفحات التي تتناول هذا الموضوع. لم أكن لأتخيَّل أبدًا أنَّ ثمَّة مجموعةً بهذا الحجم من الرجال والنساء ذائعي الصيت الذين قرَّروا في مرحلةٍ ما أن يُنهوا حياتهم. لم تُخطِئ ذاكرتي: لقد استخدمَ مؤلِّفُ ثمَّ تُشرق الشمس وأن تملك وألَّا تملك [أرنست همنغواي] بندقيَّته المفضَّلة. ولم أكن بحاجةٍ إلى الكثير من الوقت كي أتحقَّق من اشتباهي في أنَّ معظم الرجال يختارون أن يُطلقوا النارَ على أنفسهم، مع أنَّ هذا الفعل أكثرُ شيوعًا في البلاد التي تعتبر مُلكيَّة الأسلحة أمرًا دارجًا. أتصفَّحُ أحد المواقع الإلكترونيَّة، فأقرأ أنَّ كاتب قصَّةٍ قصيرةٍ أردى نفسه ببندقيَّة صيدٍ في مُنحدرٍ للتزلُّج، فصبغ بياضَه باللَّون الأحمر؛ وأنَّ شاعرًا في الثلاثين أطلقَ النار على عشيقته ثمَّ أردى نفسه؛ عندما عُثر على جُثَّته في غرفة أحد الفنادق في باريس، كانت أظافرُ قدمَيْه مطليَّةً باللَّون الأحمر، وثمَّة وشمٌ لصليبٍ على أخمص قدمه. قلائلُ قفزوا من النوافذ، مع أنَّ العديد قفزوا من الجسور إلى الأنهار، وبعضُ هذه الأنهار أكثر شعبيَّةً من غيرها؛ على غرار نهر السِّين. أقرأ أنَّ پول سيلان كان أحدَ غرقى السِّين، وهو مُؤلِّف المجموعة الشعريَّة التي وجدتُها في خزانة كتب أمِّي، ولا تزال في جيب سترتي. أمَّا الشاعر الرُّومانيُّ بترونيوس، فقد قطع شرايينَ معصمَيْه ثمَّ ضمَّدها، وذلك كيْ يؤخِّر موته ليتمكَّن من الاستماع إلى صديقه

الذي كان يُلقي قصائدَ عن الحياة. كما تَبرُز الحبوبُ المنوَّمةُ أيضًا وسيلةً تُتيح للناس أن يناموا وقتًا أطول من المعتاد في غرف الفنادق ؛ إلى الأبد ، إنْ جاز القول.

وباهتمام ، ألاحظ أنَّ النساء يعتمدن أساليبَ أخرى ، مع تركيزٍ أكبر على أفران الغاز في المطابخ ، ودخان عوادم السيَّارات في الكراجات المُغلقة بعد بضعة أقداحٍ من الڤودكا.

ألاحظُ أيضًا أنَّ النساء أكثرُ ميلًا لترك رسائل وداع ، فتراهنَّ يكتبنَ بضعة سطور: «إلى حبيبي العائد إلى زوجته» ، ثمَّ يقُلن عن أنفسهنَّ: «أمَّا بالنِّسبة إليَّ ، فأنا لونٌ مائيٌّ.. إلى زوال». وقد تركَتْ ڤيرجينيا وولف رسالةَ حبٍّ إلى زوجها قبل أن تملأ جيوبَها بالحجارة ، وتُغرِقَ نفسَها في نهر أُوز. «لا أظنُّ أنَّ أحدًا قد شعر بسعادةٍ كمثل سعادتنا» ، كتبَتْ. وثمَّة وداعاتٌ بسيطة ، كتلك التي خلَّفتها الشاعرة التي قفزتْ عن قاربٍ في خليج المكسيك ، إذ صاحَت: «وداعًا ، جميعًا!»

يُدهشني أنَّ أولئك الرجال والنساء كانوا في العموم أصغرَ منِّي سنًّا بعقدَيْن تقريبًا. والسنوات قُبيل الثلاثين ، وبُعيْدها ، هي الأكثر صعوبة. يُقرِّرُ أحدُهم أن يُنهي حياتَه في الثانية والثلاثين من عمره ، وكذلك يفعلُ آخر في الثالثة والثلاثين من عمره ، وكلاهما روائيّ. الأمر ذاتهُ بالنِّسبة إلى رسَّامٍ بلغ الرَّابعة والثلاثين ؛ كما بلغ مایاكوفسكي عامَه السادسَ والثلاثين [قبل أن ينتحر] ؛ وفعلها بافيزي في عامه الحادي والأربعين. إنَّ بلوغ السَّابعة والثلاثين من العمر قاسٍ بالنِّسبة إلى الفنَّانين ، وليس بمقدور الجميع أن يتجاوزوا هذه العقبة. بل إنَّ الانتحار يأتي في سنٍّ أصغر بالنِّسبة إلى الموسيقيِّين: براين

جونز ، وجيمي هندريكس ، وجانيس جوپلين ، وكورت كوبين ، وإيمي واينهاوس ، وجيم موريسون.. كانوا جميعًا في السَّابعة والعشرين. لقد تخطَّيتُ سنَّ انتحار الفنَّانين.

تسري قوانينُ أخرى عندما تكون مجرَّد شخصٍ عاديٍّ.

تُوشِك أن تَبلُغ التاسعة والأربعين من عمرك!

ذكر

مُطلَّق

مُغاير جنسيًّا

ضَعيف

بلا حياةٍ جنسيَّة

حِرَفيٌّ بارع.

النَّدبة: آفةٌ جلديَّةٌ تنمو حول جرحٍ أو إصابة

يقفُ سفانور على أرضيَّة المطبخ المرقَّطة مُرتديًا جاربيْه ، وقميصَه الذي كُتِب عليه « Shit Happens» ، ويربطُ مئزره.

أشاهدُه يَرتدي قفَّازيْ فرن أحمريْن ، ويفتح الفرنَ ، ويسحبُ بحذرٍ الرفَّ الذي يحملُ قالبَ الخَبز ، ويغرز ميزانَ حرارةٍ في الكعكة.

«سبعُ دقائق أخرى» ، يقول ، ثمَّ يسكب القشدة داخل وعاء ، ويُشغِّل مخفقةً كهربائيَّة. يديرُ ظهره إليَّ ، صابًّا تركيزَه على المهمَّة. وما إنْ ينتهي من خفق القشدة حتَّى يشرعَ في شطف المخفقة ، قبل أن يضعها في غسَّالة الأطباق.

أفكِّرُ في اللَّحظة المُناسبة للحديث عن البندقيَّة.

وبينما يغرفُ القشدة من الوعاء، يُخبرني بأنَّه شعر ببعض الاضطراب في روح أورورا.

ما زال يدير ظهره إليَّ.

«لن تعرفَ ما تفكِّر المرأةُ فيه أبدًا. فهي لا تكشفُ شيئًا على السَّطح، وفجأةً، تتَّخذُ قرارًا، وتُخبرُكَ بأنَّها لم تعُد تحبُّك. كما لو أنَّها كانت تتغيَّرُ في الخفاء».

يُخرج الكعكةَ من الفرن ويُحرِّرها من القالب، ثمَّ يقصُّ منها قطعةً، ويتفحَّصُ بدقَّةٍ مكانَ القَطْع كي يتأكَّد من أنَّها صارت جاهزة. وما إن ينتهي من هذه الإجراءات، حتَّى يضعَ القطعة على طبقي مستخدمًا سكِّين الحلويَّات وأصابعَه الثخينة.

يبدو عليه القلق، ويريدُ أن يعرف إنْ كنتُ قد لاحظتُ أيَّ إشاراتٍ قبل أن تهجُرَني غوردون.

أفكِّرُ في الأمر قليلًا.

«قالت لي إنَّني أكرِّرُ كلَّ شيءٍ تقولُه».

يَتملكُّه الذهول.

«تُكرِّر! ماذا تقصد؟»

«أجل، أخبرَتني أنَّها كلَّما قالت لي شيئًا، أجبتُها مُكرِّرًا ما قالَتهُ تمامًا، مُغيِّرًا صيغةَ التَّوكيد إلى سؤال، على سبيل المثال».

ترتسمُ على وجه سفانور علامةُ استفهامٍ كبيرة.

أشرحُ له.

«عندما تقول لي: 'اتَّصلَتْ ووترليلي'، أردُّ عليها بالقول: 'اتَّصلتْ ووترليلي؟'. يُسمَّى هذا تكرارًا، على حدِّ تعبيرها».

ينظر سفانور إليَّ كأنَّني اقترحتُ نظريَّةً جديدةً عن قوانين الزمن والفيزياء في الثقوب السَّوداء.

«أليس من الطبيعيِّ أن تُكرِّر؟» يسألُ بتردُّد.

«لا، لم ترَهُ غوردون كذلك».

«وماذا على المرء أن يقول .بدلًا من التكرار؟»

«لستُ متأكِّدًا».

«هل طلبتَ منها ألَّا تُغادِر؟»

«لا، لم أفعل».

يُخرِجُ علبةَ حليبٍ من الثلَّاجة، ويَصبُّ منها في كأسيْن، ثمَّ يدفع إليَّ بإحداها. أحيانًا، تُبقي لي والدتي كأسًا من الحليب، وقطعةً من كعكةٍ مُطبَّقةٍ مع القشدة في صحنٍ على طاولة سريرها. تسكبُ الحليب الفاتر من قارورةٍ معدنيَّةٍ مخصَّصةٍ للقهوة في الأصل، وأعرفُ تلك النكهة.

نصمت كلانا.

بعد لحظات، يستكمل جاري الحديثَ عن الموضوع نفسه.

«والآن، أنت زيرُ نساء».

أسألُ نفسي إنْ أسأتُ فهمَ ما قاله ، أو أنَّه يقصدُ معنًى آخر غير الذي أعرِفُه. بَيْد أنَّ سفانور ليس من النوع الذي يتحدَّثُ بالمجازات.

هل أخبرُه أنَّني لم ألمسْ جسدَ امرأة .ليس عمدًا على الأقلّ .أو أضمَّ أيًّا بيديَّ كلتيْهما ، منذ ثماني سنوات وخمسة أشهر ، أو منذ أن توقَّفنا ، أنا وغوردون ، عن ممارسة الجنس معًا ، وأنْ ليس من امرأةٍ في حياتي إلَّا أمّي وطليقتي وابنتي؟ ومع ذلك ، ما من نقصٍ في أجساد النساء في هذا العالم ، وفي بعض الأحيان ، يمتلكن القدرة على إثارة مشاعري ، ويُذكِّرنني بأنَّني رجُل. تخرجُ امرأةٌ من حوض الاستحمام الحارّ ، ويقطر الماءُ من جسدها ، ويلفُّها بُخارُه المتصاعِد ؛ الحرارة في الخارج أقرب إلى درجة التجمُّد ، ويشقُّ الهلالُ طريقَه بصعوبةٍ بين الغيوم كي يدخُل المشهد قُبيلَ ساعة إغلاق بركة السباحة. ثمَّة احتمالٌ أيضًا أن تكون ذراعاي قد مسَّتا عن غير قصدٍ امرأةً ترتدي قميصًا بكمَّيْن قصيرَيْن ، أثناء وقوفي مُنتظرًا في طابور أحد المتاجر ، أو أنَّ شَعر إحداهنَّ لامسني أثناء انحنائها ؛ وعلى سبيل المثال ، تَحْضرني صورةُ الفتاة التي تقصُّ شعري: عندما تغسِلُه في مغسلة الصالون ، تقف خلفي ، وتُدلِّكُ صُدغيَّ ، وتُخبرني أنَّ شعري قويّ. سألتُها مرَّةً عمَّا يجول في خاطرها ، فضحِكتْ ، وأجابتني بينما كانت تنظرُ إليَّ عبر المرآة: رجلٌ مُحدَّد ، ووصفةٌ لإعداد الطعام. كلَّا ، ينبغي أن أُطلِق النارَ على نفسي ؛ أن أمزِّقَ اللَّحمَ برصاصةٍ فولاذيَّة ، لعلِّي أشعر بهذا الجسد.

هذا ما يفعلُه الرجال.

«لأنَّ بعض صديقات أورورا يتساءلن إنْ كنتَ تبحثُ عن شريكة سرير. سألَتني، وأخبرتُها أنَّكَ لست كذلك في الوقت الحاليّ. سألنَ أورورا إنْ كنتَ قد تجاوزتَ محنةَ طلاقك، فسألتني بدورها، وأجبتُها بأنَّك لم تتجاوزها بعد. أردنَ معرفة إنْ كنتَ تتردَّد إلى المقاهي أو المسرح، وقلتُ إنَّني لا أعتقدُ ذلك. سألن أيضًا إنْ كنتَ تحبُّ القراءة، فأجبتُ أورورا بالنَّفي؛ وعندما أخبرَتهنَّ بذلك، أبدينَ حماسةً، وأردنَ معرفةَ طبيعة الكتب التي تُفضِّلُها، فقلتُ إنَّك تُفضِّلُ الروايات والشعر، ثمَّ أردنَ معرفة إنْ كنت تحبُّ قراءة تلك الكتب باللُّغة الآيسلنديَّة أم الإنكليزيَّة، فقلتُ باللُّغتيْن كلتيْهما».

ودونما تفكير، سألتُه:

«كنت أتساءلُ إنْ كان بمقدورك أن تُعيرَني بندقيَّةً خلال عطلة نهاية الأسبوع».

إنْ كان طلبي هذا قد فاجأه، فإنَّه لم يُبدِ أيَّ علامةٍ على ذلك. بل راح يومئ برأسه، ويخلع مئزر المطبخ ويضعه على ظهر الكرسيّ، كأنَّه ينتظر منّي أن أذكُر السلاح. وإذْ به يذهبُ إلى غرفة المعيشة، فأسمعُ حركة تفتيشه لخزانةٍ مُغلقة. في هذه الأثناء، أحدِّقُ في صورتيْن معلَّقتيْن على الثلَّاجة: واحدةٌ لسفانور، يرتدي فيها سترةً صوفيَّة، وإلى جانبه كلبتُه؛ والثانية لأورورا وسط مجموعةٍ من النساء المُتبسِّمات. كنَّ يرتدين ملابسَ للتخييم، ويَنتعلن أحذيةً للمشْي الطويل، وقد أخذتْ نصفُ المجموعة وضعيَّة القرفصاء، وكأنَّهنَّ في صورةٍ لفريق كرة قدم. بعد لحظات، يعود سفانور حاملًا البندقيَّة، ويُسْندها إلى الجدار، بجانب المكنسة. ثمَّ يمشي في اتِّجاه الصُّورتَيْن.

«ما إنْ أنتهي من إصلاح الكارافان، حتَّى يكون في وسعنا، أنا وأورورا، إيجادُ بقعةٍ معشوشبةٍ إلى جانب جدولِ ماءٍ حيث نريد». يجلسُ بجوار الطاولة، على الكرسيِّ المقابل، ويصبُّ لنفسه كأسًا أخرى من الحليب.

أسمعُه يقول إنَّه يشتبه أنَّ أورورا قد بدأتْ تقرأ الشعر.

«عندما مَررتُ بجانب باب الحمَّام ليلة البارحة، قالت إنَّني أُغطِّي أُفُقَها».

يهزُّ رأسه.

«أشعرُ في بعض الأحيان أنَّ التَّفكير في أورورا خيرٌ من أن تكون بجانبي حقًّا. هيَ لن تفهم هذا أبدًا».

مرفقاه على الطاولة، ويداه أمام وجهه، ويتكلَّم من بين أصابعه.

«لا تُدرِك أورورا أنَّ ثمَّة أشياءَ تحدث داخل الرجل؛ أنَّ لدى الرجل إحساسًا بالجمال. إنَّ ارتشاحَ زيت السيَّارات على الإسفلت الرَّطب، وألوانَ قوس قزح، أشياءُ تجعلني أحلم بواقعٍ آخر».

أنهضُ وأحمل البندقيَّة. يُرافقني سفانور إلى الدرجات أمام مدخل المنزل. أضعُ السلاح تحت ذراعي، موجِّهًا فوهتَه إلى أسفل.

هل ينبغي أن أخبرَه بما سيحدث: أنَّني لن أكبر في العمر؟

هل يشكُّ في ذلك؟

لو أنِّي طلبتُ من سفانور أن يُعطيني سببًا واحدًا فقط من أجل أن أبقى على قيد الحياة.

كنت سأطلبُ منه سببًا واحدًا فقط، لكنْ لا مانع من سَببيْن.

ولكي أوضِّحَ له الأمر ، سأُخبره أنَّني تائه.

هل سيقول لي: أَفهمُ ما تقصدُه ، فأنا أيضًا لا أعرفُ نفسي؟ هل سيحتضنني بعد ذلك عند باب المنزل ، نصفُ جسده في الداخل ، والآخرُ في الخارج ؛ جسده الذي يبدو كهالةٍ مُقدَّسةٍ مُستطيلةِ الشَّكل ، بوزنٍ يتجاوز مئة كيلوغرام ، وقميصٍ ذي كمَّيْن قصيرَيْن ، محشورٍ في سرواله من الأمام ، ومُسدَلٍ من الخلف؟ رجلان في منتصف العمر ، عالقان في عناقٍ على الدرجات أمام مدخل المنزل ، في اليوم الخامس من الشهر الخامس؟

ستصيحُ أورورا من الداخل: « مَن هُناك؟ إذا كانوا يبيعون السمكَ أو الجمبري المُجفَّف ، فاشترِ بعضَ الجمبري. لا تَشترِ شرابَ العِرقسوس ، فإنَّه مُضرٌّ بصحَّتك».

ما الذي يمكن أن يقوله سفانور ، ويكونَ إلهامًا لي؟

هل سيبحثُ عن اقتباسٍ شعريٍّ أو فلسفيٍّ مُناسبٍ عن الموت؟ هل سيجدُ الكلمات التي من شأنها أن تغيِّرَ هذا الظرف؟ أم تراه سيكتفي بالقول:

«سوف تموت عمَّا قريب ، على أيِّ حال. كُن على يقينٍ من هذا. حدِّثْني مرَّةً أخرى في غضون الأعوام الثلاثين القادمة ، وتأكَّدْ من أنَّك ستكون في حينها متمسِّكًا بكلِّ لحظة ، مثلما يمسك كلبٌ بعظمة. مثل أمِّك».

لكنَّه ، بدلًا من ذلك ، يقول:

«هل سبقَ أن شاهدتَ النَّدبة؟»

«النَّدبة؟ كلَّا ، أيُّ نَدبة؟»

«النَّدبة التي خلَّفَتها عمليَّةُ الانزلاق الغضروفيّ».

وقبل أن أجيبَه ، يسحبُ قميصَه خارج سرواله ، ثمَّ يخلعه كاشفًا عن ظهره. في الشارع ، عددٌ قليلٌ من الناس في هذا اليوم من منتصف الأسبوع.

تمتدُّ نَدبةٌ كبيرةٌ على طول عموده الفقريّ. أفكِّرُ أنَّ الرجل من صالون تريغفي للوشوم قد يُغطِّي هذه النَّدبة بدرَّاجةٍ رُباعيَّة الدفع ، أو بزلَّاقةِ جليدٍ آليَّة.. بَيْد أنَّني أقاوم رغبتي في الكشف عن زنبقتي المائيَّة.

يقول لي: «أتدري أنَّ النَّدبات في بعض بقاع الأرض تُعتبر رُموزًا تفرضُ الاحترام ، وأنَّ من يحملُ نَدبةً كبيرةً ومهيبةً إنَّما هو شخصٌ واجهَ وحشًا ضاريًا ، وتغلَّب على مخاوفه ، ونجا ؟»

أعبُر الشارعَ والبندقيَّةُ تحت ذراعي ، وأصعدُ إلى الطابق الرَّابع ، وأستلقي على السرير المزدوج.

معظَمُ الندبات على الجلدِ مُسطَّحةٌ باهِتةُ اللَّون ،

ولا تُبقي سوى جزءٍ صغيرٍ من الجرح الذي تسبَّبَ في تشكُّلِها

كنتُ للتوِّ قد دخلتُ إلى شقَّتي عندما رنَّ جرسُ الهاتف في جيبي.

الاتِّصال من دار المسنِّين. تُعرِّفُ المتَّصلةُ عن نفسها بكلِّ لطفٍ بأنَّها إحدى الممرِّضات في الدار ، وأنَّها تُساعد أمِّي في إجراء مكالمةٍ هاتفيَّة. توقَّعَتْ والدتي أن أزورها اليوم ، لكنَّني لم أحضر. هذا ما تقوله لي الممرِّضة بتردُّدٍ وحيرة ، وكأنَّها تعلم أنَّه لم تمضِ سوى ساعتيْن فقط منذ أن زرتُ أمِّي ، وأنَّه من النادر أن يقلَّ عددُ زياراتي لها عن ثلاثٍ في الأسبوع. تعطي سمَّاعة الهاتف إلى أمِّي. لقد مُسِحتْ من ذاكِرَتها زيارتي لها وقتَ الغداء.

أسمعُ صوتَ أمِّي المرتجِف ، وهي تقول:

«معكُم غوردون ستيلَّا يوناسدوتِّير سنايلانت. هل بإمكاني التحدُّث إلى يوناس ؟»

«أنا يوناس ، يا أمِّي».

«هل هذا أنت ، يا يوناس ؟»

«أجل ، هذا رقم هاتفي الذي تتَّصلين به ، يا أمِّي الغالية». تسألُني عن سبب عدم زيارتي لها أبدًا.

أخبِرُها أنَّني زرتُها اليوم.

تُفكِّر في الأمر. وإذ تحاولُ أن تستوعبَ ما حدث ، أظلُّ منتظرًا.

عندما تعود ، تُخبرني أنَّها تتذكَّر زيارتي جيِّدًا ، لكنَّها نسيَتْ أن تسألني عن أمرٍ ما عندما كنتُ في الدار. تريدُ معرفة إنْ كان لديَّ منشار. المهمَّة التي تطلبُ منِّي تنفيذَها هي قصُّ غُصن الشجرة الذي يضرب باستمرارٍ على النافذة بجوار سريرها ، فيمنعُها من النوم.

«لطالما احتفظَ والدُكَ بصندوقٍ للعدَّة في غرفة نومنا. كان رجلًا يُعتمَد عليه ، أقصدُ والدَك ، وذلك على الرَّغم من أنَّ قضاء الوقت بصحبته لم يكن مُمتِعًا جدًّا».

تُبدي تردُّدًا.

«هل قلت إنَّك ستذهب في رحلة ؟»

«لا».

«هل قلت إنَّك ستذهب إلى الحرب ؟»

«لا ، لم أقل ذلك أيضًا».

ترتبِكُ مرَّةً أخرى.

«هل أنت ذاهبٌ لتنفيذ مهمَّةٍ خاصَّة ، يا يقطينتي العزيزة ؟»

مهمَّةٌ خاصَّة. أفكِّرُ في هذا المصطلح. لعلَّه يعني إنقاذَ الكوكب ، أو اكتشافَ لقاحٍ جديد!

«لا».

يسودُ صمتٌ طويلٌ مرَّةً أخرى عبر الهاتف. ربَّما كانت تحاول أن تتذكَّر سببَ اتِّصالها بي.

«ألا تريد أن تعيش ، يا يقطينتي العزيزة ؟»

«لستُ واثقًا من ذلك».

«على أيِّ حال ، ما زال شعرُكَ كاملًا. الرجالُ في عائلتي لا يفقدون شعر رؤوسهم».

ودونما تفكير ، أقول لها:

«ووترليلي ليست ابنتي».

كان في وسعي أن أضيفَ أنَّها ليست من لحمي ودمي. لم أترُك ورائي خَلَفًا ، وسينتهي نسلُ العائلة بموتي.

أسمعُ هسهسةً من الطرف الآخر ، وأصواتًا بعيدةً يبدو لي أنَّها تقتربُ شيئًا فشيئًا. يسودُ صمتٌ مُطوَّلٌ قبل أن تواصِل كلامَها:

«في شهر العسل ، زرتُ مع والدك متحفًا تاريخيًّا. كان ذلك رومانسيًّا نوعًا ما. بَيْد أنَّ ملابسَ الجنودِ كانت أكثر ما أثار دهشتي ، إذ كانت مصنوعةً من خاماتٍ ضعيفة ، من قماشٍ رديء. كانت للعرض فحسب».

«أعلم ، يا أمِّي».

أشعرُ أنَّ شيئًا لا يزال يُزعجها.

«مَن هو هايدغر ؟» تسألُ أمِّي بعد انتظار.

ألم أكتُب مقالةً عن هايدغر خلال السنة الدراسيَّة الوحيدة التي قضيتُها في الجامعة ؟ أليسَ هو مَن زعم أنَّه ينبغي لعلاقة الإنسانيَّة بالواقع أن تنبعَ من إحساسٍ بالدَّهشة ؟ مثل طفلٍ ، أو حيوانٍ حديث الولادة ؟

«فيلسوف ألمانيّ. لماذا تسألين ؟»

«لأنَّه اتَّصلَ بي صباحَ اليوم ، وسألَني عنك. أخبرتُه أنَّه أخطأ في رقم الهاتف».

Apologia pro vita sua(2)

(دفاعًا عن حياة الإنسان)

نظرتُ في عددٍ من الخيارات الأخرى، بكلِّ تأكيد. خطر في بالي، على سبيل المثال، أن أنزع ضوءَ السقف، وأن أعلِّقَ في مكانه خَطَّافًا. كان عليَّ أن أتَّخذ قرارًا في شأن المكان أيضًا. رسمتُ في مخيِّلتي سيناريوهاتٍ مُختلفة. هل أطلقُ النار على نفسي في غرفة المعيشة، أو أشنق نفسي في غرفة النوم، أم المطبخ، أم الحمَّام؟ يجبُ كذلك أن أختار ما سأرتديه من ملابس. ما الأنسب؟ هل أرتدي منامَتي، أم أفضَلَ ملابسي، أم ملابس العمل، وبجوارب أم بحذاء؟

أتذكَّرُ مباشرةً أنَّ ووترليلي تمتلك مفتاحًا للشقَّة، وقد تقتحمها في أيِّ لحظةٍ ومن دون سابق إنذار. سيكون معتادًا لها أن تقف هناك، وسط غرفة المعيشة، من دون أن تُعلِمني بحضورها، كي تُخبرني بشيءٍ ما اكتشفَتْهُ للتوّ:

«يا بابا، هل تعلمُ أنَّ أزواج الطيور تُهاجرُ إلى هذه الجزيرة مرَّةً في العمر؛ ولهذا لا تستطيع أن تتعلَّم أيَّ درسٍ من تجربتِها هذه؟»

كم ستحتاجُ من الوقت قبل أن تساورها الشكوكُ في شأني؟ والأكثر من ذلك، أنَّها قد تفتِّش في أغراضي. يَخطرُ في بالي مخزنُ الشقَّة في قبو المبنى، وهو يغصُّ بأشياءَ تافهةٍ كنتُ قد فَرزتُها وألقيتُها فيه منذ زمنٍ طويل. هل عليَّ أن أعفيها من هذا العبء؟

أفتحُ بابَ المخزن، فأرى الكرسيَّ الخشبيَّ الذي صَمَّمْتُه وصنعتُه عندما بدأتُ وغوردون نعيش معًا. للكرسيِّ مقعدٌ قابلٌ للتعديل، يمكن رفعه أو خفضُه. ثمَّة أيضًا زلَّاجة، وخيمةٌ برتقاليَّةٌ يستغرقُ نَصبُها وقتًا طويلًا، وأكياسُ نوم، وأحذيةٌ للمشي الطويل. لم أنزِل إلى

هذا المكان منذ أن انتقلتُ إلى الشقَّة. أسيرُ بخفَّةٍ بين الصناديق. أجدُ على أحدها عبارةً مكتوبةً بخطِّ يد أمِّي المرتجف: «طقمُ شاي، يُعطى إلى يوناس». على أحد الرفوف، أرى بيتَ الدُّمى الذي صَنعْته من أجل ووترليلي، وإلى جواره فونوغرافٌ قديمٌ كنتُ قد نسيتُ وجوده.

هناك صندوقُ عِدَّةٍ كبيرُ الحجم في وسط المخزن، وفي داخله أدواتٌ متنوِّعةٌ نادرًا ما أستخدِمُها: مجموعةٌ من الأزاميل، ومطرقةٌ برأسيْن مُكوَّرين، وعددٌ من مفكَّات فيليبس، ومناشيرُ يدويَّة، وسكاكين لطلْي المعجون، ومنشارُ زخرفة، ومِسحَج، وفرجار، وبوصلة، ومَبارِد، وثلاثُ مساطر نجارة. لديَّ مطرقةٌ بكمَّاشة، ومفكَّاتٌ من مختلف الأنواع والأحجام، في صندوق العِدَّة الذي أُبقيه تحت المغسلة، أو داخل صندوق السيَّارة. ثمَّة مثقابٌ أيضًا؛ أوَّلُ أداةٍ اشتريتُها بعد أن التقيتُ غوردون. كنَّا قد استأجرنا شقَّةً في قبو، في حيِّ فوروميلو. كانت أرضيَّتها رديئةً، فقضيتُ وقتًا في التَّفكير بطريقةٍ لإصلاحها قبل أن أصنع بنفسي أرضيَّةً من الباركِيه لأضعها فوقها. وبعد أن انتهيت من ذلك، بدأتُ أتعلَّم السباكة، ورصفَ البلاط، وإلصاقَ أوراق الجدران. صار تفكيري بالأمتار، بالطول والعرض: ١٧٠×٨٠ أو ٩٢×٦٢. أوافقُ أمِّي الرأيَ عندما تقول إنَّ استخدام الأرقام للتَّعبير عن المعاناة أسهلُ من قياسِها بالحسرات! لكنَّني عندما أفكِّرُ بالجَمال، يخطر في بالي ٤.٢٥٢ غرامًا و٥٢ سنتيمترًا.

في الركنِ البعيد من المخزن، أرى صندوقًا رثًّا من الورق المقوَّى، كان مُحكَمَ الإلصاق، وكُتِب عليه بقلم خطَّاط «يُرمى في صندوق النفايات». وإنْ لم تخنِّي الذاكرة، كان من

المفترض أيضًا أن نتخلَّص من هذا الصندوق قبل الانتقال إلى هذه الشقَّة بشقَّتَيْن! ويبدو أنَّه ظلَّ مُغلَقًا في عدَّة أقبية. لماذا لا يزال هنا إذًا؟ أجلِبُ مشرطًا من صندوق العدَّة، وأقصُّ به الشريطَ اللَّاصق، وأرفعُ غطاءَ الصندوق. يبدو أنَّ مُعظمَ ما فيه كُتبٌ تعود إلى السنة الدراسيَّة الوحيدة التي قضيتُها في الجامعة. ألتقطُ منها كتاب ما وراء الخير والشرِّ لنيتشه، وأقلِّبُ في عجالةٍ رزمةَ المقالات المطبوعة والمسارد المكتوبة بخطِّ اليد. في وسط الصندوق، مغلَّفٌ بنِّيُّ اللَّون. أفتحُه، وأسحَبُ منه قُصاصةً مُصفرَّةً تعودُ إلى صحيفةٍ صدرَتْ قبل سبع وعشرين سنةً، كُتِبَ فيها نعيُ والدي. كان أحدُ أصدقائه هو الذي نشر النعي، وقدَّم فيه تعازيَه إلى زوجته طال بقاؤها. وذكرَ فيه ولدَيه أيضًا: لوجي، الصُّورة الحيَّة عن أبيه وهو الذي يوشِك على التخرُّج من كلِّيَّة إدارة الأعمال؛ ويوناس، الذي يتمتَّع بموهبة والدته في الموسيقى، وبدأ هذه السنة بدراسة الفلسفة في الجامعة. يخطرُ في بالي أنَّني، بعد أسبوعَيْن فحسب، سأبلغ السنَّ التي بلغها أبي عندما انهارَ على عتبة باب المنزل. أيُعقلُ أن يُعفيَني الخللُ الجينيُّ ذاتُه من هذا العناء؟

«نظرتُ عبر نافذة المطبخ، فرأيت والدَكَ يترنَّح، وظننتُ أنَّه مخمور»، قالت أمِّي. «عندما خرجتُ، وجدتهُ مُمدَّدًا على الأرض. لقد أخذوه بعيدًا، وتركوني وحيدةً».

«إنَّ بعض الأشخاص في حياتنا لا يظلُّون معنا على طول الطريق»، أضافت. في مساء ذلك اليوم، نزعَتْ أمِّي قمصانَ أبي المُعلَّقة في الجانب المخصَّص لملابس من الخزانة، وكوَّمَتها بعضها فوق بعض على سريرهما.

«أليس من الأفضل أن تؤجِّلي ذلك قليلًا، يا أمِّي؟» سألتُها. «حتَّى موعد الجنازة، على الأقلّ».

تبرَّعنا بملابسِه كلِّها. ولأنَّ أمِّي لم تُرِد أن تُصادف في الشارع أحدًا يرتدي معطفَه، فقد حمَّلتني أربعَ حقائب من ملابسه، وأرسلتني بها إلى بلدةٍ مُجاوِرة.

كان من المعتاد أن تثور حفيظتي كلَّما سألني أبي عن مُستواي في الدراسة، حتَّى ظننتُ أنَّه بصدد إعداد بحثٍ في الخفاء عن هذا الموضوع، وقد تأكَّدَ حدْسي عندما كنَّا نُقلِّبُ في أغراضه؛ إذ وجدنا كتابًا بعنوان «كيف تطرحُ أسئلةً ذكيَّةً عن نيتشه».

أعيدُ قصاصةَ النعي إلى المغلَّف، وأواصلُ البحث في الصندوق. في قاعِه، ثلاثُ مُذكَّراتٍ صغيرةٌ مُهترئة. أفتحُ إحداها، فأميِّزُ خطَّ اليد الصبيانيّ. خربَشات. أهي اليوميَّات التي كتبتُها عندما كنت في قرابة العشرين من عمري؟ أقلِّبُ بين صفحاتها سريعًا. بحسب التواريخ المُدوَّنة، تمتدُّ هذه المذكَّرة إلى ثلاث سنوات، مع وجود بعض الفواصل الزمنيَّة. يُرمى في صندوق النفايات. ألتقطُ مذكَّرةً أخرى، وأتصفَّحُها على عجلٍ، مُتوقِّفًا بين حينٍ وآخر. أفهمُ، إلى حدٍّ ما، أنَّها مُقسَّمةٌ إلى وصفٍ للغيوم، والطقس، ورحلاتٍ برفقة نساء. وسرعان ما تُضفي الاقتباساتُ التي أخذها طالبُ الفلسفة من كتاب الندوة لأفلاطون جوًّا عامًا ابتداءً من الصفحة الأولى، وتُظهِر لي أنَّني استطعت صبَّ تركيزي على الأساسيَّات في مجال دراستي:

«لدى الرجالِ كلِّهم غريزةٌ للتناسل، جَسديَّةٌ وذهنيَّةٌ في الوقت نفسه. وما إنْ تَبلغ أجسادُنا سنًّا مُعيَّنةً حتَّى نشعر برغبةٍ ملحَّةٍ في التكاثُر».

تبدأ كلُّ تدوينةٍ بتاريخ اليوم، يعقبه وصفٌ للطقس، على غرار التَّقويم الزراعيِّ القديم: الثاني من آذار. رياحٌ هادئة، يومٌ مُشمِس، ثلاث درجاتٍ مئويَّةٍ تحت الصفر. السادس والعشرون من نيسان. رياحٌ عاتية، أربع درجاتٍ مئويَّة. الثاني عشر من أيار. نسيمٌ رقيقٌ من الجنوب الشرقيّ، سبع درجاتٍ مئويَّة..

ثمَّة كتاباتٌ وثيقة الصلة بتقارير الطقس هذه، أصفُ فيها أنماطًا مُختلفةً من أشكال الغيوم، وتأمُّلاتي في الأجرام السماويَّة. قَزعٌ نحتَتهُ الريح. متى توقَّفتُ عن التَّفكير في الغيوم؟ ثمَّ أقرأ: ثمَّة احتمالٌ أنَّ قمرًا جديدًا قد يدور حول الأرض. وعلى الرَّغم من ذلك، يعتقدُ العديد من الخبراء أنَّه سيكون على الأرجح بقايا من صاروخ لا يزال قيد الحركة.

وفي خضمِّ الحديث عن النجوم التي انطفأتْ منذ زمنٍ بعيدٍ في وسط الكون، تدور قائمةُ تسوُّقٍ في مدارٍ إهليلجيٍّ على مقربةٍ من النجم القطبيّ: اشترِ لبن زبادي بنكهة الفراولة، وعوازلَ ذكريَّة.

لم أكن مُضطرًّا إلى القراءة طويلًا حتَّى أدركَ أنَّ لأوصاف أجساد النساء، والعلاقات الجنسيَّة، نصيبَ الأسد من هذه الكتابات. يبدو أنَّني كنتُ أشيرُ إلى العشيقات باستخدامِ الأحرف الأولى من أسمائهنَّ، وأشكرهنَّ على النوم معي. أقرأ في إحدى الصفحات: شكرًا، يا ك! وفي صفحةٍ أخرى: شكرًا، يا د! وأحيانًا، أضعُ تحت الحرف سطرًا. شكرًا، يا م! تظهَر م مرَّتَيْن، والأمر نفسه بالنِّسبة إلى ك، وتفصل بين الاثنتَيْن بضعة أشهر. هل كانت ك نفسَها؟ كما تضمَّنَتْ هذه الأوصافُ بعض العبارات التي وُضِعَت بين هلاليْن. ل (عذراء بكلِّ معنى الكلمة). ولأنَّني أمضيتُ العديد من العُطَل

الصيفيَّة في الريف ، في مزرعة الأغنام التي يمتلكها خالي ، فقد كنت استمدُّ تشبيهاتي من وادي النهر المتجمِّد: (بَشرةُ كِ رقيقة ، مثل رئة حَمَل).

أرى حرف س بعد يوميْن. أحاول جاهدًا أن أتذكَّرها. للمرَّة الأولى في حياتي ، تتحسَّنُ فُرَصي مع النساء ، وأتذكَّرُ امرأةً تنظرُ إليَّ ، بينما أقول في نفسي: لعلَّ الحظَّ يُحالفني. أجيلُ النظر سريعًا بين الصفحات. يبدو لي أنَّ غ هو الحرف الأخير من هذه الأبجديَّة الجسديَّة. هل يشيرُ إلى غوردون؟ كنت في الثانية والعشرين من العمر عندما شكرتُ غ على النوم معي. وبقدر ما أستطيع أن أتذكَّر ، فقد حدث ذلك أثناء رحلةٍ لتسلُّق أحد الجبال. (على جسدِ غ ، ثمَّة نَدبةٌ حديثةٌ خلَّفَتها عمليَّةٌ جراحيَّةٌ لاستئصال الزائدة الدوديَّة ، لكنَّني لم أتحدَّث عنها) ، كتبتُ بين هلاليْن.

أواصلُ تقليب الصفحات بحثًا عن تاريخٍ مُعيَّن:

الحادي عشر من تشرين الأول ، سنة ١٩٨٦.

أقودُ درَّاجتي باتِّجاه المنزل ، عائدًا من المدرسة. وفي الطريق إلى سيلفورتون ، أرى ريغان وغورباتشوف معًا أمام مدخل بيت هوفدي(3). يرتدي كلٌّ منهما معطفًا ؛ مَطَري للأوَّل ، وبياقةٍ من الفرو للثاني. ثمَّة ثلاث إوزّات في الحقل أيضًا. شاهدتهما عبر شاشة التلفاز في تلك اللَّيلة ، بالأبيض والأسود ، مثلَ رملٍ وجليد. كتبتُ بعد ذلك: كنتُ هُناك.

عقب يومٍ واحد ، كتبتُ في الصفحة نفسها:

الثاني عشر من تشرين الأول ، ماتَ أبي.

لم يعُد العالمُ كما كان.

أُطيلُ عمري ثلاثة أيَّامٍ أخرى ، وأستعيرُ مقطورة سفانور لكي أفرغ المخزن.

أصعَدُ إلى شقَّتي ثلاثَ مرَّات ؛ أحملُ في الأولى المقعد الخشبيّ ، ثمَّ جهاز الفونوغراف في الثانية ، وفي المرَّة الأخيرة ، أحمل صندوقًا من الورق المقوَّى كُتِبَ عليه: «يُرمى في صندوق النفايات».

كلَّما سَمَوْنا في تحليقنا ،

صغرنا في عيون من لا يستطيعون الطيران

أفتحُ بابَ الثلَّاجة ، وأُلقي نظرةً سريعةً على ما تحتويه: ثمَّة بيضتان في علبةٍ كُتِبَ عليها «مِن أكثر دجاجاتنا خِبرةً». هناك عُلبة معكرونة لولبيَّة في الخزانة. كم تستغرقُ حتَّى تغلي؟ أليس من المفترض أن تنتفِخ؟ على حافَّة النافذة ، بعضُ البقدونس الذي كنت أحاول إبقاءه حيًّا ، لكنَّ معظمه ذابلٌ الآن. أخفقُ البيضتَيْن ، وأقطِّع السيقانَ الخضراء فوق المقلاة.

وبينما تغلي المعكرونة ، أطالعُ الصفحات الأخيرة من المذكَّرة مُربَّعة الشَّكل.

هناك مقطعٌ يُبرَز أكثر من غيره بسبب طولِه ؛ نصٌّ متواصلٌ يغطِّي ثلاثَ صفحات. يبدو أنَّني أصفُ فيه رحلة تسلُّق الجبل ، وقد وضعتُ خطَّيْن تحت عنوانه ، كما لو كان قصَّةً قصيرة: الصعودُ على درجات معبد البدايات. كتبتُ هذا في اليوم السابع عشر من حزيران ، ولم أكن أسافر بمفردي ، لأنَّ المقطع يبدأ بـ: طلبَت غ أن تُرافِقني.

استعرتُ سيَّارة أمِّي السوبارو عقب انتهائي من التدرُّب مع الجوقة الموسيقيَّة (أنبوب العادم مكسور). كنت مهتمًّا بهذا الجبل منذ فترة (قبل أن يبدأ اهتمامي بـ غ). نمتُ مع أربع فتيات من الجوقة ، وكانت الرُّوح المعنويَّة منخفضة. وقد طلبَت منِّي مديرةُ الجوقة (صديقةٌ لأمِّي) أن أحدِّثها على انفراد ، وأخبرَتني بأنَّ هذا الجوَّ من التوتُّرُ يؤثِّر سلبًا في الأصوات.

يبدو أنَّني كنتُ أحاول إصلاح الأمور ، وذلك بدعوة فتاةٍ خامسةٍ إلى رحلةٍ بالسيَّارة ، ثمَّ التنزُّه على جبل.

كانت غ ترتدي سُترةً صفراءَ بياقةٍ عالية ، وحذاءً رياضيًّا أبيض.

بعد ذلك ، ومثلما جرَت العادة ، أكتبُ تفاصيل قائمة التسوُّق: في الطريق إلى الجبل ، توقَّفنا لشراء سَلَطة الجمبري ، والشطائر ، وعُلبتيْ مياه غازيَّة ، ولوحيْن من شوكولا پرينس پولو.

في السيَّارة ، قبل وصولنا إلى الفوَّهة ، أخبرتُ غ أنَّ أبي تُوفِّي هذا الشتاء ، وأنَّني تركتُ الدراسةَ كي أتولَّى إدارة شركة العائلة ، ستيل ليغز المحدودة. وأخبرتُها أنَّني أعيش مع أمِّي ، وأنَّ لديَّ أخًا أكبر منِّي سنًا. أخبرتُها أيضًا عن رغبتي في أن أصير أبًا ذات يوم. (لماذا قلتُ هذا ؟ شعرتُ بأنَّني أريد قوله). أخبرتُها عن أشياء حدثتْ في الماضي ، وأخرى تَحْدثُ مؤخَّرًا ، ومن شأنها أن تفسِّر مشاعري وطريقةَ تفكيري اليوم. أتبعْتُ ما سبقَ بعبارةٍ وضعتُ تحتها خطَّيْن: تحدَّثتُ ، وكانت غ صامِتة.

ثمَّ هناك خمسةُ أسطر من الخربشات غير المفهومة ، إلى أن يَظهر الجبلُ من جديد:

بدأت الشكوكُ تراودُها عندما شاهدَتِ الجبلَ الذي يرتفعُ فوقنا وكلَّ الصخور العظيمة. مشيتُ في المقدِّمة ، وكانت تتبعُ خُطاي ، وكان في مقدوري أن أشعُر بأنفاسِها على عنقي. كان الضبابُ كثيفًا ، وتعذَّر علينا أن نرى القمَّة. انتظرنا انقشاعَ الضباب لكي يُتاحَ لـ غ أن تلقي نظرةً على النهر الجليديّ في جهة الشرق. وهذا ما فعلناه في طريق العودة. أمطرت السَّماء ، وابتلَّ العشبُ ، ولم يكن في وسعنا أن نخلعَ من ملابسنا أكثر ممَّا ينبغي. وكان الأمر أكثر تعقيدًا بقليل بالنِّسبة إليها ، إذ كانت ترتدي الأُقْرول. على مقربةٍ منَّا ، سمعتُ صوتَ رفرفة طائر ترمجانٍ صخريّ ، وفكَّرت: ما الذي يراهُ الطائر ، وبماذا يُفكِّر؟ وعلى حين غرَّة ، وقفَ بجانبنا خروف ، وظلَّ يُحدِّق بنا ، فطلبتُ من غ أن تغمضَ عينيْها.

فكَّرتُ أيضًا: ما الذي يراهُ الخروف ، وبماذا يُفكِّر؟ وبينما كنَّا نرتدي ملابسنا ، قالت غ: «تخيَّلْ أن يثور البركانُ الآن من تحتنا».

عندما عُدنا إلى السيَّارة ، سلكنا طريقًا مُختصرةً عبر منطقةٍ تُعشِّشُ فيها طيورُ خطَّاف البحر القطبيَّة.

ثمَّة الآلافُ منها.

جوقةٌ من آلاف الأصوات.

هُناك ، تقيَّأتُ شطيرةَ سَلَطة الجمبري.

ولأنَّني كنتُ مُرهَقًا ، فقد عرضَتْ غ أن تقودَ السيَّارة إلى المدينة ، وأن أستلقي في المقعد الخلفيّ. تحدَّثَت غ ، وكنتُ صامتًا. أخبرَتني عن والدتِها ، وعن دراسة التمريض ، ومدى صعوبة العثور على وَريدٍ مناسبٍ كي تُدخِل الإبرةَ فيه. أوقفَت السيَّارة مرَّةً واحدةً

فقط خلال رحلة العودة، وأوضحَتْ أنَّ ذلك بسبب وجود بعض طيور الترمجان الصغيرة على الطريق.

ثمَّ ينتهي المقطع شيئًا فشيئًا، إلى أن أعود إلى الجبل مرَّةً أخرى. أو، بحسب ما كتبتُه بحروفٍ واضحة: لقد وصلتُ إلى سفح الجبل. أقلبُ الصفحة. المقطع التالي عن زيارتي إلى غ بعد شهر.

السَّابع من تمُّوز.

التقيتُ غ مرَّةً ثانيةً في المنزل الذي تعيشُ فيه مع والدتِها. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي أراها فيها عاريةً تمامًا (وليس أجزاء منها فقط). لم يكن من الممكن إقفالُ باب غرفة النوم، لذا اضطررتُ إلى جرِّ خزانةٍ ذات أدراج كي أضعها خلفه. قبل أن أغادِر، قالت لي إنَّها حُبلى.

سألتُها: كيف أمكنَ حدوثُ ذلك؟ فأجابَت بأنَّ العوازل الذكريَّة ليست مضمونةً تمامًا.

لم أكن قد نضجتُ بعد، لكنَّني أنتظرُ مولودًا. عشتُ مع أمِّي، ونمتُ في سريرٍ مُفردٍ تغطِّيه ملاءةٌ من الكتَّان كانت قد وصلتني هديَّةً. ثمَّ ينتهي التقرير الذي يتحدَّثُ عمَّا أنتجهُ جسدي بعبارتَيْن في الصفحة التالية: وقعَ حمْلٌ على الجَبل، حَضرَهُ خروفٌ بصفة شاهِد، على بعد أقدامٍ قليلةٍ من فوَّهة بركانٍ خامد.

وقعَ حمْلٌ على الجَبل، حَضرَهُ خروفٌ بصفة شاهِد

تفاجأتُ عندما حاكَت لي غوردون سترةً من الصوف، وفكَّرتُ في وقتها أنَّنا أصبحنا مُرتبِطَين. أعطتها لي، مكويَّةً ومطويَّةً، وقالت لي: «إنَّها تُلائمُ لونَ عينَيْك». ثمَّ بدأت

بحياكةِ ملابس للطفل. قضينا الأمسيات في منزلها؛ نجلسُ على الأريكة، ونشاهد التلفاز، ونأكل الفُشار، بحضور والدتها. ولأنَّه سبق أن أمضيتُ أربعَ عطلٍ صيفيَّةٍ في مزرعة الأغنام التي يمتلكها خالي، فقد كنتُ على درايةٍ بما ينتظِرُها في قادم الأيَّام؛ فأنا خبيرٌ في توليد النعاج، وكثيرًا ما سحبتها من أجسادِها اللَّزِجة. يَحضُرني كيف حاولتُ مرَّةً أن أخرِجَ كبشًا أقرن إلى هذا العالم، أن أسحبه من قرنيْه عبر القناة؛ ما زلتُ قادرًا على سماع ثغاء أمِّه.

بعد ما يزيد عن ثمانية أشهر من رحلة الجبل، ولِدَتْ غوردون ووترليلي في يومٍ كبيس، قبل أسبوعَيْن من أوانِها، بأظافر طريَّة. ومثلما كان متوقَّعًا، كانت ووترليلي مُمدَّدةً بالعرض داخل رحم أمِّها، ولم يكن هناك سبيلٌ لتعديل وضعيَّتها، لذا كان لابدَّ من إجراء جراحةٍ قيصريَّةٍ. شعرتُ بالذُّعر حينما جاءتني القابلة بالطفلة، وعلَّمتني كيف أصنعُ بذراعيَّ قوقعةً حول ذلك الجسد الصغير.

لقد حملتُ حياةً بين يديّ، أكثر المخلوقاتِ هشاشَةً على وجهِ الأرض، وقلتُ في نفسي: ستعيشُ أطول منِّي.

أنتقلُ إلى الصفحات الأخيرة من المذكَّرة، إلى أن أقرأ العبارة التالية:

التاسع والعشرون من شباط. ستعيشُ أطول منِّي. جَفنانِ كجناحَي فراشةٍ شفَّافيْن.

ثمَّ اضطررتُ إلى الذهاب إلى العمل، بعد استراحة الغداء، كي أُحضِّرَ طلبيَّة. لماذا فعلتُ ذلك؟ لأنَّ أحدهُم اتصل بي وأخبرني أنَّه سيأتي لاستلام طلبيَّته في تمام الواحدة والنصف.

كنتُ أوَّل مَن يحلُّ العُقدةَ من بين أصدقائي ؛ بمعنى أنَّني مارستُ الجنس في المنزل على نحوٍ مُنتظم ، وأتيح إليَّ الوصولُ إلى جسدِ أنثى كلَّ ليلة. وسرعان ما اعتدتُ الأمرَ. في البدايات ، بعد الولادة ، كانت غوردون هي صاحبةَ القرار في ما يتعلَّق بالأجزاء التي أستطيع الوصول إليها من جسدها. فهي لم تسمح لي بأن أمسك ببطنِها ، ولا بالاقتراب من النَّدبة التي خلَّفتها الجراحةُ القيصريَّة. «ضَع يدكَ هنا» ، كانت تقول. «لا ، ليس هكذا ، أبقِها ثابتةً ، لا تتحرَّك أو تتنفَّسْ بقوَّة». حاولتُ أن أشدَّ على كتفيْها ، أو أن أسند يديَّ على قفص صدرها ، تحت ثدييْها مباشرةً ، لكنَّني كنتُ أنسى في بعض الأحيان الأشياءَ التي لم يُسمَح لي بفعلها ، فأتلمَّس طريقي بحثًا عن مسارٍ لأتبعه وصولًا إلى جسدها العاري ، وتنزلق يداي إلى بطنِها.

«ما بِك ؟» تقول.

«لا شيء».

«كلَّا ، أنت تمسكُ بطني».

بعد ستٍّ وعشرين سنةً ، تقول لي زوجتي: «ووترليلي ليست من صُلْبِك. أشعرُ أنَّ من الصواب أن تعلمَ ذلك لكوننا سننفصل عمَّا قريب». ثمَّ تضيف: «لم ألتقِ من قبلُ رجلًا يتحدَّثُ عن المعاناة والموت في أوَّل موعدٍ غراميّ. وعندما قلتَ لي إنَّنا سنموت ، أحسستُ أنَّ حياةً قد تُبنى وفقًا لذلك. فقرَّرت حينها أن تكون ووترلي ابنتَك».

لم أضع تاريخًا للكلمات الأخيرة التي كتبتُها في المذكَّرة.

أنا جسد.

ومنذ ذلك الوقت ، توقَّفتُ عن الاحتفاظ بسجلٍّ لحياتي.

أعني بالجسد كلَّ شيءٍ تحت رأسي. يتَّفقُ هذا مع حقيقة أنَّ الجسد إنَّما يُشكِّل البدايةَ والنهايةَ لكلِّ الأشياء الأكثر أهمِّيَّةً في حياتي: ولِدتُ ، وبدأ القلبُ والرئتان بالعمل الدؤوب ؛ ثمَّ ولِدَتْ طفلةٌ ، فحملتُ على كتفيَّ مسؤوليَّةَ جسدٍ من جسدي ؛ وعمَّا قريب ، سيتوقَّف جسدي عن العمل. يبدو لي الأمر وكأنَّني أسمعُ أمِّي تلقي عليَّ محاضرةً عن النظام العالميّ: «كما تعلم ، يا يوناس ، بدأت القصَّة الكبيرة قبل أن نولدَ بزمنٍ بعيد».

تلتئم الجراحُ على فتراتٍ مُختلفة ،

وتتباينُ أعماقُ الندبات التي تتشكَّل ، فبعضُها أعمق من البعض الآخر

الساعةُ الآن الثانية والنصف صباحًا ، وثمَّة من يطرقُ باب شقَّتي في الطابق الرَّابع ، برفقٍ في البداية ، ثمَّ بمزيدٍ من الإصرار.

يقفُ سفانور في أعلى السلَّم ، مقطوعَ النَّفس ، ويومئُ إليَّ برأسِه. من المفترض أن يكون بابُ المبنى مُقفلًا في هذا الوقت ، لكنَّه يقول لي إنَّه تمكَّن من الدخول خلف أحد الجيران الذي كان عائدًا إلى منزله من حفلة. كان النوم قد جافاه ، وعندما نظرَ إلى أعلى ، ظنَّ أنَّه رأى حركةً وراء الستائر ، فتوصَّل إلى أنَّني ما زلتُ مستيقظًا أيضًا. دعاني إلى الخروج معه في جولةٍ قصيرةٍ كي ينزِّه كلبتَه التي تنتظرُنا في الأسفل ، بجوار الكاراڤان.

فتاةٌ ناضِجة ؛ هكذا يَصِفها.

هل في إمكاني أن أُخبرهُ بأنَّ لديَّ خططًا أخرى في هذا الوقت من اللَّيل ؟ فجأةً ، يدخُل الشقَّة ، ويتَّجه إلى غرفة المعيشة. ينظرُ حولَه مُتفحِّصًا المكانَ بسرعةٍ ومنهجيَّةٍ في آن. هل يريدُ الاطمئنان إليَّ ؟

يُثبِّت نظرَه نحو المقعد الخشبيّ في وسط الغرفة ، والشمعدان الذي وضعتُه فوق طاولة القهوة ، لكنَّ ذلك لا يعني أنَّني كنتُ مُتسمِّرًا في مكاني. أغلقُ شاشة الكمبيوتر التي تعرِضُ صفحةً عن أساليب انتحار الكُتَّاب.

مُحتويات الصندوق مُكوَّمةٌ فوق طاولةِ الطعام.

«هل أنت بصدد ترتيب المكان ؟» يَسأل.

«أجل ، أبحثُ في بعض الأوراق القديمة».

ومن دون أن أشعر ، يمضي إلى الحمَّام. أسمَعُ صوتَ فتح الخزائن وإغلاقِها ، وفي طريقِ عودتِه ، يختلسُ النَّظرَ إلى غرفة النوم. لا تزال البندقيَّة مُلقاةً على السرير. ثمَّ ذلك ، يفتحُ خزانةَ المعاطف في ممرّ الشقَّة ، مُنهيًا بذلك تنتهي جولتُه التفتيشيَّة.

«أريدُ أن أفهمَ أورورا بصورةٍ أفضل» ، يقولُ جاري مُتنهِّدًا.

رجلٌ ووَحش

يمسكُ سفانور بقيادِ كلبته على طول الطريق التي تُفضي إلى الميناء. لا يزال الهواء ساكنًا ، وما من مَخلوقٍ خارج مَنزله عدا أبٍ في مقتبل العمر يَجرُّ عربةَ أطفال. هل كنتُ أصطحِبُ ووترليلي في نزهاتٍ ليليَّة ، عندما كانت تعاني أوجاعَ البطن ، كي أُعطيَ أمَّها فرصةً للنوم ؟

يكسرُ سفانور الصمتَ.

«هذه اللَّيالي المُقمرة غايةٌ في القسوة بالنِّسبة إليَّ»، أسمعُه يقول، ثمَّ ينحني إلى الأرض من أجل تنظيفِ ما خلَّفتْه كلبتُه.

«من السَّهل تمييزُ مَنْ لا يَحملون أكياسَ التَّنظيف ويعتقدون أنَّهم قادرون على الإفلات بفعلتهم».

على رصيفِ الميناء، نقفُ تحت سماءٍ فسيحة، في مُنتصف الطريق بين السفُن المُخصَّصة لمراقبة الحيتان، والسُّفُنِ المُخصَّصةِ لاصطيادِها.

«أليسَ هذا جميلًا؟» أسمَعُ سفانور يسأل.

لا أجيبُه. لا تكفي سماءٌ ربيعيَّةٌ مُذهلة، بثلاث مِسحاتٍ أفقيَّةٍ برتقاليَّة، لتحريضِ أيِّ حنينٍ في داخلي؛ رأيتُ السَّماء ذاتها في السنة الفائتة، وفي سابقتها أيضًا. بمقدوري أن أطيلَ وجودي على هذه الأرضِ، أو أضعَ نهايةً له.

«نحنُ في منتهى الضآلة»، يقول، ويربِّتُ على كلبته. ثمَّ يُصحِّحُ لنفسه بالقول:

«الرجلُ في منتهى الضآلة».

نتمشَّى باتِّجاه المنارة، ويُخبرني سفانور بأنَّه سار في هذه الطريق ليلة البارحة، ولمحَ فقمةً. لمحَتهُ الفقمةُ كذلك. نظرا: الواحد في عينَي الآخر؛ رجلٌ وحيوان. فكَّرَ حينها إنْ كان ينبغي أن يلتقط للفقمة صورةً بهاتفه، بَيْد أنَّه قرَّر ألَّا يفعل ذلك، لأنَّه قال في نفسه: «رجلٌ وحيوان، ليس ثمَّة ما يُقال، فما من معنى أعمق من هذا». وعندما رجعَ إلى منزله، قرأ مقالةً عبر الإنترنت عن فقمةٍ تعلَّمَتْ طريقة استخدام مفكِّ البراغي.

«أليسَت مُصادفةً أن أجدَ هذه المقالة بالتَّحديد؟» يسألُني، بينما يُحدِّق بعيدًا وراء ظهري، في المدى الأخضر الواسع.

نصمت كلانا.

تنبَحُ الكلبة، ويظهرُ أنَّها تريد اللَّعَب بالأعشاب البحريَّة، إلَّا أنَّ سفانور يُحكِمُ قبضتَه على طوق رقبتها. يَحومُ خطَّافُ بحرٍ قُطبيٌّ فوق رؤوسنا، فألوِّحُ بيدي كي يبتعِد. لقد بدأ موسِم بناء الأعشاش.

«هل تعلمُ»، يقول، ونَظرُه ما زال مُثبَّتًا على البحر، «أنَّ البشر هم الحيوانات الوحيدة التي تذرفُ الدَّمع للتَّعبير عن مشاعر على غرار الفرح أو الحزن؟»

أجيبُه بنعم، أليسَ هذا بسبب تحفيز الغدَّة الدَّمعيَّة؟

«على عكس الحيوانات، نُدركُ أنَّ للحياة نهايةً»، يواصلُ جاري حديثَه. «وجودُنا إلى زَوال».

يَنظرُ حولَه بحثًا عن سلَّة مُهملات، لكنَّه لا يجدُ أيَّ سلَّة، فيظلّ مُمسِكًا بكيس الفضلات طوال طريق العودة.

حينما أوشكتُ على وداع سفانور، شعرتُ بأنَّ ثمَّة ما يَشغَلُ تفكيرَه حتَّى الآن.

يمشي بتثاقُلٍ أمام الكاراڤان.

«هل تحتاجُ إلى ذخيرةٍ أيضًا؟» يسأل.

«أجل».

«توقَّعتُ ذلك».

تبدو عليه ملامحُ ارتباك.

«لسوء الحظّ، لقد استنفدتُ ما لديَّ عندما كنتُ أصطاد طيور الترمجان في السنة الفائتة».

يَنظُر خلفي، بينما تُحملقُ كلبتُه فيَّ مُباشرةً.

«بصراحة، أنا لم أستخدم بندقيَّةً من قبلُ قطّ»، أقول لجاري.

«توقَّعتُ ذلك أيضًا؛ أنَّك لا تعرف كيف تطلق النار».

ما يقولُه صحيح، فأنا لا أستطيع إطلاقَ النار. وقد يتعرَّض شخصٌ ما للأذى بسببي.

يسألُني إنْ كان في مقدوره أن يزورني بين الحين والآخر.

أخبرُه بأنَّني سأكون مشغولًا بعضَ الشيء في الأيَّام القليلة القادمة، ثمَّ أضيفُ من دون أن أنتبِه:

«سأذهب في رحلةٍ عمَّا قريب».

تصدمُني الفكرةُ كصاعقة برق؛ سأختفي. وعلى هذا النحو، لن أشعرَ بالقلق إنْ عثرتْ ووترليلي على جثَّتي. مثل عصفورٍ في زَوبعة، يصفِّقُ بجناحيْه لأمتارٍ قليلة، قبل أن تبتلعَهُ ويهلك. رفرفةٌ أخيرةٌ قبل المضيِّ إلى عين الزوبعة، وستُمسي العظامُ مَعلمًا للمسافرين.

بَيْد أنَّني ، بعد تفكيرٍ مليٍّ ، أستبعِدُ خيارَ الاختفاء ؛ إذ من المؤكَّد أنَّ ووترليلي ستُمضي حياتَها كاملةً بحثًا عنِّي ، وسيفوقُ الألمُ قدرتَها على الاحتمال. بدلًا من ذلك ، سأذهب في رحلةٍ بعيدة ، ثمَّ تستعيدُني أمِّي ووترليلي من داخلِ صندوقٍ أنيق.

«مَضى والدُكَ في رِحلته الأبعَد» ، هذا ما قالتهُ أمِّي لي. كنتُ قد عدتُ للتوِّ إلى المنزل ، بعد أن أجريتُ امتحانًا ، وكانت في انتظاري عند مدخل البيت.

«إلى أين ذهب ؟» سألتُ ، وانتبهتُ إلى أنَّ حقيبته البنِّيَّة ما زالت على مرتبة السرير.

حملتُ الحقيبةَ إلى غرفة نومي وفتحتُها ، ثمَّ رتَّبتُ الفواتير على طاولة المكتب. في اليوم التالي ، أخبرتُ أمِّي بأنَّني تركتُ الجامعة ، وبدأتُ العمل في شركة ستيل ليغز المحدودة . لصاحِبها وولدَيْه. لطالما تبوَّأتْ شركتُنا مكانةً مرموقةً في المجتمع على مرِّ عقودٍ من الزمن.

«لا تقلقي» ، قلتُ لأمِّي.

أسمعُ سفانور يقول: «أفضلُ اللَّحظات في حياتي هي تلك التي أندسُّ فيها داخل كيس نوم ، وحيدًا على مرجٍ أخضر ، حاملًا بندقيَّتي وقتَ طلوع الفجر ، مُنتظرًا استيقاظَ الطيور. أظلُّ صامتًا بينما أحدِّقُ في قشرة الصقيع على الأرض. الأمر أشبه بالوجودِ داخِل رَحم. يشعرُ المرء بالأمان. لا داعي لأن يولدَ الإنسان ، لا داعيَ لأن يَخرُج».

كيف أردُّ عليه ؟

كرَّرتُ ما قاله. قلتُ: «لا داعي لأن يخرُج». كانت تلك آخرَ عبارةٍ قلتُها له.

والكلمة صارَ جسدًا ، وحلَّ بيننا(4)

أتَّصلُ بووترليلي ، ونتَّفق على موعدٍ للقاء. تقترحُ أن نلتقي في مقهًى صغيرٍ يُقدِّم الحَلْويات.

أثناء محادثتنا الأخيرة ، سألتني إنْ كنتُ أفرز القمامةَ في صناديقَ مُختلفة ، وإنْ اشتريتُ سلَّةً زرقاءَ لإعادة تدوير الورق. وفي المقابل ، سألتُها عن أخبار سيخترِيغور ، وأجابت: «تقصدُ تريستان ، يا أبي!» ثمَّ أضافت:

«انفَصلنا».

لا تحتاجُ ابنتي إلى أب ، بل إلى حبيب. لقد عفا الزمنُ على مهمَّتي.

كانت ترتدي المعطفَ المطريَّ الأزرق ، ذا الياقة المزركشة بالفرو ، وقد أهديتُها إيَّاه بمناسبة عيد الميلاد ، وعندما رأتني ، تبسَّمت ابتسامةً عريضة. أتذكَّرُ ذلك اليوم عندما خضعتْ لعمليَّة تقويم أسنان ، وكيف بكَت طوال عطلة نهاية الأسبوع.

تخلعُ معطفها ، وتعلِّقه على ظهر الكرسيْ.

ابنتي خبيرةٌ في علم الأحياء البحريَّة ، كتبتْ أطروحةَ تخرُّجها عن الآثار الضارَّة للبلاستيك على كلٍّ من الحيوانات والنباتات البحريَّة ، وما ينجم عنها تباعًا ، وخصوصًا على إنتاج السَّائل المنويِّ لدى الرجال.

«الجسيْمات البيروفلوريَّة» ، تقول ، وأومئُ موافقًا.

بفضلها ، حصلتُ على كُلِّ ما أعرفه عن تأثير التغيُّر المناخيِّ في تحمُّض المحيطات ونقصِ الأوكسجين فيها.

ثمَّ أتذكَّرُها عندما كانت صغيرةً، وأتذكَّر شدَّةَ اهتمامها بالمياه المتدفِّقة، وكيف كانت تفتحُ صنابيرَ المنزل كلَّها. كانت تقف، وتسند ذقنها على حافَّة المغسلة، أو تجلبُ كرسيًّا وتصعد فوقه، كي تشاهدَ التدفُّق.

«الماء يركُض»؛ ذلك ما كانت تقوله عندما كانت في الثانية من عمرها.

ترتدي ساعةَ يدِ جدَّتها، والكثيرَ من الأساور. ما زالتا تلتقيان مرَّةً في كلِّ أسبوع، وتتحدَّثان عن مخاوفهما من الحروب ومستقبل العالم.

طلبت ابنتي شرابَ الكاكاو وفطيرةً دِنماركيَّةً، وطلبتُ القهوة وقطعةً من الحلوى يطلقون عليها اسم «نعيم الزفاف».

تقول: «هل تعلم أنَّ العالم قد أنفقَ ٢٤٠ ألف مليار كرونة على التسليح والسلاح؟»

ترشف من فنجانها، وتمسحُ القشدةَ عن شفتها العليا.

«ينبغي أن نحسب الأضرار التي يتسبَّب بها المنتفِعون من الحروب، ثمَّ نُجبرهم على دفع الثمن»، أسمعُها تواصلُ كلامها، قبل أن تضيف: «بهذه الطريقة، سيفهمون أنَّ تكلفة الحرب أغلى بكثيرٍ من تكلفة السَّلام. على أيِّ حال، هؤلاء لا يفهمون سوى لغة المال».

حينما تتكلَّم ابنتي، فإنَّها تُعبِّر عن نفسها بكلِّ جسدها، ثمَّ تصمت من دون سابق إنذار.

«هل زُرتِ جدَّتَك؟» أسألها.

«أجل، وهي توافقني الرأي».

«لا شكَّ في هذا».

نضحك كلانا.

إلى أيِّ نوعٍ من الآباء أنتمي ؟

أنا لم أُسِئ إلى ابنتي يومًا ، ولم أشعر بالضيق منها. لطالما أجبتُ على أسئلتها ، ورافقتُها لممارسة كرة القدم ، وشاهدُتها تحرس المرمى ، بساقيْها النَّحيلتَيْن وجواربها الخضراء وقفَّازيْها السميكَيْن ، وشاهدتُها تسبحُ في الهواء نحو الكرة بكلِّ شجاعة.

الجواب: أنتمي إلى فئة الآباء العاديِّين. بُمعدَّل: ٧,٥.

أفكِّرُ إنْ كان ينبغي أن أخبرَها بأنَّني على وشك المضيِّ في أطول رحلاتي.

«ما الأمر ، يا أبي ؟» تسأل. «أنت تنظر إليَّ على نحوٍ غريب».

«لا شيء».

«هل أنت متأكِّد ؟»

«أجل ، متأكِّد».

أتساءلُ في نفسي: هل تدري شيئًا ؟ هل أخبرَتْها أمُّها ؟

تنظرُ إليَّ باستغراب.

«هل أنت متأكِّدٌ من أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام ، يا أبي ؟»

«أجل ، كلُّ شيءٍ بخير».

«هل تحدَّثتَ إلى أمِّي مؤخَّرًا ؟»

«لا ، لم أفعل».

«لكنَّ علاقتكما طيّبة ، أليس كذلك ؟»

«أجل ، كلُّ شيءٍ بخير».

تتفحَّصُني بعينيْها بعناية.

«ألستَ حزينًا ؟»

«لا ، لستُ حزينًا».

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

أتساءلُ إنْ كانت ستُسامحني ، أم ستلومني ، أمْ ستكرهني. هل ستُعمِّدُ ابنَها باسمي ، وهل سيكون ذا نمشٍ مثل أمِّه ، وهل سيغدو انطوائيًّا أم مُستكشِفًا ؟

«يا أبي ، هل أنت مريض ؟»

«لا ، لا ، لا شيءَ من هذا القبيل».

تفرَغُ من تناول فطيرتها الدنماركيَّة. ثمَّ تجمعُ الفتاتَ من على الطاولة ، وتُلقيها في الصحن.

«ألا تشعرُ بالوحدة ؟»

«كلَّا».

ثمَّة ما يُثقل صدرَها وتريدُ أن تبوحَ به.

«كلُّ ما في الأمر أنَّني رأيتُ حلمًا في اللَّيلة الماضية!»

تُبدي تردُّدًا.

«حلمتُ بأنَّني أنجبُ طفلًا كبيرَ الحجم»....

«تمام».

«وكان له رأسٌ إضافيٌّ ضخم».

هل ينبغي أن أُخبرها بأنَّني لا أملك أدنى فكرةٍ عن تفسير الأحلام؟

تأخذُ نَفَسًا عميقًا.

«المشكلة يا أبي أنَّ ذلك الطفل كان أنت».

«لم أفهم».

«الطفلُ في الحلم. كنتُ أنجبُ أبي».

أبذلُ قصارى جهدي.

«أيُمكن تفسيرُ ذلك بأنَّه خُطَّةٌ جديدة؟»

«أجل، بحثتُ في الأمر، ووجدتُ أنَّ الولادة قد ترمزُ إلى انبعاثٍ أو بدايةٍ جديدة، ولكنَّها قد تشير أيضًا إلى الجزء الذي يُهملُه الإنسان في نفسه. أمَّا حجمُ الرأس، فيعني أنَّ الجزء المُهمَلَ من النَّفس يتطلَّب الرعايةَ والاهتمام».

أُبدي تردُّدًا.

«هل عرفتَ ماذا يعني ذلك ؟»

أستشعرُ قلقًا في صوتِها اللَّاهث.

«في بعضِ الحالات ، يمكن أن ترمز الولادةُ إلى الموت».

«فهمت».

«لكنْ ليس بالضرورة أن يكون موتًا مادِّيًّا ، بل يحمل معنًى أقرب إلى نهاية شيءٍ وبداية آخر».

تُنهي فنجانَ الكاكاو ، ونصمت كلانا. ثمَّ تلتفتُ إليَّ ، قائلة:

«وماذا عنك ، يا أبي ؟ ألا تحلُم ؟»

«كلَّا».

«ألا يحلمُ ابنُ عازفة الأرغن بموسيقى الأرغن ؟»

أتبسَّمُ في وجهها.

«كلَّا ، ولا حتَّى بموسيقى الأرغن».

وما إنْ تفرغ من ارتداء سترتها ، حتَّى تتذكَّر أنَّها تريد قولَ شيءٍ ما.

«كلَّا ، تكمن المشكلةُ في أنَّ...» ، تقول بينما تعدِّل ربطةَ شعرها ، «بابَ خزانة المطبخ انخلع عن مفصَّلاته وسقط ، فكسر إحدى بلاطات الأرضيَّة. هل يمكنك أن تُلقي نظرةً على الوضع ؟»

تسكنُ ووترليلي في شقَّةٍ صغيرةٍ مُستأجرةٍ مع إحدى صديقاتها. أثناء انتقالهما إليها، كنتُ المسؤول عن تجهيز خزائن المطبخ، وتلميعها، وتبديلِ مقابضِ أبوابها. فضلًا عن أنَّني ركَّبتُ دشًّا في حمَّام الشقَّة، بدلًا من حوض الاستحمام القديم، وبلَّطتُ مِنْ حوله.

«بالتأكيد، لا مشكلة»، أقول.

أُنفِّذُ ما تطلبُه منِّي النساءُ الثلاث في حياتي. أُركِّب المرايا والرفوف، وأنقل الأثاثَ من مكانٍ إلى آخر، وأضعُه حيثما أردْنَ. كسوتُ سبعة حمَّامات، وركَّبتُ خزائنَ في سبعة مطابخ، وأستطيع تركيبَ الأرضيَّات الخشبيَّة، وتحطيمَ النوافذ المزدوجة باستخدام مطرقةٍ ثقيلة. مع ذلك، لستُ برجلٍ يُدمِّر الأشياء، بل أصلِحُ المكسورةَ منها. وإذا سألني أحدُهم عن سببِ ما أفعلُه، أجيبُ بأنَّ امرأةً طلبَتْ منِّي ذلك.

ألفُّ ذراعيَّ حول ابنتي، وأضمُّها. أفكِّر أن أقول لها شيئًا آخر، لكنْ بدلًا من ذلك أقول:

«هل تعلمين أنَّ البشر هم الحيوانات الوحيدة التي تذرفُ الدمع؟»

ترتسمُ على وجهها ابتسامةٌ من الأذن إلى الأذن.

«كلَّا، لم أعرف ذلك من قبل. ظننتُ أنَّنا الحيوانات الوحيدة التي تضحَك».

ما إن وصلتُ إلى المنزل، حتَّى شرعتُ في البحث بين رفوف الكتب عن كتاب تفسير الأحلام. لم تأخذه غوردون، بل وجدتُه على الرفِّ الذي يحملُ كُتيِّبًا تعليميًّا عن إصلاح الأثاث المصنوع من خشب الساج.

أبحثُ عن كلمة «أرغن».

عندما يحلمُ المرء بأنَّه يَسمعُ موسيقى أرغن لطيفةً ، فإنَّما يدلُّ ذلك على طاقةٍ جنسيَّةٍ وفحولة ، وذلك وفقًا لما يدَّعيه الكتاب.

«يا أبي ، لا تُصدِّقْ كلَّ ما يجول في خاطرك» ، كان هذا ما قالتهُ ووترليلي حينما افترقنا.

تذكرةٌ باتِّجاهٍ واحد ، إلى القمر

يَغرقُ الحيُّ في صَمتٍ لا تقطعه سوى زقزقةِ عصفورٍ واحد.

السُّؤال هو: إلى أين أودُّ الذهاب ؟

أتصفَّحُ شبكةَ الإنترنت بحثًا عن وجهةٍ مناسبة ، وأركِّزُ على البلدان التي تتضمَّنُها خرائطُ الحروب. سرعان ما يَظهر ثلاثة وستون بلدًا ومنطقةً بوصفها وجهاتٍ مُحتمَلة. ما هي الدولة التي أشار إليها سفانور حينما تحدَّث عن الفيلم الوثائقيِّ الذي شاهدَهُ عن النساء والحرب ؟

في نهاية المطاف ، أختارُ البلد الذي ظلَّ حديثَ نشرات الأخبار لفترةٍ طويلةٍ بسبب ما يحدث فيه من معارك مُستعرة ، إلَّا أنَّه اختفى تمامًا من دائرة الضوء منذ أشهر قليلةٍ عقب التوصُّل إلى وقفٍ لإطلاق النار. يُقال إنَّ البلد محفوفٌ بالمخاطر ، فضلًا عن أنَّ مُستقبل هذه الهدنة غير واضح. يبدو ذلك مثاليًّا بالنِّسبة إليَّ ؛ قد تصرعني رصاصةٌ عند ناصية شارعٍ ، أو ينفجر بي لغمٌ أرضيٌّ أثناء المشي. وكأنّي أسمع صوتَ سفانور ، يقول:

«لو كنتَ امرأةً ، لاغتُصِبتَ قبل ذلك أيضًا».

أحجزُ تذكرةً باتِّجاهٍ واحدٍ قبل أن أعثرَ على فندقٍ عبر الإنترنت في مدينةٍ صغيرةٍ مهجورة ، أميِّز اسمَها من نشرات الأخبار. يخطر في بالي أنَّ الفنادق ، في الواقع ، هي الأماكنُ المفضَّلة كي يُدلِّل الإنسانُ نفسَه. يبدو جليًّا أنَّ صور الفندق قد التُقِطتْ قبل الحرب ، إذ بمقدور المرء أن يرى أنَّ الفندق يطلُّ على ساحةٍ صغيرةٍ كانت مزيَّنةً بالأزهار ذاتَ يوم ، وأنَّ الريف القريب كان معروفًا بتربية النحل وإنتاج العسل. يقع الفندق على مقربةٍ من الشاطئ ؛ ووفقًا للمعلومات الواردة في الموقع الإلكترونيّ ، فقد كان ذاتَ يومٍ مُنتجعًا سياحيًّا ذائعَ الصيت ، يشتهر بمواقعه الأثريَّة وحمَّامات الطِّين. ثمَّة إشارةٌ إلى وجود أحواض سباحةٍ ساخنة داخل الفندق ، فضلًا عن جدارٍ فسيفسائيٍّ يبلغ من العمر مئات السنين.

قبل أن أجلس لكتابة رسالة الوداع ، أضع في مُشغِّل الأسطوانات أغنية «تذكرةٌ باتِّجاهٍ واحد ، إلى القمر»(5).

إلى مَن أوجِّهُ هذه الرِّسالة ؟ إلى ابنتي وأمِّي ، «و» و«س» ؟

أفكِّرُ في ما قاله سفانور عندما كنَّا نتمشَّى.

«يُنسى الناس. وفي نهاية المطاف ، لا يتذكَّرُك أحد».

بشرة ووترليلي صافية ، بَيْد أنَّها تشعر بالقلق لأنَّ ركبتَيْها ليستا جميلتَيْن بما يكفي. هل ينبغي أن أكتب لها بألَّا تقلق بشأنهما ؟ لا يُبالي الرجالُ بالرُّكبتَيْن ، ولا بأيِّ أجزاءٍ أخرى من جسد المرأة ، بل بالصورة الكلِّيَّة. لكنْ هل هم كذلك حقًّا ؟ أتذكَّرُ ما كتبتُه في مذكَّراتي الحميميَّة.

لقد سبقَ لأمّي أن حدَّدتْ ما تريده من النباتات التي ستعلو قبرَها: اللبلاب، والصفصاف القزم. هل أكتبُ: لا أريدُ بذخًا، ولا مقابض على التابوت، بل أرخص صندوقٍ من الخشب الخامّ فحسب؟

أشرَعُ في كتابة المسوَّدة الأولى للرسالة: إذًا، لقد رَحَلتُ. لماذا كلمة إذًا؟ أشطبُها.

ثمَّ أضيف: لن أعود. أشطبُ عبارة لن أعود، وأكتب محلَّها: أنا لم أعُد موجودًا. هل ثمَّة ضرورة لذِكر فصل الربيع؟ وأين يمكن أن أوردَه؟ فجأةً، تعتريني رغبةٌ في إدراج عبارة «في النُّصف الأخير» داخل الرِّسالة. أيمكنُ أن أقول: في النِّصف الأخير من الأسبوع القادم، لن يكون لي وجود؟ أو: في النِّصف الأخير من الأسبوع القادم، سيدورُ العالمُ بدوني؟ كيف ستكون أحوالُ الطقس من دوني؟ يتوقَّعون طقسًا مُعتدلًا، وهطولًا للأمطار على مدار الأيَّام القليلة القادمة.

أكتب: في النِّصف الأخير من الأسبوع القادم، سيتوقَّف المطر عن الهطول. ستعرفُ ووترليلي ما أعنيه.

أشطبُ كلَّ شيء

أبدأ من جديد:

لا أظنُّ أنَّ هناك أبًا حقيقيًّا يمكن أن يشعر بفخرٍ أكبر ممَّا أشعر به. أشطب كلمة «حقيقيًّا»، وأُبقي كلمة «أبًا» فقط.

أُمزِّق الورقة، وأبدأ مرَّةً أخرى:

بِعتُ شركة ستيل ليغز المحدودة لإركور غودموندسون (صحيح ، إنَّه الرجل نفسه الذي يُدير شركة ستيل فريم المحدودة ، ويصنعُ مطابخ الجزيرة) ، وسيُحوِّل الدَّفعة الأخيرة إلى حسابك في شهر حزيران. تحياتي ، والدُك.

يُنقِذ الربُّ المُعانين بالمعاناة

أحزمُ أمتعَة سفرٍ لجُثّة. الحقيبة شبه فارغة: بلا كُرِيم واقٍ من الشمس ، أو موسى للحلاقة ، أو قمصانٍ لتبديلها ، أو صندل ، أو ملابس سباحة ، أو سروالٍ قصير ، أو كاميرا ، أو هاتف. سيستحيل الاتِّصالُ بي.

بعد ذلك ، أُرتِّبُ الشقَّة قليلًا.

أَبْسطُ اللِّحافَ على السرير ، وأمدِّده بعضَ الشيء ، ثمَّ أضع الغطاءَ فوق المِفرش ، وأشدُّ أطرافَه على الجانبَيْن إلى أن يتناظرا. هل أكنسُ الأرضيَّةَ أيضًا؟ أفتحُ خزانةَ الملابس. أهذه هي السترةُ التي حاكتها لي غوردون ، مطويَّةً على الجزء الخلفيِّ من الرفّ؟

أُسوِّي كومةَ الكتب الموجودة على طاولة السرير. لماذا ظلَّ الإنجيلُ هنا حتَّى الآن؟ لا يزال مُؤشِّرُ الكتاب عند سِفْر أيُّوب.

بعد أن توقَّفنا ، أنا وغوردون ، عن تقاسم لياليا معًا ، وصارت تستلقي على جانبٍ واحدٍ من السرير ، حيث تلفُّ نفسَها تحت الغطاء برفقة كتابها: كنتُ أستلقي على الجانب الآخر ، أقرأ الكتبَ الثلاثة التي لم يتمكَّن أحدٌ ممَّن أعرفُهم من قراءتها حتَّى النهاية: الإنجيل ، والقرآن ، وفيدا(6). لقد استغرَقني الأمر ثلاثة أشهر لقراءة الإنجيل ، ما يُقارب ١٨٢٩ صفحة ، بَيْد أنَّني قرأتُ الكتابَيْن الآخرَيْن في وقتٍ أقصر. وأمَّا الآيات الأثيرةُ

عندي فكانت التي يتحدَّث فيها بولس الرَّسول عن الحبّ ، فضلًا عن الآيات القرآنيَّة التي تحمل رسائلَ السلام. (مَن قتلَ نَفسًا بغير نَفسٍ ، أو فسادٍ في الأرض ، فكأنَّما قتلَ الناسَ جميعًا ، ومن أحياها فكأنَّما أحيا الناس جميعًا). وفي كتاب فيدا ، أحببتُ شخصيَّة بوروشا ذي الألف رأسٍ ، والألف عينٍ ، والألف قدَمٍ ، وهو الذي يَلفُّ العالَم كلَّهُ بين أحضانه.

لم يَحدُث إلَّا مرَّةً أن طلبَتْ غوردون منّي أن أقرأ لها. كانت في ذلك الوقت قد وضَعتْ لحافَ السرير في غطاءٍ لا يماثله في اللَّون ، فضلًا عن أنَّها شيَّدَتْ مِتراسًا من الوسائد بيننا ، كان أشبهَ بجدارٍ حصينٍ بين الضِّفتَيْن الشرقيَّة والغربيَّة من سرير الزوجيَّة.

«أيُّ المقاطع تُفضِّلين أن أقرأ لك ؟» ، سألتُها.

«ذاك الذي تقرأه».

كنتُ قد وصلتُ إلى سِفر أيُّوب. لذا ، قرأتُ لها عن أيُّوب الصالح ، والذَّكيِّ والصدوق ، والورِع والأمين ، والذي قُيِّدَ بالسلاسل وابتُليَ بالمعاناة.

«وقال عريانًا خَرجتُ من بطن أمِّي ، وعريانًا أعودُ إلى هناك» ، وأنهيتُ القراءة بهذه الآية.

«شكرًا لك» ، قالت بلطفٍ ، وشعرتُ بضعفٍ في صوتها. ثمَّ سمعتُها تقول ، وهي تكدِّس وسادتها وتستدير إلى الطرف البعيد: « تذكَّرتُ الآية». نظرتُ إلى كتفَيْها المقوَّسَتَيْن الجميلتيْن تحت منامتها. لو أنِّي وصلتُ إلى نشيد الإنشاد ، وقرأتُ لها « قامتُكِ هذه شبيهةٌ بالنخلة ، وثدياك بالعناقيد» ، فلربَّما ظَللتُ رجلًا مُتزوِّجًا إلى الآن.

ذهبَتْ إلى الحمَّام بُعيْدَ دقائق ، وعندما عادت ، قالت:

«ثمَّة تسريبٌ في صنبور المياه».

في اليوم التالي ، وجدتُ ملاحظةً على طاولة المطبخ ، وَرَدَ فيها:

«توقَّفَ مِصباحٌ في الرواق عن العمل».

وهكذا ، كنَّا نلتقي عند منتصف الطريق ؛ أمرِّرُ المعاناةَ إليها ، وتُكلِّفني بالأعمال المنزليَّة.

في وسعيَ أن أناديَ في الناس حتَّى الغسَق

ثمَّة ما يحدُث في كلِّ مكان.

بعد أن أغسل الصحن ، ثمَّ أجفِّفه وأعيده إلى الخزانة ، أمسحُ لوحةَ تصريف المياه ، وأعلِّقُ مَنشفةَ التَّجفيف.

أفتحُ النوافذَ كلَّها.

أغلقُ النوافذَ كلَّها.

ما إن أنتهي من توضيب السرير ، حتَّى أستلقي على الأريكة ساعتيْن ، مُحاولًا ألَّا أفكِّر في أيِّ شيء. أسألُ نفسي: هل ما زال في الحياة ما يُمكن أن يُفاجئني؟ شرورُ الإنسان؟ كلَّا ، إذ إنَّ معرفتي بالوحشيَّة البشريَّة تامَّة. الرفق الإنسانيّ؟ كلَّا ، إذ إنَّني التقيتُ بما يكفي من الأناس الصالحين كي أؤمِن بالبشر. قِممُ جبالٍ لانهائيَّة الروعة ؛ طبقاتٌ مُتراكمةٌ من المناظر الطبيعيَّة ؛ جبالٌ خلف جبال ؛ سُحبٌ زرقاء فوق أمواج ؛ شواطئ من رمالٍ سوداء لا حدود لها ، وأنهارٌ متجمِّدةٌ تتلألأ من جهة الشرق ؛ موجزٌ لحُلمٍ يمتدُّ

إلى ألف سنةٍ تمرُّ بطيئًا ، وكأنَّها تحت صفيحةٍ من زجاج الأكريليك! أعرفُ كلَّ ذلك. أليس ثمَّة ما أتوقُ إلى تجربتِه ؟ لا يسعني التَّفكير في أيِّ أمرٍ من هذا القبيل.

لقد حمَلتُ بين يديَّ طفلةً حمراءَ لزجةً وحديثةَ الولادة ، وقطعتُ شجرةَ عيد الميلاد من غابةٍ في شهر كانون الأوَّل ، وعلَّمتُ طفلةً كيف تقود الدرَّاجة ، وغيَّرتُ إطارَ سيَّارةٍ على طريقٍ جبليٍّ بمفردي في اللَّيل أثناء عاصفةٍ ثلجيَّةٍ ، وضفرتُ شعرَ ابنتي ، وعبرتُ بسيَّارتي واديًا ملوَّثًا يغصُّ بالمصانع ، وحُشِرتُ في المقطورة الأخيرة من قطارٍ صغيرٍ ، وسلقتُ حبَّاتِ بطاطا على موقد كيروسين في صحراء ذات رمالٍ بلون الفحم ، وتصارعتُ مع الحقيقة تحت ظلالٍ طويلةٍ وقصيرةٍ ، وأدري أنَّ الإنسانَ يبكي ويضحك ، ويعاني ويُحبّ ، ويمتلك إبهامًا ويكتبُ القصائد ، وأدري أنَّه يدري أنَّه فانٍ.

ماذا تبقَّى ؟ أن أسمعَ عَندلة العندليب ؟ أن ألتهِمَ حمامةً بيضاء ؟

بينما تنتظرُني سيَّارةُ الأجرة خارجًا ، أعودُ أدراجي إلى المنزل وأُحضرُ بعضَ الأدوات. لا شيء يُنبئ بطبيعة الظروف التي تنتظرني حين أصل ، ولربَّما سأحتاج إلى خطَّاف. أحضرتُ أيضًا وصلةَ مقابس كهربائيَّةٍ ، ومُحوِّلًا ؛ وأدركتُ حينها أنَّني قد أحتاج أيضًا إلى صندوقٍ صغيرٍ للعدَّة ، يحتوي على مثقابٍ قابلٍ للشحن. وقبل أن أغلق الباب ، أخذتُ صورةَ ووترليلي من على طاولة السَّرير. كانت في الخامسة من عمرها ، بضفيرةٍ صغيرةٍ ولثَّةٍ مُتورِّمةٍ ، وقد فقدتْ أسنانَها الأماميَّة للتوّ. التُقِطت الصورةُ في موقعٍ للتخييم ، بجوار بحيْرةٍ على طرف أحد الأنهار الجليديَّة. كانت تمدُّ أصابعَها الخمسَ نحو السماء ، وهناك جبلٌ جليديٌّ فيروزيُّ اللَّون في خلفيَّة المشهد. عندما مررتُ بقرب صناديق القمامة ، خطر

في بالي أنَّ أحدًا ما قد يُخرِجُ مذكَّراتي من القمامة ، ويقرأ اعترافاتي: دفاعًا عن حياة الإنسان. تَحمل دفاترُ اليوميَّات هذه اسميَ بكلِّ وضوحٍ: يوناس إبِنسِر سنايلانت. لماذا أُكنِّي نفسي بكنية أمِّي ؟ أربطُ دفاتر يوميَّاتي معًا ، وأضعُها في جيب سترتي.

سأُلقي بها في أوَّل سلَّة قمامةٍ أصادفُها خارج البلاد.

سأسافرُ الآن.

كي أقابِل نفسي ،

ويوميَ الأخير.

أقولُ إلى كلِّ شيءٍ وداعًا.

تَفتَّحتْ للتوِّ أزهارُ الزعفران.

لا أتركُ شيئًا خلفي.

أنتقلُ من الضوء ، الذي يُغلِّفُ كلَّ شيءٍ ، إلى الظلام.

ما يحدُث الآن

ينتهي الآن

أغفو على متن الطائرة ، وأحلمُ بخروفٍ يلعقُ أُذني ، وأستيقظُ قبل الهبوط بوقتٍ قصير.

تغوصُ الطائرةُ عبر الغيوم.

أنسلُّ.

أنسلُّ.

أنسلُّ إلى الأرض على مقرُبةٍ من البحر المالح.

أُميِّز أرضًا مُنبسطة، وحقولًا، وغاباتٍ لامتناهيةً، وبحيراتٍ ساكنةً وكأنَّها مرايا في مشهدٍ طبيعيّ. ويمتدُّ ظلُّ جناح الطائرة فوق حقلٍ، وينتهي عند طرف غابة. يحتضنني مُدرَّجُ المطار بسرعةٍ قصوى؛ ها قد هبطت الطائرة. تظهرُ أشجارٌ خضراء على مقربةٍ من النافذة. أحدِّق بعيدًا في الأفق، عند مُلتقى الغابة والسَّماء. إلى هناك وجهَتي، وليس أبعد من ذلك.

أحدِّد لنفسي أسبوعًا حتَّى إنجاز المهمَّة.

أنا غابةٌ، وليلُ أشجارٍ قاتِمة:

لكنْ مَن لا يَخشى ظُلمَتي، سيجدُ ضِفافَ الورودِ بانتظارِه

عند المخرَج، يقف رجلٌ يرتدي سترةً قصيرةً، ويحمل بيَدِهِ ورقةً كُتِب فيها اسمان: «السيِّد يوناس»، بخطٍّ أحمر في أعلى الصفحة؛ وتحته اسمُ أُنْثى. نحن المسافران الوحيدان اللذان أُرسلتْ إلينا من الفندق سيَّارةٌ كي تُقلَّنا إليه. نتشاركُ المقعد الخلفيّ. تجلسُ المُسافرة خلف السَّائق، وترتدي نظَّارتها الشمسيَّة مع أنَّ السَّماء ملبَّدةٌ بالغيوم. السيَّارة قديمةٌ يُغطِّيها الغبار، ومقاعدها مُهترئة، وأشعرُ بالنوابضِ تضغط على ظهري. وأمَّا حزام الأمان، فكان مقطوعًا.

«مُتزوِّجان»: هذه أوَّلُ كلمةٍ خرجتْ من فم السَّائق وهو يومئ برأسه نحونا، ناظرًا إليَّ أوَّلًا من باب التَّأكيد، ثمَّ إلى المرأة بجواري، فأدركتُ حينها أنَّه يطرح سؤالًا. تهزُّ المرأة رأسها، ثمَّ تقول شيئًا ما إلى السَّائق بلُغتهما. كانت ترتدي سترةً زرقاء وتنُّورةً، وتلفُّ

وشاحًا حريريًّا حول رقبتها ، وتميلُ قليلًا إلى الأمام في جلستِها ، مُمسكةً بمقعد السَّائق ، وكأنَّها تستعدُّ لجلسة تصويرٍ في أستوديو.

يقع فندقُ الصمت بجوار الشاطئ ، على بُعد ساعةٍ بالسيَّارة من المطار. بَيْدَ أنَّ السَّائق يوضُّح لنا أنَّ الطرقات لا تزال في حالةٍ من الفوضى ، وأنَّ علينا أن نسلك طريقًا جانبيَّةً عبر المدينة ، ما سيطيلُ رحلتنا قرابة نصف ساعة. لم تُرسَم بعضُ أجزاء الطريق على الخارطة بعد ، على حدِّ تعبيره. وعدا عن بعض التلال المتناثرة في البعيد ، فإنَّ البلاد مسطَّحةٌ في العموم.

كان الغبارُ الرَّماديُّ الذي يغطِّي كلَّ شيءٍ أوَّلَ ما لفت انتباهي ، إذ بدا كطبقةٍ من الرَّماد في أعقاب انفجارٍ بُركانيّ. وإذا ما صرفنا النَّظر عن المسحة الحمراء التي تمتدُّ على طول سماءِ ما بعد الظهيرة ، فيُمكن القول إنَّنا نقود السيَّارة في موقعٍ لتصوير فيلمٍ بالأسود والأبيض.

يُعزِّز السَّائق ما أشعر به.

«أسوأُ الأشياء الغبارُ» ، يقول. «نتنفَّسُ الغبار. ننتظرُ أن تُمطر السَّماء. حينها ، يتحوَّل كلُّ ذلك إلى طين ، بطبيعة الحال. يجلبُ المطر الرطوبةَ أيضًا».

ألاحظُ أنَّه يعدِّل وضعيَّةَ المرآة كلَّما تحدَّث إلينا ، كي يجعلنا في مرمى بصره. يوجِّه مقودَ السيَّارة بيده اليمنى ، بينما تتمدَّد يُسراه في حجْره بلا حركة. وكلَّما أراد أن يُشير إلى شيءٍ ما ، رَفَعَ يمناه عن المقود كلِّيًّا ، فتنحرف السيَّارةُ عن الطريق.

ألمَحُ بقايا سور مدينةٍ قديمة.

«هنا، كانت ثمَّة آثارٌ رومانيَّةٌ ذات يومٍ، لكنَّها الآن مجرَّدُ أنقاض»، أسمعُه يقول. «ولسوف يستغرق الأمرُ خمسين سنةً حتَّى نُعيد إعمار البلاد. ولن يعود اللَّاجئون إلى ديارهم ما دامت الفوضى قائمة»، يواصل حديثه. «لم نعُد نستقبل السيَّاح. لم نُعد حديث نشرات الأخبار. نحنُ مَنسيُّون. لم نَعُد موجودين».

يقول إنَّ الفندق أُغلِقَ لشهورٍ عديدةٍ، وإنَّه من الأهمِّيَّة بمكانٍ أن يستقبل ثلاثة ضيوفٍ في الأسبوع. يُخبرنا أنَّ هذا هو المجموع، بمن فيهم نحن، رافعًا ثلاث أصابع في الهواء، لتنحرف السيَّارة عن الطريق.

لم نرَ أيَّ مبنى غير مُدمَّر. يشيرُ السَّائق بيده، ويشرع في التَّعليق: لقد دُمِّرَ مبنى مجلس النوَّاب، وكذلك المتحف، ومحطَّة البثِّ التلفزيونيِّ صارت أنقاضًا الآن. سُوِّي الأرشيفُ الوطنيّ، بما يحتويه من مخطوطات، بالأرض. وأمَّا متحفُ الفنِّ الحديث فقد تعرَّض للتفجير. «كانت هنا مدرسةٌ ذات يومٍ، وهنا مكتبةٌ، وهنا جامعةٌ، وهنا مَخبزٌ، وهنا سينما»، يواصل حديثه.

ثمَّة دمارٌ في كلِّ مكان.

تعرَّضت الشّققُ العلْويَّة في المباني السكنيَّة إلى دمارٍ جزئيّ، كما يبدو النقصُ واضحًا في زجاج نوافذ الجدران التي لا تزال صامدة. أقول في نفسي: لديكُم منازلُكم المهجورة المُتهالكة، ولدينا جلاميدُنا التي تتصدَّعُ، فتتدفَّقُ عبرها صخورٌ مُنصهرةٌ كأنَّها جداول.

نتعرَّجُ ببطءٍ عبر المدينة ، وتظهَرُ ملامحُ الشحوب والسأم على وجوه الناس القلائل الذين نمرُّ بجانبهم. ثمَّة آلاتٌ تعمل بين الأنقاض في بعض الأماكن. وثمَّة الكثير من العلامات التي توحي بالرخاء الذي تمتَّع به الناسُ هنا قبل الحرب. نتوقَّفُ عند مُفترق طرقٍ ، بجوار منزلٍ من طابقيْن وبلا واجهة ، وكأنَّه بيتُ دُمى. وعلى الرَّغم من أنَّ كلَّ شيءٍ مغطًّى بطبقةٍ ثخينةٍ من الغبار ، فقد تمكَّنتُ من تمييز سجَّادةٍ مزخرفةٍ على الأرض ، وما تبقَّى من بيانو. تُذهلني رؤيةُ كرسيٍّ ضخمٍ ، بذراعَيْن ومسندٍ للقدمَيْن ، لأحدِ المصمِّمين المعروفين. وبجوار الكرسيّ ، شمعدانٌ ورفوفُ كتبٍ على الأرض. أنتبهُ إلى السرير الموضَّب في الغرفة ، إذ وضعَ شخصٌ ما بطَّانيَّةً بيضاءَ فوق السَّرير المزدوج قبل أن يهجر المنزل ؛ ربَّما خرجَ إلى المخبزِ لشراء بعض الحَلْويات ، فأصابته رصاصةٌ في الطريق. ومع ذلك ، فإنَّ أكثر ما شدَّ انتباهي مزهريَّةٌ صفراءُ غيرُ مكسورةٍ ، تعلو أحدَ الرفوف في غرفة المعيشة. في مرأب المنزل ، ثمَّة ركامُ سيَّارةٍ عائليَّة ، وفي ممرِّ القيادة درَّاجةٌ ثلاثيَّةُ العجلات.

تناثرتْ أكوامٌ من القمامة في كلِّ مكانٍ ، وفي وسع أنفي إدراك أنَّ مياه الصرف الصحِّيِّ قد طفت على الأرض. يعتذرُ السَّائق قائلًا إنَّ إغلاق النافذة إلى جانبي مستحيل. وفضلًا عن الرَّائحة اللَّاذعة التي تأتي من الخارج ، وعِطر ما بعد الحلاقة النفَّاذ . من ماركة فهرنهايت .الذي يستخدمه السَّائق ، فإنَّني أشمُّ أثرًا ضعيفًا لعطرٍ جميلٍ برائحة الزهور من جهة المرأة ، يختلفُ كليًّا عمَّا اعتادت غوردون أن تضعه. ما كان اسمُ ذلك العطر ؟ أولَم

تكُن رفيقة النجوم، وخلفَ أذنيْها بلوتو؟ تُحدِّق المرأة بصمتٍ في الطريق من بين المقعدَيْن الأماميَّيْن.

«مُتعهِّدون»، يقول الرجلُ مشيرًا برأسه إلى بعض الحفَّارات الآليَّة العملاقة من طراز كاترپيلر. «بعد الغارات الجويَّة، جاءت قوَّاتُ حفظ السلام»، يستأنف كلامه، «ثمَّ سرعان ما شرعوا مع المقاولين بإحضار آليَّاتهم». يرفعُ يده عن عجلة القيادة كي يُعدِّل وضعيَّةَ المرآة من جديد. عيناهُ مصوَّبتان نحوي هذه المرَّة.

يريدُ أن يعرف ماذا أريدُ أن أفعلَ في هذا المكان.

«إجازة»، أقول له.

كلاهما يُحدِّقان في وجهي. الرجلُ والمرأة. أنتبهُ إليهما يتبادلان نظرةً خاطفةً في المرآة. يقول الرجل للمرأة كلامًا لا أفهمُه، ثمَّ ينظران إليَّ مرَّةً أخرى، ويومئان. أمَّا أنا، فأرصدهما.

يُعيد صياغةَ سؤاله، ويسألُني إنْ كنتُ في مهمَّةٍ خاصَّة، على غرار الرجل الذي وصل إلى الفندق قُبيلَ أيَّامٍ من الأسبوع نفسه.

أكرِّرُ أنِّي في إجازةٍ، فيتوقَّفان عن طرح الأسئلة.

نبتعدُ عن المدينة، ونأخذ بالسيَّارة طُرقًا ريفيَّةً متعرِّجةً تحيطُ بها الغاباتُ على الجانبَيْن كلَيْهما. ألاحظُ أنَّ جذوع الأشجار رماديَّةٌ، ويبدو كأنَّ جزءًا كبيرًا من أشجار الغابة لم يعد يورقُ أو يُزْهِر.

على مشارف الغابة حقلٌ يُخفِّف السَّائق فيه سرعة السيَّارة ، ويرفعُ يده عن عجلة القيادة كي يشير إلى شيءٍ ما ، الأمر الذي يَحْرف السيَّارة عن الطريق.

«مقابر ، مقابرُ جماعيَّةٌ مَجهولة» ، يقولُ ، مُشيرًا إلى وجود شاعرٍ وطنيٍّ شهيرٍ في أحد القبور ، وقد كتبَ قصيدةً عن غابةٍ مُقفِرة.

تتحدَّثُ المرأة إلى السَّائق ، وأشعرُ بأنَّ الأخير لم يَعُد مرتاحًا.

يهزُّ رأسَه.

تُوجِّهُ المرأةُ الكلامَ إليَّ للمرَّة الأولى.

«في هذا المكانِ ، دَفن الناسُ أبناءً ، وأزواجًا ، وآباءً» ، تقول لي. «وفي العديد من الأماكن ، يرقدُ آباءٌ مع أبنائهم ، جنبًا إلى جنب ، وقد يصلُ الأمر إلى ثلاثة أجيالٍ من العائلة نفسها». تُخبرُني بأنَّ الحرب اندلعتْ بين المنازل ، بين الجيران الذين كان أطفالُهم يذهبون إلى المدارس نفسها ، بين زملاء العمل ، بين أعضاء نادي الشطرنج ، بين المُهاجمين وحرَّاس المرمى في فريق كرة القدم. «إنَّك لتجدُ طبيبَ العائلة على جبهةٍ» ، تقول بصوتٍ خفيضٍ خالٍ من أيِّ مشاعر ، «والسبَّاك ومُعلِّم الغناءِ على الجبهة الأخرى. لقد تحوَّل الزملاءُ السَّابقون في الجوقة إلى أعداء ؛ الباريتون على جبهةٍ ، والباس والتينور(7) على الجبهة الأخرى».

يتملَّكُها الصمت ، وتحدِّقُ في البعيد عبر النافذة.

أتساءلُ في نفسي عمَّا فعله سائقُ سيَّارة الأجرة كي يظلَّ على قيد الحياة. لماذا لم يُدفَن على مشارف الغابة؟ هل كان جلَّادًا، أم ضَحيَّة؟ هل تقع على عاتقه مسؤوليَّةُ بعض القبور المحفورة حديثًا لآباء وأبناء؟ يظلُّ صامتًا، ويبدو أنَّ تركيزه منصبٌّ على القيادة.

بعد فترةٍ وجيزة، يعود إلى الحديث من جديد. بَيْدَ أنَّه يغيِّر الموضوع، ويقول إنَّه أوصلَ العديد من المشاهير إلى فندق النادي الصحّيّ، على حدِّ تعبيره.

«من أجلِ الراحة وتحسينِ الحالة الصحِّيَّة على نحوٍ خاصّ».

يستغرق في التَّفكير لبرهة.

ثمَّ يستأنف حديثه: «ميك جاغر، على سبيل المثال. والمُضحِكُ في الأمر أنَّ المذياع كان يبثُّ أغنية I Can't Get No Satisfaction في الوقت نفسه. لكنَّه لم يُغنِّ معها. أقصدُ جاغر».

يصمتُ، قبل أن يواصل الكلامَ من جديد:

«إن لم يكُن هو نفسه، فقد كان شخصًا آخر شديدَ الشَّبه به. بعينٍ بُنِّيَّةٍ، وأخرى زرقاء».

«لعلَّه كان ديفيد بووي؟» أسألُه، فكلاهما متشابهان بالنِّسبة إليَّ. يُفكِّرُ السَّائق قليلًا في الأمر.

«أجل، والآن بعد أن أشرتَ إلى ذلك، لعلَّهُ كان ديفيد بووي».

وبعد أن تذكَّرَ الحادثةَ على نحوٍ أفضل، بات يعتقد أنَّ الأغنية التي بثَّها المذياع وسمِعها الرجلان، كانت ربَّما عن رجُلِ النجوم الذي ينتظر في السَّماء.

«بَيْدَ أنَّه كان أقصرَ ممَّا توقَّعتُه» ، يقول. لكنَّ ذلك لم يفاجئه ، لأنَّه سمع من قَبلُ أنَّ أحجام المشاهير أصغر ممَّا نظنّ. «إنَّ الناس أطول ، أو أقصر ، ممَّا تتوقَّعه» ، يضيف.

وبينما كان السَّائقُ ينظر إلى ميك جاغر ، أو ديڤيد بووي ، عبر المرآة الخلفيَّة لسيَّارته ، لاحظَ كيف كان الراكب يُحرِّكُ شفتَيْه الكبيرتَيْن تزامنًا مع الأغنية.

«يبدو هذا ممَّا قد يفعله جاغر» ، أقول.

يومئ برأسه.

«أجل ، أنا متأكِّدٌ أنَّه كان أحدهما».

تتبسَّمُ المرأة. هل تتبسَّمُ لي ؟

يدخُل الغسَق ، ولا تزال السيَّارة على الطريق في المدينة ، تحت سماءٍ قانية الحُمرة. الشوارعُ ضيِّقةٌ ومرصوفةٌ بالحصى ، وتتراقصُ السيَّارة فوقها. أنظر إلى زقاقٍ مُعبَّد ، وأنتبه إلى وجود بعض الثقوب الكبيرة في الأنابيب المكشوفة كجلدٍ مسلوخ.

وبينما يُخرج السَّائقُ الحقائبَ من صندوق السيَّارة ، ألاحظُ أنَّ كُمَّ سترته الأيسرَ ، وكان مرخيًّا بلا حراكٍ فوق حضنه طوال الرحلة ، فارغ.

يرفعُ الجدعة.

«لغمٌ أرضيّ» ، يقول. ثمَّ يضيفُ بأنَّه كان محظوظًا ، إذ لم يَفْقد سوى السمعِ في أُذنٍ واحدة ، ونصف ذراع.

«لقد كان لنجاةِ مرفَقي عظيمُ الأثر».

ثمَّ يزيحُ الشعر عن إحدى أُذنيْه بيَده التي ما زالت كاملةً ، ويُظهِر إليَّ الأذنَ التي لم يبق سوى نصفِها ، والنَّدبة التي تمتدُّ حتَّى صدغه.

«تساعدُني المرآة الخلفيَّة على فهمِ ما يقوله الركَّاب. أنظرُ ، ثمَّ أسمع» ، يضيفُ.

أمَّا أنا ، فأقول في نفسي: أنا أسمعُ وأرى.

أثناء سيري عبر مدخل فندق الصمت ، حاملًا بيدي صندوق العدَّة ، أسمعُه يقول:

«تظنُّون أنَّ الغارات الجوِّيَّة تحلُّ كلَّ شيء» ، وأغلبُ الظنِّ أنَّه يُخاطب نفسه!

(1) تقصدُ الكاتبة هُنا الربط ما بين ألوان الشفق القطبيّ في السماء واسم زوجة سفانور أورورا Aurora ، والذي يعني الشفق القطبيّ أيضًا. (المترجم).

(2) كتاب للشاعر واللَّاهوتي ، والكاردينال لاحقًا ، جون هنري نيومان (1801 . 1890). العنوان الأصليُّ للكتاب باللُّغة اللَّاتينيَّة. في الكتاب ، الصادر للمرَّة الأولى سنة 1864 ، دافع المؤلِّف عن آرائه الدِّينيَّة (المترجم).

(3) إشارة إلى قمة ريكيافيك (11 و 12 أكتوبر 1986) التي جمعت ما بين الرئيس الأميركيّ رونالد ريغان ورئيس الاتحاد السوفيتيّ ميخائيل غورباتشوف حينذاك في العاصمة الآيسلندية. (المترجم)

(4) إنجيل يوحنا ، الإصحاح الأوَّل: 14. (المترجم)

(5) One Way Ticket To The Moon: أغنية للمغني والملحن وكاتب الأغاني البريطانيّ دايفيد أ ستيوارت ، صدرت في سنة 2011. (المترجم).

(6) فيدا (Vedas): الكتاب المقدَّس للدِّيانة الهندوسيَّة. (المترجم)

(7) الباريتون والباس والتينور: طبقات صوتيَّة رجَّاليَّة تختلف تبعًا لحدّة الصوت (المترجم).

II . نَدَبات

يُطبِق الصمتُ على كلِّ شيء ؛ صَمت

على الرَّغم من أنَّ فندقَ الصمت قد نجا من الحرب من دون أضرارٍ نسبيًّا ، إلَّا أنَّه خسرَ الكثيرَ ممَّا يُرغَب فيه إذا ما قورن الواقعُ بالصور عبر الإنترنت. يبدو الأمر كما لو أنَّ كلَّ ألوانه تلاشَت ، مثل جسدٍ شاحبٍ لم يرَ الشمسَ منذ زمنٍ طويل. وفي الهواء ، ثمَّة أثرٌ لرائحةٍ عفنة. أميِّزُ الثريَّا التي تتدلَّى من السقف ، لكنَّ ضوءها باهتٌ ورماديّ ، وبلا ألَق.

يتحدَّث الشاب عند مكتب الاستقبال اللُّغةَ الإنكليزيَّة ، مثل السَّائق ، وأظنُّ أنَّه في العشرين من عمره ؛ أي في السنِّ التي شرعتُ فيها بكتابة المذكَّرات عن الجسدِ وأشكال الغيوم. يرتدي قميصًا أبيض ، وربطةَ عنقٍ ، فضلًا عن سترةٍ طويلةٍ ، يُعدِّلُها من جانبٍ واحدٍ بين الحين والآخر.

أقفُ والمرأة جنبًا إلى جنب لبرهةٍ قصيرةٍ جدًّا ، كزوجيْن يؤكِّدان حجزَ غرفةٍ في فندق ، ثمَّ أرجعُ خطوةً إلى الوراء ، ممسكًا بيدي صندوقَ العدَّة. وبينما تملأُ المرأةُ استمارةً ما ، ألقي نظرةً خاطفةً على المكان. تتحدَّثُ المرأةُ مع الشاب بصوتٍ خفيض.

سُرعان ما أدركُ أنَّ الفندق بحاجةٍ إلى صيانة. لقد تقشَّرَ الطلاءُ في أماكن كثيرة ، وتظهَرُ في السقف علاماتٌ تدلُّ على الرطوبة والجصِّ المتهالك. ولن أتفاجأ إنْ ما علمتُ أنَّ المبنى لم يُدفَّأ منذ مدَّةٍ طويلة ، إذ إنَّ الأمر لا يختلف عن العودة إلى منزلٍ صيفيٍّ باردٍ في

فصل الربيع بعد شتاءٍ كثيف الثلوج. ينبغي أن يُهَوَّى هذا المكانُ ويُرمَّم. أطرقُ على الحائط ، لكنَّني لا أستطيع أن أميّز نوعَ الخشب. ما نوع الغابات التي مررنا بها في الطريق إلى هنا ؟ خشبٌ أحمر ؟ يُستخدَم بَهوُ المدخل أيضًا ممرًّا إلى حدٍّ ما ، لكنَّ مدفأةً كبيرةً تلفتُ انتباهي. كانت موقدةً ، وتبعثُ رائحةَ دخانٍ خفيفةً في الهواء.

أرى فوق المدفأة لوحةً لغابةٍ يقفُ في منتصفها فهدٌ يحدِّقُ في مكانٍ خارج الصورة ، بينما يحدِّق صيَّادٌ في الوحش بعينَيْن شُجاعتَيْن. ومع ذلك ، يبدو الحيوان البرّيُّ أشبهَ بهرٍّ مُسالمٍ بعينَيْ دُمية.

أنتبهُ إلى أنَّ الشابَّ في مكتب الاستقبال يسترق النَّظرَ إليَّ ، بينما لا يزال يهتمُّ بشؤون المرأة. لم تخلع الأخيرة نظَّارتها الشمسيَّة ، لذا يخطر في بالي أنَّها ربَّما تعاني الصداعَ بسبب الرحلة.

ما إنْ تختفي المرأة ، بعد أن أخذَتْ مفتاحَ غرفتها وصعدتْ إلى الطابق العلْويّ ، حتَّى يلتفت الشاب إليَّ وينحني فوق مكتبه ، ثمَّ يقول بثقة:

«نجمةٌ سينمائيَّة».

يبدو عليه أنَّه يعصر دماغه.

«ماذا كان عنوان آخر فيلمٍ أدَّت بطولتَه ؟» يُفكِّرُ برهةً. «رجلٌ بمهمَّة ؟ ، كلَّا» ، يقول ، مُصحِّحًا لنفسه. «ألم يكُن عنوانه رجُلٌ بلا مهمَّة ؟»

ثمَّ يبدو أنَّه لم يَعُد متأكِّدًا ، ويقول إنَّها توقَّفتْ عن الظهور على شاشة السينما منذ فترةٍ طويلة.

يُطلَب منّي أن أملأ العديد من الاستمارات ، ويستغرقُ الأمر وقتًا طويلًا ، وثمَّة استبيانٌ يشبهُ ذاك الذي ملأتُه في المطار: الأبوان. مكانُ ولادة كلٍّ منهما. هل ينبغي أن أكتبَ في خانة الأمِّ لاكساردالور ، في الحيِّ الشرقيِّ من هونافاتن؟ الوضع العائليّ ، الأطفال ، الأقرباء ، رقمٌ للطوارئ؟ بمَن يجبُ الاتِّصال في حال وقوع حادثةٍ مؤسفة؟ أكتبُ في الخانة اسم ووترليلي يوناسدوتّير ، ورقم هاتفها. يُلقي الشابُّ نظرةً سريعةً على النموذج كي يتأكَّد من أنّي ملأتُ الخاناتِ كلّها.

«يسألونك عن طول قامتك» ، يقول ، مشيرًا إلى الورقة.

أكتبُ: متر وخمسة وثمانون سنتيمترًا.

سيكون هذا مفيدًا إذا ما صنعوا صندوقًا ليضعوني فيه.

«توقَّعتُ أن يكون طولُكَ مترًا وثلاثة وثمانين سنتيمترًا» ، يقول الشابّ.

يعتذر عن هذا العمل الورقيّ ، معلِّلًا أنَّ الإجراءات لا بدَّ من أن تُتَّبع. نحنُ وحدنا ، لكنَّه يُخفض صوتَه ويتلفَّتُ حولَه بسرعة.

«نريدُ أن نعرف ما يفعله الناس في هذه البلاد».

يوضِّحُ لي أنَّ هذا الفندق ليس كبيرًا ، عدد الغرف ستَّ عشرةَ غرفة ، خمسٌ منها فقط مشغولةٌ في الوقت الراهن.

ثمَّ يؤكِّدُ ما قاله سائقُ سيَّارة الأجرة من أنَّ الفندق كان خاليًا من النزلاء طوال أشهرٍ عديدة.. لكنْ ، فجأةً ، خلال أسبوعٍ واحدٍ فقط ، وصل إليه ثلاثة نزلاء.

«أنت، والسيِّدة، والرجل»، يقول، قبل أن يضيف بأنَّهم قد دفَّأوا غرفتي في وقتٍ سابقٍ من اليوم.

بعد ذلك، يفتحُ خريطةً ينحني فوقها، وبيدِه قلمٌ بحبرٍ أزرق. يشطبُ عدَّة مناطق مُختلفة، قائلًا: أنقاض، لا شيء. ثمَّ يسحب قلمًا بحبرٍ أحمر، ويرسم دوائر على الخريطة، ويقول إنَّها أماكن الألغام الأرضيَّة. هنا وهنا، وهنا. لا تذهبْ إلى الغابة، ولا تتجوَّلْ في الحقول. تجنَّب المناطقَ المهجورة. «لا تدُسْ على أيِّ شيءٍ هنا، وهنا، وهنا، وهنا»، يقول. «لا تذهبْ إلى هناك، أو هناك.. أو هُنا. لا تقطِف الفطْر. الألغامُ البلاستيكيَّة خطيرةٌ، لأنَّ أجهزة الكشف لن تستطيع إيجادها».

يُسلِّمُني المفتاح.

«رقمُ غرفتك ٧». ثمَّ يضيف:

«يَسري حظرُ التجوُّل من الساعة الحادية عشرة ليلًا حتَّى السادسة صباحًا. الكهرباء مُقنَّنة، وينقطع التيَّار ستّ ساعاتٍ كلّ يوم. المياه مُقنَّنةٌ أيضًا. إذا أردتَ الاستحمام، فعليك فعلُ ذلك قبل التاسعة صباحًا، إذ لا مياهَ ساخنة بعد ذلك الوقت. ولا تبقَ في الحمَّام أكثر من ثلاث دقائق، وإلَّا فلن تستطيع شقيقتي أن تستحمّ».

لا أسألُه عن سبب حاجة شقيقته إلى الاستحمام في الفندق، لكنَّه يفسِّرُ لي الأمر طوعًا:

«إنَّها تعمل في الفندق مثلي».

يُبدي تردُّدًا

«في الواقع، بإمكانك القول إنَّنا نحنُ مَنْ ندير الفندق تقريبًا».

يُدقِّقُ النظرَ في الاستمارات.

«كتبتَ هُنا إنَّك ستبقى أسبوعًا. ما زالت غرفةُ الطعام مُغلقةً ، لكنَّنا نقدِّم وجبةَ الفطور. هُناك أيضًا مطعمٌ في آخر الشارع ، وسيظلُّ مفتوحًا في حال أخبرناهم بأنَّك قادم».

ثمَّة شيءٌ آخر: إذا احتجتُ إلى مساعدته ، فعليَّ أن أقرع الجرس ؛ ذلك لأنَّه ليس في المكتب طيلة الوقت ، فهو مشغولٌ بتنفيذ مهامٍّ أخرى.

عندما حجزتُ الغرفةَ عبر الإنترنت ، قرأتُ عن حمَّاماتٍ أثريَّة ، ولوحةٍ فسيفسائيَّةٍ شهيرةٍ عُثِر عليها أثناء حفر أساسات المبنى ، إنْ لم تخنِّي الذاكرة!

أسألُ الشابَّ عن اللَّوحة ، وإنْ كان الوصولُ إليها مُمكِنًا.

«سيسرُّني أن أشاهدها» ، أقول له. وفجأةً ، لم يَعُد الشابُّ يفهم الإنكليزيَّة.

«إنَّها مرتبطةٌ بالفندق ، أليس كذلك ؟» ثمَّ أضيفُ .مُحاوِلًا أن أنشِّطَ ذاكرتَه .أنَّ موضوع اللَّوحة نساءٌ عاريات.

بَيْدَ أنَّ ما لفت انتباهي حقًّا كان اللَّون الفيروزيَّ الغريب في خلفيَّة اللَّوحة ، وقيل إنَّه يُعزى إلى مقلعٍ حجريٍّ قديمٍ في البلاد. لسوء الحظّ ، لم يكن لدى الشابّ أيُّ عِلمٍ بوجود اللَّوحة الفسيفسائيَّة ، أو أيّ آثارٍ قديمةٍ أخرى في المنطقة. يُخبرني بأنَّه لا بدَّ من وجود سوء فهمٍ ما ، ثمَّ يَشْغل نفسَه فجأةً بعملٍ ورقيٍّ على مكتبِه ، الذي يبدو أن لا وجودَ عليه سوى لورقتيْن.

«أنا آسف» ، يقول.

وماذا عن أحواض السباحة الساخنة داخل الفندق، والحمَّامات الطينيَّة، ألا يَعْرفها أيضًا؟

كلَّا، لا يذكُر أنَّه سمِع بها من قبل، لكنَّه يقول إنَّه سيستفسر عنها.

وبينما أصعد إلى الطابق العلْويّ، أسمَعُ الشابَّ يقول، من دون أن يرفع رأسَه:

«أجل، المصعد مُعطَّل».

في الطريق إلى الغرفة، يَخطرُ في بالي أنّي لستُ مُضطرًّا، من الآن فصاعدًا، إلى النطق إلَّا بما أريدُ. وأنَّ بإمكاني أن أُطبِق فمي حتَّى نهاية العالم.

في الغرفة رقم ٧، بلغتُ هذه النقطة تحديدًا من الحياة

كانت اللَّوحة المُعلَّقة فوق السَّرير أوَّلَ شيءٍ لاحظتُه، بعد أن فتحتُ باب الغرفة وأشعلتُ ضوءَها. لم تكن مختلفةً عن لوحة الغابة في بهو الفندق، سوى أنَّ فيها أسدًا بدلًا من الفهد، وأنَّ الحيوان البرِّيَّ فيها لا يُحدِّق في مكانٍ خارج اللَّوحة، بل يُحدِّق والصيَّاد واحدهما إلى الآخر وجهًا لوجه.

أمَّا ورقُ الجدران المزخرف بأوراق الشجر، فقد بدأ يتقشَّر في زوايا الغرفة.

ثمَّة أيضًا مكتب، وكرسيٌّ ذو ذراعَيْن بقوائم خشبيَّةٍ وتنجيدٍ من نسيج. على المغسلة لوحُ صابونٍ جديد، يلفُّه ورقٌ حريريّ رقيقٌ مزيَّنٌ بالزهور، وتنبعثُ منه رائحةٌ خفيفةٌ تشبه رائحةَ صابون اللوكس القديم. غطاءُ السرير مغطًّى بالغبار، لكنَّ الملاءات تحته نظيفة.

أستلقي بثيابي فوق غطاء السَّرير، وأُشغِّل مصباحًا بجانبه. يومض المصباحُ بضع مرَّاتٍ، ثمَّ ينطفئ إلى الأبد. أُلقي نظرةً خاطفةً على ساعة يدي، وأجدُ أنَّ أمامي ساعةً بعدُ قبل انقطاع الكهرباء، فأجلبُ من صندوق العدَّة مفكًّا ومصباحَ جيْب، وأضعها بجانب المصباح.

أشعرُ بالبرد بعد هذه الرحلة.

أفتحُ الحقيبة، وأرتِّب أمتعتي متجاورةً على الطاولة. لا يستغرق الأمر وقتًا طويلًا. أعلِّقُ قميصي الأحمرَ في خزانة الملابس، وأضعُ سترتي على الرفِّ بجوارها، وأُبقي مذكَّراتي على الطاولة بجانب صندوق العِدَّة. لم أصادف سلَّة مهملاتٍ بعدُ في هذه البلاد. في الواقع، لا شيء لديَّ. تسعة أشياءٍ فحسب.

هل عليَّ أن أذهب إلى الفراش، أم أن أنظِّف أسناني؟

أفتحُ صنبورَ الماء. يُطلق رملًا في البداية، ثمَّ سائلًا طينيًّا بنِّيًّا، فماءً أحمر في نهاية المطاف. الماء بارد، وضغطُه غير كافٍ للاستحمام. ويوحي صوتُ الخشخشة في الأنابيب بالحاجة إلى تفحُّصها.

بإمكاني أن أسمع صريرَ السَّرير على الجانب الآخر من الجدار، ويبدو أنَّ شخصًا ما في الغرفة المجاورة يتقلَّب فوقه عاجزًا عن النوم؛ هذا إنْ لم يكن عليه شخصان امرأة ورجل، يفركان جسدَيْهما المتعرِّقَيْن بعضهما بعضًا. هل سمعتُ للتوِّ صوتَ طفل؟ هل يُغنِّي شخصٌ ما تهويدةً؟

ثمَّة شقٌّ بين الستائر ، ويَغْمرُ العالمَ الخارجيَّ ظلامٌ دامِس. أسمَعُ صوتَ درَّاجةٍ صغيرةٍ قد أديرت للتوّ ، وأزيزًا ، ويخطرُ في بالي أنَّه ربَّما كان غناء صراصير اللَّيل. وفجأةً ، أظنُّ أنّي سمعتُ حفيفًا خارج غرفتي ، كما لو أنَّ شيئًا ما كان يخدشُ أسفلَ الباب برفق. وأخيرًا ، لم أعُد أسمع أيَّ صوتٍ آخر.

أمَّا الشيء الوحيد الذي يُبقيني مُستيقظًا ، فهو صوتُ دقَّات قلبي تحت زنبقة الماء.

بووووم ، بووووم ، بووووم.

ومع ذلك ، فلن يطول الوقت قبل أن يسودَ سكونُ الموتى في صدري.

بردٌ فوق غطاء السرير ، وبردٌ تحت الملاءات ، وفي مرحلةٍ ما من اللَّيل ، أتحسَّس الطريقَ عبر الظلام بحثًا عن سترتي .من غير أن أتوقَّع العثورَ على لحافٍ في الخزانة. وما إن أفتح باب الخزانة ، حتَّى يسقط بين ذراعيَّ. أُحضرُ المصباحَ اليدويَّ وأتفحَّص المفصَّلات ، فأرى أنَّها كانت مُثبَّتةً ببرغيَّيْن رخوَيْن فقط. أعتقدُ أنَّ لديَّ براغيَ مناسبة في صندوق العدَّة ، ولهذا سأصلحُ الباب غدًا. أرتدي السترةَ التي حاكتها غوردون لي ، وأتكوَّر تحت الملاءات ، مثلَ جنينٍ يبلغ من العمر تسعةً وأربعين عامًا. أوَ ليسَ من المنطقيِّ أن أفكِّر في أمّي ؟

أشغِّل المصباحَ اليدويَّ من جديد ، ثمَّ أسحبُ أحد دفاتر مُذكَّراتي ، وأفتحه كيفما اتَّفق. في أعلى مُنتصف الصفحة ، كتبتُ ما يلي بخطٍّ مائجٍ وحبرٍ أزرق: ينبضُ قلبُ الإنسان سبعين مرَّةً في الدقيقة الواحدة. وكلَّما ازداد حجمُ المخلوق ، تباطأتْ نبضاتُ قلبه.

ينبض قلبُ الفيل ثلاثًا وعشرين مرَّةً في الدقيقة الواحدة. وما إنْ تبلُغ ضرباتُ القلب عددًا معيَّنًا ، حتَّى يتوقَّف عن العمل.

تحتَ أجنِحتهِ تحتمي(8)

يوقظني طائرٌ عملاقٌ يركض في دوائرَ حول الغرفة ، ويرفرفُ بجناحيْه بقوَّةٍ إلى الأعلى والأسفل ، كما لو أنَّه يحاول الإقلاع ، لكنَّه يندفع بعد ذلك عبر الباب في طرفة عَيْن ، ويُغلقه بهدوءٍ خلفَه.

إنَّه طِفل.

ألَم أُقفل الباب ؟ القفلُ قديم ، وربَّما كان عالقًا.

يستغرقُ الأمر لحظاتٍ قليلةً قبل أن أتذكَّر في أيِّ بُقعةٍ من بقاع العالم هبطتُ. أحاول أن أخمِّن الوقتَ بالنَّظر إلى الضوء الذي يرشح تحت الستائر ، ثمَّ أنظرُ إلى ساعة يدي. لقد نمت قرابةَ عشر ساعات ، وما زالت الكلماتُ التي سمعتها في الحلم معلَّقةً على شفتيَّ. كانت أمِّي تقول:

«بدلًا من أن تضع حدًّا لحياتِك ، أليسَ بمقدورِكَ أن تضع حدًّا لك أنت ، أن تصبحَ شخصًا آخرَ فحسب ؟»

بعد لحظات ، أسمعُ طَرْقًا على الباب ، وتظهَرُ شابَّةٌ أمامه. كانت ترتدي قميصًا أبيض بياقةٍ عالية ، وتنُّورةً ، وأحسَبُ أنَّها ربَّما في مثل سنِّ ووترليلي. أتوقَّع أنَّها الشقيقة التي ذكرَها الشابُّ في مكتب الاستقبال ، وسُرعان ما يخطر في بالي أنَّها ستكون على الأرجح من سيَعثرُ على جثَّتي ، ثمَّ ستُخبر شقيقَها في بهو الفندق ، فيُبلغ الشرطةَ بدوره.

تعتذرُ المرأة عن الإزعاج ، وتسألني عن الموعد الذي أفضِّلُه لتوضيب السرير ، وإنْ كنتُ أحتاج إلى أيِّ شيء. منشفةٌ نظيفة؟ لقد انتهَت حصَّةُ الفندق من الماء السَّاخن لليوم. من الواضح أنِّي نمتُ بملابسي ، وأرى أنَّها تدقِّقُ النَّظرَ فيّ. ألاحظُ أيضًا أنَّها تتفحَّص الغرفةَ بعينيْها. صندوقُ العِدَّة مفتوحٌ على طاولة السرير ، بَيْد أنَّ نظرتها تتجمَّد على الباب المفكوك الذي يستندُ إلى خزانة الملابس.

أنهضُ ، وأخبرها بأنِّي سأصلِّح الباب.

«سأعتني بالأمر» ، أجل. هذا ما قُلته بالضبط.

تنظرُ إليَّ ، بينما أجلبُ المثقابَ وعلبةَ البراغي. تقول لي إنَّ أخاها أخبرها بأنَّني في إجازة. أشعرُ بنبرة سؤالٍ في كلامها ، ولاسيَّما في المقطع الأخير عن الإجازة. تنظُر إليَّ ، منتظرةً أن أجيب.

«أجل ، هذا صحيح ، أنا في إجازة».

«لا تحملُ الكثيرَ من الأمتعة ، يا سيِّدي؟»

أوضِّحُ لها أنَّ مدَّة رحلتي قصيرة.

«لن أطيلَ البقاء» ، أقول.

والواقع أنَّه كُتِب بالأبيض والأسود على إيصال الحجز أنِّي سأظلُّ أسبوعًا واحدًا.

أنتبهُ إلى الفضول في ملامح وجهها ، وأتوقَّع أن تسألني عن سبب إحضار مثقابٍ في فترة إجازة. لكنَّها لا تسأل ، بل تكتفي بتكرار ما قالهُ شقيقُها في اليوم السَّابق: أنَّ من

الغريب نوعًا ما ألَّا يستقبل الفندق أيَّ زائرٍ منذ عدَّة شهور ، ثمَّ أن يصِلَ إليه فجأةً ثلاثةُ زوَّارٍ في الأسبوع نفسه.

«نأملُ أن تستمرَّ الهدنة ، وأن يعود السيَّاحُ إلى زيارتنا مرَّةً أخرى. نحن بحاجةٍ إلى النقود» ، تُضيف.

تقفُ مُتفرِّجةً عليَّ ، بينما أعيد تركيبَ الباب في مكانه. ينتهي الأمر سريعًا. تتفحَّصُ البابَ بيدٍ واحدة ، ثمَّ تشكرني بحماس.

القميصُ الذي كنت أرتديه حينما وصلتُ إلى هنا مُعلَّقٌ على علَّاقةٍ خشبيَّةٍ داخل خزانة الملابس.

الباب مفتوحٌ على الممرّ. بُعيدَ لحظات ، يظهَرُ كائنٌ قصير. إنَّه صبيّ. ينطلقُ بسرعةٍ بجانب المرأة ، وأرى منشفةً معقودةً حول كتفَيْه ، يبدو أنَّه يستخدمها رداءَ حمَّامٍ. يدور دورةً واحدةً حول الغرفة ، قبل أن يخرج ويختفي من جديدٍ في أسفل الممر.

أشعرُ باضطرابِها. تقولُ للصبيّ شيئًا ، بينما يُحدِث صوتًا أشبه بأزيز.

«إنَّه يطير» ، تقولُ معتذرةً. «لا يلعبُ مع الأطفال الآخرين».

أيمكنُ أن يكون طفلَها ، وقد أحضرَتهُ إلى العمل ؟ عندما يحينُ الوقت . بمجرَّد أن أختار اليوم . سأطلبُ منها ألَّا تُحضِر الصبيّ. ولنقلْ الثلاثاء من الأسبوع المقبل. بمقدوري هنا والآن أن أقرِّر ، وإنّي سأفعلُها الثلاثاءَ من الأسبوع المقبل.

أغتنمُ الفرصة ، وأسألُها مباشرةً:

«ابنُك ؟»

تومئ برأسها ، وتخبرني بأنَّ روضةَ الأطفال لا تزال مغلقةً ، لكنْ ينبغي أن يذهب إلى المدرسة بحلول فصل الخريف.

«في حالِ انتهائهم من إصلاح المبنى» ، تقول ، ثمَّ تضيف أنَّها لا تستطيع تحمُّلَ فكرة تركِ ابنها في المنزل بمفرده ، ولا السماح له باللَّعب في الخارج ، لأنَّه قد يتجوَّل في إحدى مناطق الألغام الأرضيَّة ، إذ يمكن العثورُ على بعضٍ من تلك الألغام في ساحات اللَّعب وملاعب كرة القدم.

لا يُدير الشقيقان فندقَ الصمت فحسب ، بل يتولَّيان رعايةَ طفلٍ أيضًا.

«لقد جئنا إلى هنا قُبيْل انتهاء الحرب» ، تستأنفُ كلامها. هنا المحطَّة الأخيرة. لا شيء بعد هذه المدينة سوى المحيط ، كما تقول. وأثناء حديثها ، تُحاول أن تفتح بابَ خزانة الملابس وتُغلقه عدَّة مرَّات.

«هذا إنْ كان يمكن الحديثُ عن الاستقرار في مكانٍ ما» ، تقول كأنَّها تتحدَّث إلى باب الخزانة.

«وهل تمتلكان أنتِ وشقيقُكِ هذا الفندق ؟»

تُبدي تردُّدًا.

«كلَّا ، إنَّه لعمَّتنا. وقد غادرَتِ البلادَ في الواقع. بإمكانك القول إنَّنا نتولَّى إدارتَه بالنيابة عنها».

توشكُ أن تضيف شيئًا آخر ، لكنَّها تتراجع.

أشعرُ بحاجةٍ إلى فهم الوضع تمامًا:

«وتعيشين هنا مع الصبيّ ، أنتِ وشقيقك ؟ في الفندق ؟

تومئ برأسها ، وتقول إنَّها تنتظرُ استلامَ شقَّةٍ في المدينة. لقد لحِقَت الأضرارُ بالمنزل الذي تنوي الانتقالَ إليه .برفقة ابنها وشقيقها وبعض النسوة الأخريات .ولم يَعُد فيه ماءٌ أو كهرباء.

«في هذه الأثناء ، نعيش هنا» ، تقول قبل أن تختفي في الحمَّام ، حيثُ تضعُ بعضَ المناشف. أسمعُ صوتَ إدارة صنبور الماء.

«الماء نظيف» ، تقولُ بدهشةٍ ، بينما تقف في مدخل الغرفة.

«لم يَعُدْ فيه رمل» ، تضيف.

«لقد نظَّفتُ الأنابيب».

أسمعُ صوتَ فتح صنبور الدشّ.

«الدشُّ يعمل أيضًا ، والماء ساخن» ، تقولُ من داخل الحمَّام.

تبدو عليها ملامحُ الذهول.

«أجل ، كان عليَّ فقط أن أفكَّ رأسَ الدشّ ، وأمسحَ ما فيه من رملٍ وطين».

ثمَّ تذهب فجأةً إلى النافذة ، وتفتحُ الستارة.

«عندما كنَّا صغارًا ، أنا وأخي ، اعتدنا المجيءَ إلى هنا لقضاء أيَّام العطل» ، أسمعُها تقول.

تقفُ صامتةً بجانب النافذة برهةً ، ثمَّ تلتفتُ إليَّ.

«هناك»، تقول، مشيرةً بإصبعها إلى خارج النافذة. «عند ذلك الحائط، أُردِيَ أناسٌ بالرصاص. كان هناك مَخبزٌ بجواره، وكان من الصعب تجنُّبُ تلك الناصية».

أقتربُ من النافذة.

«هناك؟»

«أجل. لا تزال الثقوبُ التي خلَّفها الرصاصُ واضحةً على الجدار. أينما شَكَّل الناسُ مجموعةً أو طابورًا، صاروا عرضةً لخطر القتل رميًا بالرصاص». ثمَّ تخبرني بأنَّ هناك معاركَ وقعتْ بين الأحياء، ثمَّ فُرِضَتْ حالةُ حِصار، فعُزِلَتْ بعض المناطق لأشهرٍ متتالية.

«لقد نجا الناس بفضل إيصال الطعام عبر نفق»، تضيف.

أفكِّر في ما سمعتُه. وإذ أنظر عبر النافذة، أدركُ مدى صعوبة اكتشاف الموضع الذي قد يتمركزُ فيه القنَّاص.

تصمتُ برهةً، قبل أن تستأنف:

«ثمَّة نظريَّاتٌ عديدةٌ عن هويَّة مُطلِق الرصاص». تُبدي تردُّدًا، ثمَّ تلتفت إلى الوراء في ريبةٍ، وكأنَّها تحاول التأكُّد من أنْ لا أحد يقف عند الباب.

أو ربَّما كانت تتحقَّق من وجود الصبيّ.

«سمعتُ أنَّه كان أحد أعضاء الجوقة»، تقول، وتُعدِّلُ وضعيَّة ربطة شعرها.

مدفونٌ أنا، في كلِّ أرجاء المدينة

بعيدًا عن إصلاح باب خزانة الملابس، فليس هناك مهامٌّ أخرى على جدول أعمال اليوم. لا أحدَ يدري عنّي شيئًا، ولا أحد يتوقَّعُني. أعلم أنَّ أمّي، وراء المحيط البارد، تستمعُ إلى قصَّةٍ ما بعد الظهيرة عبر المذياع، وتتناولُ پودنغ الراوند مع القشدة، لكنْ لا أحد ينتظرُ منّي شيئًا. لم أقعد عن العمل طوال ستَّة وعشرين عامًا. فماذا عليَّ أن أفعل لستَّة أيَّامٍ كاملة؟ وباستثناء سبع ساعاتٍ للنوم، يبقى أمامي أن أملأ سبع عشرة ساعةً كلَّ يوم.

لو أنَّ أمّي هنا، لأجابت على الفور: «سبع عشرة ساعة، مضروبةٌ بستَّة أيَّام، تساوي مئة ساعةٍ وساعتَيْن».

يعني هذا أنَّ هذا النجمة الساطعة سترتفعُ فوق أفقِ الأرض ستَّ مرَّاتٍ أخرى.

هل لا يزال هناك ما أريد أن أفعلَه؟

بمقدوري أن أشاهد معالم المدينة، خصوصًا أنَّني قد كرَّرتُ الزعم عشرَ مرَّاتٍ حتَّى الآن أنّي في إجازة. أيُّ كنيسةٍ، أو متحفٍ، أو موقعٍ أثريٍّ، عليَّ أن أزور؟

بالأمس، لم يتذكَّر الأخ عند مكتب الاستقبال وجودَ لوحةٍ فسيفسائيَّةٍ أو آثار أخرى، لعلَّه يتذكَّرُها اليوم!

أقرَعُ الجرس مرَّتيْن، ويستلزم الأمر عشر دقائق كي يَظهر الشابّ. وعندما يأتي أخيرًا، أراهُ مشغولًا بتزرير قميصه الأبيض. ألاحظُ أنَّه يرتدي بنطالًا وحذاءً رياضيَّيْن، وثمَّة غبارٌ وجُسيْمات رماديَّة في شعرِه على غرار آثار الجصّ أو المِلاط، وكأنَّه كان يعمل بالإسمنت.

ثمَّة سمَّاعاتُ أذنيْن حول رقبته ، لكنَّه يخلعها ويضعُها على المكتب ، من دون أن يوقِف غناءَ لورد(9) الذي ينبعث منها.

أسألُه مرَّةً أخرى عن اللَّوحة الفسيفسائيَّة:

«هل عرفتَ أيَّ شيءٍ عن اللَّوحة ؟ أو الآثار ؟»

«كلَّا ، للأسف» ، يقول. «يستغرقُ الأمر وقتًا طويلًا ، لكنَّني أعملُ على ذلك».

أُعطيه المزيد من الأدلَّة ، وأقول له إنَّ الجدارَ ، وفقًا للمعلومات التي وجدتُها عبر شبكة الإنترنت . في موقع فندق الصمت ، كي أكون أكثر تحديدًا . مقسومٌ إلى قسمَيْن. يعود القسم الأوَّل إلى العصور الكلاسيكيَّة القديمة ، في حين أنَّ الثاني أحدث ، ويرتبط بالمنتجع الصحِّيّ الذي يُروَّج له كخدمةٍ من خدمات الفندق.

«لا يمكنك أن تعتمد على كلِّ ما تراه عبر الإنترنت» ، يقول الشابّ. «وبالإضافة إلى ذلك ، فأنت تتحدَّث عن أمورٍ كانت قبل الحرب» ، يستأنُف موضِّحًا. «لقد تغيَّرتْ أشياءُ كثيرةٌ منذ ذلك الوقت». ثمَّ يشكرُني ، لأنَّني ذكَّرتُه بتحديث الموقع الإلكترونيِّ للفندق.

«سأواصلُ الاستفسار ، وسأُعْلِمُك في حالِ عثوري على أيِّ شيءٍ في هذا الصدد» ، يضيفُ ، بينما راح يصبُّ اهتمامه على تسوية رزمةٍ من الخرائط المتناثرة على المنضدة.

يسألني بعد ذلك عن وجهتي.

«خارجٌ كي أتمشّى».

وبسرعة البرق، يسحبُ خريطةً للمدينة، ويَشرعُ في تكرار توجيهات الأمس بشأن الأماكن التي يجب ألَّا تطأَها قدماي، إلَّا إنْ كنتُ راغبًا في التحوُّل إلى جذعٍ مبتور؛ ليس هنا، وبالتأكيد ليس هنا. ومرَّةً أخرى، يُحذِّرني من المناطق المهجورة.

يختتمُ حديثَه بالقول: «تسطع الشمسُ أيضًا على أسطحُ القبور»، ثمَّ يطوي الخريطةَ مرَّةً أخرى. ولأنَّني نمتُ طوال فترة تقديم وجبة الفطور، فإنَّه ينصحُني بالذهاب إلى المطعم الوحيد الذي لا تزال أبوابه مفتوحةً، في آخر الشارع. وقال إنَّ في إمكانه، لو شئتُ ذلك، أن يتَّصل بمالك المطعم ويخبرَهُ بأن يتوقَّع مجيئي. وعلى هذا النحو، أستطيع التأكُّد من أنَّه سيطهو لي طعامًا ما.

أدركُ، على حين غرَّةٍ، أنَّه لو كان لي ولدٌ لكان هذا الشابُّ في مثل سنِّه؛ ذلك لو كنتُ قادرًا على غرسِ الحياة في كائنٍ حيٍّ آخر!

أنت، يا مَن أراهُ صُدفةً

ها أنذا أنزلُ إلى الأرض.

حرفيًّا.

أفتحُ خريطةَ ساحة المدينة. الرِّيحُ ساكنة، والطقسُ دافئ، والهواءُ ذهبيٌّ بسبب الغبار. في الساحة سربٌ من الحمامات الرَّماديَّة. أتذكَّرُ ما قالهُ سائقُ سيَّارة الأُجرة البارحة: «حتَّى الطيور اختفت أثناء الحرب».

من الممكن سماعُ آليَّاتٍ في البعيد ، وهناك بعض أعمال بناءٍ في المدينة. أتسكَّعُ في أزقَّةٍ ضيّقة ، وأشعر بأنّي أدورُ عند الناصية نفسها في كلِّ مرَّة. ما زالت بعضُ المنازل سليمةً ، لكنْ يبدو من منازل أخرى أنَّ أصحابها قد هجروها علىعَجل. ليس هناك الكثير من الناس في الجوار ، لكنَّ الغريب هو أنَّ وجوهَ العديد منهم مألوفة. هناك امرأةٌ تشبهُ شقيقة زوجتي السَّابقة ، شقيقةَ غوردون. ولوهلةٍ ، ظننتُ أنّي لمحتُ ظهرَ سفانور. أُمعنُ النَّظرَ في الناس ، بَيْدَ أنَّهم لا يلتفتون إليَّ. لقد فقدَ الكثيرُ منهم ذراعًا ، أو ساقًا ، أو أجزاءَ أخرى من أجسادهم ؛ تلك الأجزاء التي يمتلك الإنسانُ زوجًا منها في العادة.

ثمَّ أتذكَّرُ عندما سألتني غوردون ، من دون سابق إنذارٍ ، إنْ كنتُ سأتبرَّعَ لها بكِلْيةٍ عند الضرورة. أجبتُ بنعم ، وسألتُها إنْ كانت مريضة ، فنفت. فكَّرتُ حينها ، ماذا لو سألتني عن قلبي ؟ هل كنتُ لأقول لها إنّي سأُعطيها ، بكلِّ سرورٍ ، أيَّ شيءٍ أملك منه زوْجًا على الأقلّ ؟

«تلك هي الأسئلة التي تطرحُها النساء» ، هذا ما كان سفانور ليقوله. «في إشارةٍ إلى أنَّهنَّ يضعنك على محكِّ الاختبار».

أخيرًا ، لا بدَّ لي من الوصول إلى الجدار المليء بثقوب الرصاص. وبالفعل ، أصِلُ إلى الجدار المقابل لنافذة غرفتي في الفندق ، وأتفحَّصهُ عن قرب ، سائرًا على خُطى الأشخاص الغافلين الذين أُطلق الرصاصُ عليهم في وقت الظهيرة ، أو في ليلةٍ مُضاءةٍ بالنجوم. أمسحُ الحجر الفاتر للجدار ، وأُدخِل أصابعي في الثقوب التي أحدثها الرصاص.

«يحلُم الناسُ أحلامًا بسيطة» ، كان سفانور ليقول لو كان هنا. «كأن يتجنَّبوا التَّعرُّضَ لإطلاق النار بلا جدوى ، أملًا أن يتذكَّرهُم أطفالُهم». وبالنَّظر إلى كثافة الثقوب ، فإنَّه لا يبدو مُستغربًا أنَّ عمليَّات إعدامٍ قد حدثتْ هنا. لكنّ سائق سيَّارة الأجرة قال إنَّهم كانوا يُنفِّذونها في ملاعب كرة القدم.

يقعُ الفندق في خطِّ بصَري مباشرةً ، وعندما أركِّزُ النظر على الطابق الثاني ، حيثُ تقع نافذةُ غرفة نومي ، أشعر لوهلةٍ بأنَّ شخصًا ما يقف وراء الزجاج ويُراقبني ، شخصًا يشعل الضوءَ ويطفئه بالسرعة نفسها تقريبًا ، كما لو أنَّه يلعب بالمفتاح ، أو يرسلُ إلى المدينة رسالةً مهمَّةً بواسطة شفرةِ مورس ، مفادُها: كفى لعبًا. كفى قنابل. كفى تنزُّهًا.

الوقتُ مليءٌ بقططٍ ميّتة

لأنَّني لن أموت اليوم ، فأنا في حاجةٍ إلى تناول الطعام.

ليسَ من الصعب العثورُ على مطعم ليمبو ، الذي حدَّد الشابُّ لي موقَعه على الخريطة. يقعُ المطعم على الشارع الرَّئيس ما بين صالون تصفيف الشعر في المدينة ، وهو مُغلقٌ . ويَظْهرُ عبر نافذته كرسيَّان لتصفيف الشعر ، وصورةٌ كبيرةٌ لصوفيا لورين .ومتجرٍ لملابس الأطفال ، وهو مغلقٌ أيضًا ، على غرار معظم المتاجر الأخرى في الشارع. أحاولُ أن أفكَّ الرموزَ المرسومةَ على النوافذ ، لعلِّي أفهمُ ما كان يسكنُ مبانيها ذاتَ يوم! أقرأُ بعضَ الأسماء التجاريَّة العالميَّة ، وأميِّزُ مُلصقًا لعلامةٍ تجاريَّةٍ معروفةٍ مُعلَّقًا وراء نافذة متجرٍ مقفل: « الحياةُ قصيرة ، فلنشترِ الجينز». قبالةَ المطعم ، ثمَّة متجرٌ آخر لملابس الأطفال ، وبجوارِه لافتةٌ كُتِب فيها «بيتزا ڤيرونا» ، وأخرى «مقهى أمستردام» ، والمكانان

مهجوران ومقفلان. في الطريق ، أمرُّ بجانب سينما مُغلقة ، وقد عُلِّق في مدخلها ، على شاشة عرضٍ مكسورة ، مُلصقٌ فيه صورةٌ لبروس ويليس ، بعضلات ذراعيْن مفتولة ، وآثارِ سخامٍ على جبينه.

الستائر الحمراء لنوافذ مطعم ليمبو مُسدلة ، لذا يستحيل أن أرى ما بداخله. لكنْ سرعان ما يُفتَح الباب على مصراعيْه ما إنْ أقترب منه.

يُخبرني الرجلُ الذي يرافقني إلى طاولةٍ بجوار النافذة بأنَّهم تلقُّوا اتِّصالًا من الفندق بشأن مجيئي إليهم ؛ ولهذا ، فإنَّ «طبق اليوم» قيد التَّحضير بالفعل.

يضعُ أمامي ورقةً كُتِب عليها بخطِّ اليد «طبقُ اليوم» ، من دون أيّ توضيحاتٍ أخرى ، بالإضافة إلى ثمنها الزهيد جدًّا. أُدركُ أنَّ في مقدوري العيش في هذه البلاد لأسابيع عديدة ، من دون أن أتجاوز الأموالَ التي بدَّلتُها بعملةٍ محلِّيَّةٍ في المطار.

«جيِّد جدًّا» ، يقول الرجل.

يضعُ على المنضدة شوكةً وكأسًا ومنديلًا قماشيًّا ، ثمَّ يجلب لي زجاجةَ بيرة. أقرأُ على ملصق الزجاجة كلمة «نبتونس»(10).

أنا الزبون الوحيد في المكان.

«لن يخيبَ ظنُّك» ، يضيف. «نحنُ مُتخصِّصون».

أنتظرُ نصفَ ساعةٍ ريثما يأتي الطعام. وخلال ذلك الوقت ، يتحدَّث إليَّ الرجلُ الذي يرتدي مئزرَ الطبخ ، ويضعُ منشفةَ صحونٍ على كتفه. يريدُ أن يعرف سببَ زيارتي للمدينة. وعلى غرار سائق سيَّارة الأجرة ، يسألني إنْ كنت قد جئتُ في مهمَّةٍ خاصَّة.

أخبرُه أنّي في إجازة ، وأضغطُ بإصبعي على نقطةٍ في خريطة المدينة التي بسطتُها على الطاولة.

يريدُ أن يعرف من أيّ مكانٍ أتيتُ ، وما إذا وقعَتْ أيُّ حروبٍ هناك في الآونة الأخيرة.

«لم تقع أيُّ حروبٍ منذ سنة ١٩٣٨» ، أقول.

«إذًا ، أنت لم تُشاركْ في الغارات الجوّيَّة».

«كلَّا ، لا جيشَ في بلادي».

ثمَّ يقول إنَّه علِم أنّي أصلحتُ بابَ خزانة الملابس في الفندق صباحَ هذا اليوم.

«يبدو أنَّ هذا النوع من الأخبار ينتشرُ سريعًا» ، أقول ، وألاحظُ أنَّه يرتدي حذاءً أنيقًا أسودَ اللَّون ومُلمَّعًا بإتقان ، على غرارِ ما يرتديه العديدُ من الرجال الذين رأيتُهم في الطريق إلى هنا.

لا ينتظرُ منّي أيَّ تأكيدٍ ، لكنَّه يُعلِمني بما سبق أن أخبرَني إيَّاهُ الشابُّ في مكتب الاستقبال: أنَّ العمَّة تمتلك الفندق ، وأنَّ الشقيقيْن يُديرانه ، وأنَّها ـ أي العمَّة ، بحسب قوله ـ أرملةٌ ورِثت الفندقَ عن أحدِ أقاربِ زوجِها ، وأنَّها رحلتْ عن البلاد.

«مات أناسٌ كثيرون في الحرب. ولهذا ، فليس واضحًا دومًا مَن يملكُ ماذا».

أنتبهُ إلى وجود هِرٍّ مُكوَّرٍ في زاوية الصالة. إنَّه أوَّل مخلوقٍ ذي أربع قوائم أشاهدُه منذ أن وصلتُ إلى هذه المدينة. يذهبُ الرجل لإحضار طعامي ، وعندها ينهضُ الهرُّ ويلفُّ نفسَه حول قدميَّ. وعندما أنحني كي أداعبَه ، ينتابني شعورٌ بأنّي قد رأيتُ هذا الهرَّ الرماديَّ المُخطَّط ذا الأنف الأسود في مكانٍ ما من قبل. إنَّه يشبهُ قطَّةً كنتُ أداعِبُها

أحيانًا في الطريق إلى منزلي؛ ثمَّة شبهٌ كبير: البُنية نفسها، والفراء نفسُه، والذيل المنفوش نفسُه.

«لم تبقَ حيواناتٌ كثيرةٌ في المدينة عندما انتهت الحرب»، يقول صاحبُ المطعم عندما يعود، مشيرًا برأسِه إلى الهرّ. ثمَّ يضيف: «لا يختلفُ هذا اللَّحمُ عن لحم الأرنب».

يضعُ الطبقَ على الطاولة أمامي. وعلى الرَّغم من الظلمة الحالكة داخل المطعم، فإنَّني أميِّزُ من شكل الشواء وبُنيَته العظميَّة أنَّه لحمُ حيوانٍ صغير. يذهبُ الرجلُ مرَّةً أخرى كي يجلب سكِّينًا، ثمَّ يعود وفي يده مديةٌ حادَّةٌ جدًّا، ويُدير المقبضَ باتِّجاهي ليعطيني إيَّاها.

بالسُّهولة نفسها، يمكنُ استخدامُ المدية في تقطيع الخبز، أو في نَحْرِ عنق! أقول لنفسي.

لستُ رجلًا صعبَ الإرضاء حين يتعلَّق الأمر بالطعام، وآكلُ أيَّ شيءٍ يُقدَّم إليَّ عندما أكون جائعًا.

اعتدتُ في بعض الأحيان أن أشتري النقانق في طريق العودة إلى المنزل من العمل، فضلًا عن أنِّي لا أطهو وجبات طعامٍ مُتقنة، لكنَّني بالأحرى أشتري شرائح اللَّحم المجمَّدة مع قطع الخبز، وأقليها بعد إضافة البهارات؛ ثمَّ أتناولها من المقلاة مُباشرةً، واقفًا أمام الفرن، ما إن تَجْهَزَ.

يخطر في بالي أنَّ هذه الوجبة ربَّما كانت لحمَ طير، وأحاولُ أن أتذكَّر أنواعَ الطيور المهاجرة التي تتوقَّف في هذه المنطقة، قبل أن تتابع رحلتَها عبر المحيط الرماديِّ هائج

الموج ، من أجل أن تبني عشًّا على مرجٍ أخضر في جزيرةٍ ربيعيَّةٍ مشمسة. يُراقبني صاحبُ المطعم ، الذي تمركز عند حافَّة الطاولة ، بينما أنزع العظمَ من الوجبة ، مؤكِّدًا ما فكَّرتُ به.

«حمامة» ، يقول.

يبدو كلُّ شيءٍ منطقيًّا الآن ؛ لقد حصل من الشارع على محتويات قائمة الطعام.

«لم تكن بيضاء ، في الواقع» ، يُضيف. «ليست لدينا كلُّ المكوِّنات التي نريدها».

أتفاجأ بالوجبة التي يتَّضح لي أنَّها لذيذة.

أسألُه عن التوابل ، فتنفرجُ أساريرُه لهذا الاهتمام.

«الكمُّون» ، يُجيب. «جيِّد جدًّا ؟» يقول ، ويومئ برأسِه في الوقت ذاته ، مشيرًا إلى أنَّ كلامه هذا سؤالٌ وجواب في آن. كان من المفترض أن تتضمَّن هذه الوجبةُ الفطرَ ، بَيْد أنَّهم حذفوه من قائمة الطعام ، لأنَّ التقاطَه غايةٌ في الخطورة.

يقفُ صاحبُ المطعم بجواري منتظِرًا أن أضع أدوات المائدة بجانب ما تبقَّى من هيكل الطائر ، وذلك من أجل أن يأخذ الطبق. يهرولُ إلى المطبخ ، ثمَّ يعود سريعًا وقد جلبَ معه القهوة. يضعُ على الطاولة فنجانيْن وقدَحيْن ، ثمَّ يسحبُ كرسيًّا من الطاولة المجاورة ، ويجلس أمامي لتبادل أطراف الحديث. القهوة قويَّة ، والشنابس(11) أيضًا ، وكلاهما لذيذان. وعلى الرَّغم من أنْ لا أحد سوانا في المطعم ، إلَّا أنَّه يلقي نظرةً خاطفةً إلى الوراء ، ثمَّ يقول بصوتٍ خفيضٍ إنَّه سمعَ أنَّني سافرتُ إلى هُنا وبحوزتي مِثقاب.

«أجل ، وسمعنا أنَّك تفحَّصتَ الأنابيبَ في فندق الصمت».

لا أسأله مَن يقصدُ بـ «سمعنا».

«كلَّا ، الحقيقة أنّي» ، يقولُ ، وينهي قهوته ثمّ يغبُّ القدحَ حتَّى آخر قطرةٍ فيه دفعةً واحدة ، «أريدُ أن أسألكَ إنْ كان بمقدورك مساعدتي في صنعِ باب».

أقولُ له إنّي في إجازة .وهي المرَّة الثالثة التي أذكرُ فيها هذا الأمر.

يواصلُ الرجلُ حديثَه من دون أن يلتفتَ إلى ما قلتُه ، قائلًا إنَّه يريدُ إحداثَ تغييراتٍ على مدخل المطعم ، وذلك بتركيب بابٍ بمفصَّلاتٍ تسمحُ بفتحه في الاتِّجاهيْن كليْهما.

«وهكذا ، سيكون من الممكن رؤيةُ من سيدخُل» ، يُضيف.

وقبل أن أتمكَّن من تقديم أيِّ أعذار ، يَسحبُ ورقةً مطويَّةً من جيب سترته ، ثمَّ يفتحها ويسوِّيها برفقٍ براحة يده. يضعُها على الطاولة أمامي.

«أبوابٌ مجنَّحة ، متأرجحة» ، يقول ، مشيرًا إلى ما رسمَهُ بقلم رصاصٍ ومن دون خبرة. بناءً على الرسم ، تتوضَّعُ الأبوابُ ، مُقوَّسة الشكل ، على مفصَّلات. كما يبدو أنَّه بذلَ جهدًا كبيرًا في رسم الانحناءات ، ولم يُفرِط في استخدام الممحاة.

«أجل ، على غرار أبواب الغرب الأميركيِّ القديم» ، أقول.

يرتسمُ ، على وجه الرجل الذي يجلسُ أمامي ، تعبيرٌ مفادُه أنَّه التقى أخيرًا الشخصَ الذي يفهمه. يومئ برأسه.

«تمامًا! جون ويْن. الذي لا يُقهر».

أخبرهُ بأنَّني لست نجَّارًا ، وأنَّه ليست لديَّ الأدوات المناسبة. ثمَّ أهمُّ بالنهوض.

«لا مشكلة» ، يجيب. «أنت رجلٌ بارع ، وسأعمل على تأمين الأدوات التي تحتاجُها».

يهزُّ رأسه عندما أُخرجُ محفظتي من أجل أن أدفع الحساب. وبدلًا من ذلك ، يسألُني إنْ في وسعي إلقاءُ نظرةٍ على أنابيبه ، في المطبخ.

«لاحقًا» ، أقول.

«أجل ، في المرَّة القادمة» ، يقول.

يتبعُني إلى الباب ، وكذلك يفعلُ الهرُّ الذي نهض من مكانه حين نهضتُ. ألاحظُ حينها أنَّ إحدى عينَي الهرِّ مغمضة ؛ أنَّه هرٌّ أعور. أنحني كي أمسِّدَ وبرَه.

«لطالما عمَّرَتِ القططُ أكثرَ من البشر» ، يقول. « إن لم يكن قطّك ، فسيكون قطَّ شخصٍ آخر».

يقفُ الرجل عند مدخل المطعم ، ويشيرُ إلى لافتةٍ أمام نافذةٍ مُعتمةٍ على الطرف الآخر من الطريق. لقد لاحظتُ لافتاتٍ مماثلةً في جميع أنحاء المدينة: « غرفة مفروشة للإيجار».

«في معظم المنازل ، غرفٌ للإيجار من أجل السيَّاح. نأملُ أن تعود الأمورُ إلى طبيعتها. في ليلة أمس ، جاء الأجنبيُّ الآخر من الفندق لتناول الطعام هنا ؛ واليوم جئتَ أنتَ. ولهذا ، لدينا كلُّ الأسباب التي تدعونا إلى التفاؤل».

عندما أكون معك ، تنتابني رغبةٌ في أن أصير ذلك البطلَ

الذي كنت أحلم أن أكونَه

حين كنتُ في السابعة ؛ رجلًا مِثاليًّا يُمارس القتل

أعود إلى الفندق ، وأرى النجمةَ السينمائيَّةَ واقفةً أمام مكتب الاستقبال ، تتحدَّث إلى الموظَّف الشاب. يصمتان فجأةً ما إنْ أدخُل.

تلتفتُ إليَّ وتلقي التحيَّة.

يصعبُ عليَّ أن أوضِّح الأمر ، لكنَّني أشعر بحاجةٍ مُلحَّةٍ إلى لمسِ هذه المرأة ، أن أمرِّرَ يدي على أسفل ظهرها على نحوٍ يَنُوس بين مداعبة قطَّةٍ والمسحِ على جدارٍ مملَّسٍ حديثًا. يتبَعُ هذا الشعورَ شعورٌ آخر على الفور ، أشبهُ بالتطلُّع إلى طقسٍ هادئٍ أو ربيعٍ لا يأتي . ليس في التوقيت أو الصورة اللذيْن قد يتوقّعهما المرءُ على أيِّ حال.

«ما زلتُ أحاول معرفةَ أيَّ شيءٍ عن الجداريَّة الفسيفسائيَّة» ، يقول الشابُّ بعجالة. وسرعان ما يعود تركيزُه إلى المرأة. يُتمتم لها كلامًا بصوتٍ غير مسموع ، وأشعر بأنَّه يفسِّرُ لها شيئًا يتعلَّق بي ، لأنَّها تلتفتُ وتنظرُ إليَّ ، ثمَّ تومئ إليه برأسها موافقةً.

في الطريق إلى غرفتي ، عبر الممرّ ، أسمعُ شخصًا يناديني . رجلًا في مثل سنِّي ، يقفُ عند باب غرفته ، برداء نومٍ أبيض وجوربَيْن مُرقَّطيْن ، وبينهما ساقان ثخينتان كثيفتا الشعر ؛ ويتدلَّى حزامُ ثوب النوم على خصره بحرِّيَّةٍ تامَّة.

يحملُ زجاجةً تحتوي سائلًا أصفر فاتحًا في يدٍ ، والكوب الخاصَّ بفرشاة الأسنان في اليد الأخرى ، ويدعوني لاحتساء شرابٍ معه.

«كلَّا ، شكرًا لك» ، أقول ، ثمَّ أضيفُ بأنَّني في الطريق إلى غرفتي.

أُدركُ سريعًا أنَّ ما قلتُه لا يوحي أنَّني في صدد الذهاب في مهمَّةٍ ضروريَّة ، لأنَّ الرجل يقول: «هل أنتَ في عجلةٍ من أمرك ؟ في وسعنا أن نلعب جولةَ شطرنج. هل تعرفُ استراتيجيَّة طال (12) الهجوميَّة ؟»

يلوِّح بالزجاجة ، ويتقدَّم خطوةً في الممرِّ الضيِّق ، ثمَّ يستند بيدٍ واحدةٍ إلى الجدار المقابل ، مُعترِضًا بذلك طريقي تمامًا.

يخبرني بأنَّه سمع صوتَ مثقابٍ من الغرفة المجاورة ، واستنتج أنَّني أعمل في المبنى.

أقول له إنّي في إجازة.

يبتهجُ للأمر ، كما لو أنَّني أصبتُ كبدَ الحقيقة.

يعيدُ صياغةَ سؤالِه ، ويسألني عن الجهة التي أعمل لصالحها.

أفكِّرُ مليًّا في السؤال.

«لا أحد. بمفردي» ، أضيف.

«مَن أرسلَك ؟ ويليامز ؟»

«كلَّا».

«لا بدَّ من أنَّ لديك خطَّةَ عمل. لكلِّ شخصٍ خطَّة ، والتَّركيز هو كلُّ الأصل في العمل».

يخفضُ صوتَه وينظرُ حولَه. ينحني الممرُّ عند الزاوية ، وأظنُّ لوهلةٍ أنّي لمحتُ كائنًا صغيرًا قد اندفع سريعًا عند نهاية الممرّ ، وأنَّه عارٍ ؛ جسدٌ صغيرٌ شاحبٌ لا يلبث أن يتلاشى بسرعة البرق ، وكأنَّه عظاءةٌ تفرُّ من الضوء.

«لا أحد يأتي إلى هنا من غير مهمَّة. إنَّ أفضلَ الفرص تحدث الآن ؛ فالمجتمع ضعيف ، يفتقر إلى البنية ، وبمقدور المرء أن يُبرم صفقاتٍ جيِّدة. لي صديقٌ يشتري الأراضي والمباني».

أكادُ أسمع صوتَ أمِّي ، تقول: «الحربُ منجمُ ذهب».

يقفُ الرجل أمامي ، ويصبُّ بعضَ السَّائل من الزجاجة في كوب فرشاة الأسنان ، ثمّ يغبُّ ما فيهِ دفعةً واحدة.

أنسلُّ من وراء ظهره.

«لطالما شعرتُ بتوقٍ إلى قتلِ شخصٍ ما ، وذلك منذ أن كنتُ طفلًا» ، أسمعُه يقول.

«أمَّا الطريقة القانونيَّة الوحيدة لفعل ذلك ، فتتمثَّل في الالتحاق بالجيش. حينما بلغتُ التاسعةَ عشرة من عمري ، صار الحلم حقيقةً».

أتوقَّع منه أن يسألني إنْ كنتُ قد جرَّبتُ القتل. سأخبرُه إن فعل بأنَّني سبق أن اصطدتُ سمك السلمون المرقَّط.

لكنَّه ، يقول:

«عليكَ أن تُنشئ نظامًا لا يفهمه العدوّ. كذلك هي الحرب. كذلك هو الجَمال. هذا ما فكَّر به طالْ عندما قاد فريقَه نحو النصر ، عبر التَّضحية برجلٍ تلو الآخر».

ماي

بعد أن وضعتُ المفتاحَ في القفل وفتحتُ بابَ الغرفة ، كان أوَّل شيءٍ ألاحظُه بقعةً كبيرةً من الماء على الأرض ، والصبيَّ الذي يجلس على كرسيٍّ ، بجانبها ، ملفوفًا بمنشفةٍ تتدلَّى منها أصابعُ قدميْه. والدتُه منهمكةٌ في تغيير أغطية السرير ، بينما الشراشف مكوَّمة ، والوسادة على الأرض. ألاحظُ أنَّ شعرَها مُبلَّل. كما أعيدَ ترتيبُ أشيائي التسعة على الطاولة ، بخطٍّ مستقيمٍ على غرار قطار ، عربةٍ تلو أخرى. يراني الصبيّ ، فيغطِّي أذنيْه على الفور.

«أنا آسفة» ، كان ذلك أوَّل شيءٍ تقوله الفتاة. «بعد أن أصلحتَ الأنابيبَ ، بات دشُّ حمَّامك وحده صالحًا. إنَّ ضغط الماء الذي يصل إلى غرفتنا ضعيفٌ جدًّا. بضع قطراتٍ فقط. ولهذا انتهزتُ فرصةَ غيابك».

من الواضح ، أنَّها تقصد بكلمة «غرفتنا» غرفتها هي والصبيّ.

تقول إنَّ الصبيَّ هرب من الحمَّام ، ما يفسِّر بركة الماء على الأرض. بعد ذلك ، صعد آدم إلى السرير.

اسمُ الصبيِّ آدم ، إذًا.

«لقد كان في منتهى السَّعادة» ، تقول ، بينما تلتقطُ المناشفَ المبلَّلة.

يراقبنا الصبيّ ، لكنَّه ما زال يغطِّي أذنيْه بيدَيْه.

تعتذرُ مرَّةً أخرى ، وتقول إنَّه كان ينبغي أن تستأذنني. أخبرها أنْ لا داعي للقلق ، وبأنَّني سألقي نظرةً على الأنابيب في غرفتها.

تقول إنَّها كانت تنوي ، في الحقيقة ، أن تطرحَ عليَّ مسألة تبديل الغرف ، وأن أنتقل إلى الجانب الآخر من الممرّ ، وأنَّها .في الواقع .قد جهَّزت الغرفةَ لي بالفعل.

«على هذا النحو ، لن تعودَ مُضطرًّا إلى رؤية الشارع المليء بثقوب الرصاص ، بل ستكون غرفتُكَ مُطلَّةً على الشاطئ ، مثل غرفتنا أنا وآدم تمامًا».

العائق الوحيد هو الدشُّ في حمَّام الغرفة ، وتتساءل إنْ كان في وسعي إلقاءُ نظرةٍ على الأنابيب. «أن أرى ما المشكلة» ، على حدِّ تعبيرها.

تُغادر ، حاملةً بين ذراعيْها طفلَها الذي بدا وكأنَّه مُغلَّفٌ داخل المنشفة ، وتصعدُ به إلى غرفتهما في الطابق الأعلى ، ثمَّ لا تلبث أن تعود مرَّةً أخرى. أرى أنَّها لفَّت شعرَها على شكل كعكة ، وربطتها برباطٍ مطّاطيّ ، مثلما تفعلُ ووترليلي في بعض الأحيان.

أنتهي سريعًا من جمع مُمتلكاتي الدنيويَّة .أشيائي التسعة .وأتبعُها إلى غرفة النوم الجديدة.

كانت قد وضعَتْ شراشفَ نظيفةً على السَّرير ، وفتحت الستائر. تخبرُني بأنَّ فيفي ساعدها في نقل المكتب إلى الغرفة.

«أرى أنَّك تكتب» ، تضيف ، وتمعنُ النَّظر فيَّ على نحوٍ يشوبه الحذر.

أفترضُ أنَّ فيفي شقيقُها ، وأتصوَّر أنَّها تشيرُ إلى مذكَّراتي.

فوق السَّرير ، عُلِّقَتْ لوحةٌ لغابةٍ ، لا تختلف عن اللَّوحات المعلَّقة في الغرفة الأخرى وفي بهو الفندق: أغصان خضراء ، وظِلال خضراء ، وسماء مُخضرَّة. ألاحظ عمودًا من الضوء في وسط اللَّوحة ، وفهدًا يقفُ في منتصف الضوء.

أقتربُ أكثر كي أرى اللَّوحةَ جيّدًا.

«أجل ، هناك لوحةٌ في كلِّ غرفة» ، توضِّحُ لي ، وتضع نفسها أمام اللَّوحة.

أشعرُ بأنَّ يدًا واحدةً رسمَتْ تلك اللَّوحاتِ جميعًا ، إذ إنَّها كلَّها تحمل توقيعًا واحدًا: «أ.د» ، في زاويتها السفليَّة اليمنى. تقول إنَّها لا تعرف هويَّةَ الفنَّان ، لكنَّها سمعتْ أنَّه اختار الغابةَ المحلِّيَّةَ موضوعًا للوحاته.

«هنا ، قبل الحرب ، رسم الرسَّامون الأشجارَ ، وكتبَ الشعراءُ قصائدَهم عن الغابات العطِرة ، وعن أوراقِ الشجر الرَّقيقة التي يُسمع حفيفُها كلَّما هبَّت الريح» ، تقولُ على نحوٍ يخلو من أيِّ تعبير.

ثمَّ تأخذُ نَفَسًا عميقًا.

«أمَّا الآن ، فقد صارت هذه الغابة نفسُها مِصيدةً مُميتة. تملأها الألغامُ الأرضيَّة. ولا يرَى من يجرؤون على زيارتها أيَّ أوراقٍ تنمو على الأشجار. وبدلًا من جمع الحطب ، يُفضِّل الناسُ أن ينزعوا ألواحَ أرضيَّاتهم الخشبيَّة كي يدفِّئوا منازلهم».

تأخذ نَفَسًا آخر.

«ما الذي قد يدفع إنسانًا كي يغامر بالذهاب إلى الغابة ؟» أسمعُها تقول بصوتٍ خفيض.

«ليس من أجل جمع أكواز الصنوبر».

لغرفتي الجديدة شرفةٌ صغيرة ، وسلَّمٌ معدنيٌّ يشبه سلالمَ الطوارئ ، ويُفْضي إلى الفناء الخلفيِّ للفندق. تشيرُ إلى خارج النافذة ، وتقول إنَّ الحديقة نُظِّفتْ من الألغام ، لكنَّها تنصحُني بأن ألتزمَ الطريقَ إنْ أردتُ الذهابَ إلى الشاطئ.

«كان هُناك ميدانٌ للعبة الجولف فيما مضى ، بَيْد أنَّه حُفِر أثناء الحرب من أجل زراعة الخضراوات».

نقف عند النافذة متجاوريْن ، نراقبُ الغطاءَ النباتيَّ القاحل.

«أتذكَّرُ رائحةَ العشب قبل الحرب» ، تواصل كلامَها ، « وكلَّ أنواع التوت: العلّيق الأسود ، والعلّيق الأحمر ، والفراولة».

تُبدي تردُّدًا.

«ثمَّ حلَّت محلَّ ذلك كلِّه روائحُ حرقِ المطَّاط ، وتذويبِ المعادن ، والرَّماد ، والدم. وخصوصًا الدم».

تصمتُ برهةً ، ثمَّ تستأنف:

«كان الصيفُ الأوَّل من الحرب أكثرَ الفصول صعوبةً ، إذ كان ينبغي للشمس أن تشرق ، وللعصافير أن تغرِّد ، وللأزهار أن تنبت من الأرض الباردة ، وللقنابل أن تنفجر. لم يتوقَّع أحد ذلك».

لا أقولُ شيئًا.

«نأملُ أن يهطل المطر» ، تقول أخيرًا. «لم تُمطر منذ شهريْن ، والأرضُ عطشى».

يتملَّكُنا الصمتُ ، وتظلُّ واقفةً بجوار النافذة.

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

هل ينبغي أن أقول لهذه السيِّدة الشابَّة التي تحلمُ بسماع صوت طقطقة قطرات المطر على علبةٍ من الصفيح إنَّ شيئًا أخضر سينمو قريبًا هنا من جديد، مُنبعثًا من الرماد.. انتظري فقط وستريْن؟ حتَّى إنَّه بمقدوري أن أقتبس من «نشيد المُسرنَم» الذي قُتِل صاحبُه(13) رميًا بالرّصاص ودُفن في مكانٍ مجهول، وأن أقول لها إنَّ شيئًا أخضر سينمو هُنا: خضراءُ خضراء، أريدكِ خضراء. ألَن يزعجَها قولُ هذا؟ وبعدها أقول إنَّ الشاعر كان مؤمنًا أنَّ بلادًا أفضلَ تنتظرُنا، تشرقُ وراء حافَّة البحر. يخطر في بالي أيضًا أن أخبرَها بأنَّ عمّي، صاحبَ مزرعة الأغنام، وعمَّالَهُ، يحرقون العشبَ الذابلَ في كلِّ ربيعٍ، ويتركون الأرضَ المحروقة، بجذال الأشجار المتفحِّمة التي تنبثق منها كالأشواك، وتظلُّ تحترق ببطءٍ لأسابيعَ بعد أن تكون النيرانُ قد أتت على الطحالب والحشائش، لكنَّها تعود في نهاية المطاف لتُكسى من جديد، بعشبٍ غزيرٍ غايةٍ في الجمال والخضرة.

«لا نفهم سبب عدم حدوث أيّ ذوبان جليدٍ ربيعيٍّ هذه السنة»، أسمعُها تقول.

لقد ذكرَ سائقُ سيَّارة الأجرة الشيءَ ذاتَه.

«ننتظرُ المطر»، قالَ الرجل، بينما كان يُغيِّر وضعيَّةَ ذراع علبة السرعة باستخدام اليد التي يوجِّه بها المقود، فانحرفَت السيَّارةُ حينها إلى الجهة الأخرى من الطريق. «وعندما يبدأ المطرُ بالهطول»، واصل حديثَه، «سيرتفع منسوبُ ماء النهر قرابة ستَّة أمتار،

وسيفيضُ على الحقول التي دُفِنت الجثثُ فيها، وستطفو الهياكلُ العظميَّة بأزيائها الرَّسميَّة على وجه البحيرة سحيقة العمق. وحينها، سنستطيع أخيرًا أن ندفن موتانا».

فجأةً، تقتربُ منّي بيدٍ ممدودة. إنَّه وقت التعارف.

«ماي».

أبسطُ يدي أيضًا.

«يوناس».

صارت علاقتنا شخصيَّةً الآن.

وهذا يعني أنَّه لم يَعُد في وسعي أن أُثقِلَ كاهلَها بأن أقتُل نفسي أثناء فترة مُناوبتها.

آدم

تسكنُ الأمُ وابنُها في الغرفة الرَّابعة عشرة من الطابق الثاني. وعلى غرار غرف الفندق الأخرى، فإنَّها تحتوي على القليل من الأغراض الشخصيَّة، فضلًا عن بعض الألعاب. يرتدي الصبيُّ منامتَه، شعرُه مسرَّح، ويجلس إلى الطاولة، وفي يده تفاحةٌ يتناولها بعد أن قُطِّعَتْ إلى شرائح. يتظاهرُ بعدم رؤيتي.

على أرض الغرفة طابورٌ من رجالٍ بلاستيكيّين صغار، كان قد رتَّبهم واحدًا خلف الآخر، وجعل بين كلٍّ منهم مسافةً متساوية، على نحوٍ لا يختلف عن وضعيَّة أدواتي على الطاولة.

من الواضح أنَّ الأمَّ وابنَها يتشاركان السريرَ نفسَه ، إذ ترقد دميةُ أرنبٍ على وسادةٍ مُزَّينةٍ بصُوَرِ جِراءٍ.

«لقد فررنا من دون أيِّ ممتلكاتٍ تقريبًا. كنَّا نركض من مكانٍ إلى آخر» ، تقولُ لي عندما تراني أنظرُ في أرجاء الغرفة. « ولِد آدمُ حين بدأت الحرب ، ولم يحظَ بمنزلٍ على الإطلاق».

تتبعُني إلى الحمَّام ، وبيدها المفتاحُ الإنكليزيّ ، وتقف إلى جانبي بينما أشرعُ بتنظيف الأنابيب. لديَّ أيضًا لفَّةٌ من شريطٍ عازلٍ أسود ، أستخدُمها في إغلاق الأجزاء التي يتسرَّب منها الماء.

«هذا حلٌّ مؤقَّتٌ فحسب» ، أقول.

أثناء تنظيفي الأنابيبَ ، تُخبرني بأنَّها تخرَّجَتْ من كلِّيَّة المكتبات منذ فترةٍ قريبة ، عندما اندلعت الحرب ، وأنَّها عملتْ في قسم الأطفال في إحدى المكتبات.

«حاولنا أن نحيا حياةً طبيعيَّةً بين فترات هروبنا. وكنتُ أعمل في أيِّ وظيفةٍ أعثر عليها ، بينما اعتنى فيفي بآدم ، في تلك الأثناء. حصلتُ على أَجري في بعض الأحيان ، ولم أحصلْ عليه في أحيانٍ أخرى».

ما إنْ عاد لونُ الماء وضغطُه إلى حالتهما الطبيعيَّة ، حتَّى جلبت إليَّ مصباحَ السرير وأظهرتْ لي أسلاكه. تقول إنَّها بدَّلَت اللَّمبة ، لكنَّها لم تُضِئ ، وتتساءل إنْ كان سببُ العطل شيئًا آخر.

أرى على الفور أنَّ القابس يحتاج إلى تبديل.

تومئ برأسها ، وتتنهَّدُ بقلقٍ وحيرة.

«قد يكون من الصعب الحصولُ على قِطَعِ تبديل» ، تقول وهي تسوِّي خصلةً من شعرها. «المخازن خاليةٌ من البضائع. لا بُدَّ من أن تكون للمرء صِلاتُه» ، تضيف.

يتردَّدُ في ذاكرتي صدى الكلمات التي قالَها الرجلُ ذو الجوارب المرقَّطة في الممرّ: إذا كنتَ على صلةٍ بالأشخاص المناسبين ، فسيكون بمقدورك شراءُ أيِّ شيءٍ.

تقفُ أمامي فجأةً ، ويداها على وركَيْها ، وتسألُني عن معلوماتٍ أكثر تفصيلًا بشأن الغاية الحقيقيَّة من مجيئي إلى هُنا.

«ليس هناك ما يُقنع بصدد أنَّك هنا في إجازة» ، تقول. «ومعك مثقاب».

تنزعُ ربطةَ شعرِها ، ثمَّ تُعيدها بسرعةٍ كبيرة.

أبقى صامتًا. أجيدُ البقاء صامتًا.

«تقول أمِّي إنَّك لا تتكلَّم كثيرًا» ، تقول ووترليلي. ليس هذا صحيحًا تمامًا ، إذ كنتُ عكس ذلك في بدايات علاقتنا. تحدَّثتُ ، وكانت غ صامِتة ؛ هذا ما جاء في مُذكَّراتي حين كتبتُ عن نزهتنا في الجبال.

تنظرُ في عينيَّ من دون استسلام.

«ماذا تفعل هنا ؟»

أُبدي تردُّدًا ، وأمنعُ نفسي من تكرار القول إنّي في إجازة. أقول:

«لستُ متأكِّدًا».

تُمعن النَّظرَ فيَّ.

«هل جئت لتجمعَ شيئًا ما ؟ لتشتري شيئًا ما ؟»

«كلَّا».

«لتبيعَ شيئًا ما ؟»

«كلَّا. لا مخطَّطات لديَّ».

لا أستطيعُ أن أخبرَ هذه الشابَّة التي عانت الأهوالَ من أجل البقاء على قيد الحياة مع ابنها وشقيقِها الأصغر تحت زخَّات القنابل . في بلادٍ تتدفَّق فيها الدِّماءُ عبر مجاري الأنهار ، حيثُ مرَّت فِرَقُ القتل قُبيْل أسابيع ، وأفنَت الماءَ الذي استحال أحمرَ اللَّون . بأنَّني قطعتُ كلَّ هذه الطريق كي أقتلَ نفسي. لا أستطيعُ أن أشرحَ لهؤلاء الأشخاص أنَّني أحضرتُ معي صندوقَ العدَّة من أجل تركيب مشنقة ، وأنَّني أحمل المثقاب في سفري مثلما يحملُ المسافرون الآخرون فُرَش أسنانهم. لا أستطيعُ أن أخبرها .بعد كلِّ ما مرَّت به .أنَّني سأرهقُها وشقيقَها بمهمَّةِ إنزالي. إنَّ تعاستي ، في أحسن الأحوال ، تافهةٌ إذا ما قورِنت بما وراء هذه النافذة من خرابٍ ورماد!

ألا تدري ؟ تلكَ دموعُ الربيع ؛

دموعُ الربيع التي تتساقطُ على الرمال السوداء

أفتحُ بابَ الشرفة ما إنْ أعودُ وحيدًا. أواجه صعوبةً في ذلك بعض الشيء لأنَّ الغرفة لم تُدفَّأ منذ وقتٍ طويل ، ما أدَّى إلى تمدُّد الخشب. كان من الأفضل لو أنَّ لديَّ مِسحجًا لتنعيم الحواف ، بَيْد أنَّني أتدبَّر أمري ببضع أوراق صنفرةٍ كنتُ قد أحضرتُها معي. وفي تلك الأثناء ، أشدُّ البرغيَّيْن اللذيْن يُمسكان بقبضة الباب. أجدُ على الشرفة أصائصَ فيها

أزهارٌ ذابلة ، فأملأ كأسًا زجاجيَّةً بالماء وأسكبُها فوق الزرع. أكرِّر ذلك بما مجموعُه أربعُ مرَّاتٍ جيئةً وذهابًا.

البحرُ أقرب ممَّا توقَّعتُ ، وتنبعثُ منه رائحةٌ خفيفةٌ لفاكهةٍ شهيَّةٍ ناضجة. ليس من الضروريِّ أن أنظر طويلًا لأدرك أنَّ هذا البحر مختلفٌ كلِّيًّا عن المحيط الهائج الذي اعتدتُ رؤيتَه: فلا أمواج عاتية هنا ، مهيبة كدويِّ إغلاق بوَّاباتٍ حديديَّة ، ولا تلال بيضاء من الأمواج المتكسِّرة التي تجرُّ الحجارةَ وتبتلع القوارب. ما أشاهِدهُ أمامي من الشرفة إنَّما هو حوضُ سباحةٍ ضخمٌ ومالح ، أو مرآةٌ عائمة.

لا أكترثُ لنصيحةِ الالتزام بالمسار المحدَّد إلى الشاطئ المهجور ، لكنَّني ألاحظ في طريقي إليه أنَّ كوخَ حطب التدفئة شبهُ فارغ.

«لا أحد مُستعدٌّ لجمع الحطب» ، قالت الفتاة.

هل عليَّ أن أخوضَ البحر ؟

كم على المرء أن يسبحَ حتَّى يستنفد أنفاسَه ؟

يحوم طائرٌ فوقي.

دورةٌ أولى.

هل سينقضُّ عليَّ مُهاجمًا ؟

دورةٌ ثانية.

يحطّ. أنتبهُ إلى أنَّه يعرُج ، وأنَّه يواجه صعوبةً في الطيران من جديد. في بلاد الحرب والرماد ، لا تستثني الإصاباتُ الحيوانات ؛ كلابٌ تقفزُ على ثلاثة أطراف ، وقططٌ عوراء ، وطيورٌ بساقٍ واحدة.

أقفُ على الشاطئ ، وأتذكَّرُ على حين غرَّةٍ سربَ الحيتان الذي شاهدتُه برفقة غوردون ، حينما كنتُ أقود السيَّارةَ بجوار البحر. وقتَها جنحتْ خمسةُ حيتان ، أو ستَّة ، إلى الشاطئ ، وتقطَّعَتْ بها سبلُ العودة. أحضرنا المجارفَ من صندوق السيَّارة ، وحفرنا على حافَّة الماء حُفَرًا من أجل إبقاء الحيتان على قيد الحياة ، ودفْعِها إلى العوْم من جديد.

«هذا مهمّ» ، قالت حين عُدنا إلى السيَّارة ، «كي نتشارك الذكريات».

هل توقَّفنا عن النوم معًا منذ ذلك الوقت ؟

أنزعُ جواربي وأخلعُ حذائي ، وأقفُ في الوحل البارد ، إلى أن تتكوَّن بريكةٌ مالحةٌ حولي ، وتبدأ بابتلاعي. وعندما يصل الزبد إلى كاحليَّ ، أنصرفُ مُبتعدًا.

لو أنَّ المقارنة ممكنةٌ بين الاثنيْن: أنا والعالم

أعودُ إلى الغرفة ، ثمَّ أفتح الدشَّ وأخلع ملابسي .الملابسَ التي كنتُ أرتديها حين وصلت .وأقفُ عاريًا على الأرضيَّة الباردة. لم يَعُد لونُ الماء أحمر بعد أن أصلحتُ الأنابيب.

أمامي مرآة ، وفيها انعكاسٌ لملامح جسدِ ذكرٍ مجهولِ الهويَّة ، يحملُ زنبقةَ ماءٍ بيضاءَ على صدره ، فوق القلب ؛ مثل علامةٍ تجاريَّةٍ خُتِمتْ على شراعٍ ذي قماشٍ شاحب. لم أتأمَّل نفسي في المرآة منذ سنين طويلة ، ليس كلِّي على أيِّ حال. هل فعلتُ ذلك من

قبل؟ لم تكن المرايا في شقَّتي مناسبةً لرجلٍ طوله مترٌ وخمسةٌ وثمانون سنتيمترًا. كنتُ أستخدمُ مرآة الحمَّام من أجل الحلاقة، لا للنَّظر إلى نفسي.

لقد صار جسدُكَ نحيلًا، هذا ما كانت أمِّي لتقوله.

أنا مكشوف، يا للسخرية!

أتلمَّسُ عضلاتِ ذراعيَّ ومعدتي، بَيْد أنَّني أجدُ صعوبةً في أن أميِّزَ ما إذا كنتُ أنا الشخص الذي في المرآة أم الآخر!

لا يزال شعري كاملًا، مثلما أخبرَتني أمِّي ولم تُخطئ، كشعيْراتِ فرشاةٍ مصوَّبةٍ إلى الهواء. والشعر أبيض بشقِّ النفس.

أنا على جهةٍ، وجسدي على جهةٍ أخرى. وكلانا غريب.

هل ذهبنا معًا إلى المدرسة نفسها؟ هل التقيتُ هذا الرجل خلال الصيف الذي عملتُ فيه على تزفيت الطرق؟ هل نعرف بعضنا بعضًا؟ أهذا هو الشابُّ الذي يتأمَّلُ الأجرامَ السماويَّة؟

لم تُشرِق الشمسُ على هذا الجسد منذ زمنٍ بعيد، ليس كلّه على أيّ حال. لم أتشمَّس منذ سبع عشرة سنةً. كان يومًا شديدَ الحرِّ من شهر حزيران، إذ بلغت الحرارةُ سبع عشرة درجةً مئويّةً في الظلّ، ولذا سمحتُ لنفسي بارتداء سروال سباحة، بينما كنتُ أسمِّرُ الصناديقَ حول عشر شتلات فراولة تمتلكها غوردون. لم أستلقِ على الأرض، لأنَّني هومو إريكتوس(14)؛ رجلٌ منتصبٌ يفضِّلُ البقاءَ مشغولًا بأيِّ شيءٍ على الدوام.

استلقَت غوردون بجوار أصص الفراولة ، في أشعَّة الشمس ونسيم المحيط ، بشعرها الأحمر وبشرتِها الورديَّة التي بدا النمشُ يظهر عليها شيئًا فشيئًا. كانت ترفعُ نفسَها على مرفقيْها بين الحين والآخر ، كي تدهنَ زيتَ التَّسمير على أجزاءٍ من جسدها ، ثمَّ تقرأ من كتابٍ ما بضعة أسطر ، وبعدها تغلق عينيْها.. وهكذا. كانت هُناك شُجيْرةٌ في الجوار وصلَ ظلُّها بعد وقتٍ قصيرٍ إلى غوردون ، فنهضتْ عن الملاءة ، وسحبَتْها إلى بقعةٍ عشبيَّةٍ أقلّ ظلًّا.

أُشعلُ الضوءَ في غرفة النوم الجديدة. كلُّ مصابيح الغرفة على ما يُرام. سرعان ما سيغطِّي الظلامُ المدينةَ وكأنَّه بطَّانيَّةٌ صوفيَّة ، وسيمسي الجوُّ أكثرَ برودةً. أسمعُ نباح كلب .هل هو الكلب ذو الأطراف الثلاثة ؟ .ثمَّ يختفي الصوت.

تُرى ماذا عليَّ أن أفعل قبل النوم ؟

أُحضرُ واحدًا من دفاتر مذكَّراتي ، وأجلسُ على السرير. إنَّه الدفتر الأوسط. كلانا هنا الآن: نفسي السَّابقة ونفسي الحاليَّة ؛ الفتى والرجل في منتصف العمر.

ما الذي يدفعُ الصبيَّ إلى أن يكتب: شكرًا على الحياة ، يا أمِّي. لماذا لم أوجِّه الشكر إلى أبي ؟ أشكرُ أمِّي لأنَّها أنجبتني ، وأشكرُ الفتيات لأنَّهنَّ ينمن معي. أنا رجلٌ يُعربُ عن امتنانه.

تقول أمِّي إنَّها تمنَّت لو أنَّها أنجبتْ طفلة.

من المؤكَّد أنّي كنتُ سأحبُّ أن تكون لديَّ أخت. بدلًا من ذلك، لديَّ عشيقات. عشيقاتٌ نمتُ معهنّ. أربع عشيقاتٍ في أسبوعٍ واحد، إنْ كانت هذه المذكَّراتُ دليلًا يُعتدُّ به.

وبعيدًا عمَّا سبق، فإنَّ ذاكرتي ضبابيَّةٌ جدًّا عندما يتعلَّق الأمر بذلك الصبيِّ الذي يصفُ أشكالَ الغيوم وأجسادَ النساء. من الواضح أنَّ ثمَّة شيئًا مشتركًا بيننا، أنا وهو؛ فهو لا يعلمُ مَن يكون بقدر عدم معرفتي بنفسي أيضًا.

أنا لستُ موجودًا بعد؛ كلماتٌ مكتوبةٌ بأحرفٍ واضحةٍ تحت تاريخ الرابع والعشرين من شهر تشرين الأوَّل.

أقرأ، بعد عدَّة صفحات، جُملةً شطبتُها بجرَّة قلمٍ دقيقة، لكنَّها لا تزال مقروءةً: «كيفَ أصبحتُ أنا أنا؟»

تظهَرُ ن على نحوٍ مُنتظمٍ في المذكَّرات، فضلًا عن أحرفٍ أخرى. ك، أ، ل، س، غ. لكنَّني لستُ مُضطرًّا إلى قراءة الكثير لأدرك أنَّ ن ليس الحرفَ الأوَّلَ من اسم فتاةٍ نمتُ معها، لأنَّني أقرأ في موضعٍ آخر اسم ن كاملًا؛ فريدريش نيتشه. وبناءً على التواريخ والاقتباسات المتناثرة هنا وهناك، أتبيَّنُ أنَّني قد أمضيتُ سنةً كاملةً في قراءة كتاب ما وراء الخير والشرّ؛ وكانت السنةَ نفسَها التي قضيتُها في الجامعة. يبدو أنَّني قد وظَّفتُ مُذكَّراتي لتكون قاموسًا للمصطلحات أيضًا.

وأيًّا كان ما تبقَّى في داخلِه [أي المرء]، فإنَّه يبدو عرَضيًّا، واعتباطيًّا في غالبه، وهدَّامًا. إنّ التَّفكير «بنفسه» يستلزمُ جُهدًا، وليس من النادر ألَّا يفكِّر بصورةٍ خاطئة. إنَّه يخلط ما بين نفسه والآخرين، وهو مخطئٌ في ما يتعلَّق بحاجاته الأساسيَّة.

تسترعي انتباهي حقيقةُ أنَّ الموت كلِّيُّ الوجود، إذ يَظهرُ في ثلاث فتراتٍ زمنيَّة، إلى جانب تلك التجربة المدهشة من المعاناة.

بعد وفاة والدي بيوميْن، كتبتُ: يموت البشر. بشرٌ آخرون. يموتُ المرء. أعني بـ «المرء» نفسي. أنا أموت. لأنَّ الحياة أكثرُ الأشياء حساسيَّةً على الإطلاق. لو أنَّ لديَّ أطفالًا لأتاهم الموتُ أيضًا. وعندما يأتي، فلن أكون موجودًا لأمسك أيديهم، لأطمئنهم.

وفي السطور المدوَّنة تحت الرابع عشر من نيسان، أقرأ:

غالبًا ما يَقتُلُ الناسُ، الذين يشاركوننا خطوطَ العرض، أنفسَهم في فصل الربيع. إنَّهم لا يستطيعون احتمال فكرةِ تجديد الأرض لنفسها؛ أنَّ كلَّ شيءٍ يبدأ من جديد، إلَّا هم.

ليس هذا الصبيُّ سيِّئًا، بل هو بريءٌ وحسنُ النيَّة. ألاحظُ كيف يتلاشى وصفُ الطقس والغيوم تدريجيًّا، لتحلَّ محلَّه مخاوفُ بيئيَّة: كتاباتٌ تتحدَّث عن ترقُّق طبقة الأوزون، والغازات الدفيئة، والاحتباس الحراريّ. تنحسرُ الأنهارُ الجليديَّة وتختفي في نهاية المطاف. وفي غضون بضعة عقودٍ فقط، ستختفي هذه الخزَّاناتُ المائيَّةُ الضخمة من على وجه البسيطة.

ماذا عليَّ أن أقول لهذا الصبيِّ اليوم؟ أقصدُ، لو كان ابني!

أقلبُ الصفحة.

العبارة التالية مكتوبةٌ في أعلى الصفحة:

لم أعُد أؤمن باللَّه ، وأخشى أنَّه لم يعد يؤمن بي.

أتصفَّحُ دفتر المذكَّرات بعجالة.

في الصفحة ما قبل الأخيرة ، أتبيَّن أنَّ نفسي السَّابقة قد تبرَّعتْ بالدم.

ذهبتُ إلى بنك الدم ، وتبرَّعت. وتحتها .في سطرٍ جديد .كلمتان: أشعرُ بالدوار.

يظهرُ لي أنَّ تلك الزيارة إلى بنك الدم قد أفضَت إلى تقريريْن مثيريْن للاهتمام في الصفحة الأخيرة.

أماكنُ مارستُ الجنسَ فيها: سرير (أ ، ك ، د ، غ ، س)، مقبرة (ي)، سيَّارة (ك)، بيت الدرج (ه)، حمَّام (ل)، منزلٌ صيفيّ (ك)، حوض سباحةٍ عامّ (س)، فوّهة بركان (غ).

وبعد ذلك مباشرةً:

قائمة بأماكن لم أمارس الجنس فيها: بنك دم ، متحفٌ للفنون ، مركز شرطة (...إلخ).

أغلقُ الدفتر وأطفئ الضوء. بماذا عليَّ أن أفكِّر حين أسكن إلى العتمة؟ أجدُ نفسي أحمل ووترليلي بين ذراعيَّ ، بينما نمتطي حصانًا من دوَّامة الخيل .وقع اختيارُها على أحاديِّ القرن .وأمّها ، زوجتي تلوِّح لنا. يدور كلُّ شيءٍ بسرعة ، ويتمدَّدُ العالمُ بسرعة الضوء. نلوِّحُ لها. ثمَّ يتباطأ العالم رويدًا رويدًا ، وينكمشُ إلى أن يستحيل قزحيَّةً صغيرةً قُبيل انطفائه ، قُبيل انطفائي.

إنَّ التجربة المدهشة ، المعاناة ، تلهب الأملَ

ليست لديَّ ملابسُ احتياطيَّة، عدا عن القميص الوحيد الذي يتدلَّى على إحدى العلَّاقات الخشبيَّة في الخزانة. ماذا عليَّ أن أفعل حيال هذا الأمر؟ لماذا لم أجلب أيَّ ملابس أخرى معي؟ أُحْضرُ قميصي الأحمر، وأرتديه.

أحكُّ ذقني. ألا ينبغي أن أحلق؟ لم أحلق منذ أربعة أيَّام.

«قد تجدُ شفراتِ حلاقةٍ في متجر الفندق»، قالت ماي.

أقرعُ الجرس، وأنتظرُ مجيء فيفي.

«هل أخبرتْكَ ماي بأنَّ لدينا شفراتِ حلاقة؟» يقول بعد أن سألتُه.

يقفُ وراء مكتب الاستقبال بسترةٍ قطنيَّةٍ وبنطال جينز. لا يرتدي قميصه الأبيض، لكنَّني ألاحظُ غبارًا أبيض في شعره الذي يبدو وكأنَّ طحينًا قد نُثِر فوقَه. سبق وأن خلع سمَّاعات أذنيْه.

«أجل، لقد أشارت إلى متجر الفندق».

«لقد أُفرِغ المتجرُ أثناء الحرب. في الواقع، حدث ذلك قبل مجيئنا»، يقولُ بعد تفكير.

يفتح دُرْجًا ويفتِّش فيه، ثمَّ يُخرج في النهاية رزمةً من المفاتيح.

«أعتقد أنَّ أحد هذه المفاتيح هو مفتاح المخزن»، يقول، ويومئ إليَّ بأن أتبعَه إلى نهاية الممرِّ وراء مكتب الاستقبال، ثمَّ أن ننزل سُلَّمًا حتَّى نصل إلى بابٍ مقفل.

يَصْرف بعض الوقت قبل أن يعثر على المفتاح الصحيح.

«يُفترض أنَّ ثمَّة مخزنًا هُنا»، يقول بينما هو يُجرِّب مفتاحًا تلو آخر.

ترتسمُ ملامحُ الذهول على وجه الشابّ، وعلى وجهي أيضًا، عندما يفتحُ الباب ويتلمَّسُ الجدارَ بحثًا عن مفتاح الإضاءة.

الغرفة واسعةٌ جدًّا، وبلا نوافذ، وتزدحمُ بمجموعةٍ متنوّعةٍ من الأغراض والتذكارات وكلِّ أنواع الهدايا التي تتكدَّس على صفوفٍ من الرفوف، لكنْ أيضًا في صناديقَ على الأرضيَّة. في منتصف الغرفة، ثمَّة حاملٌ للبطاقات البريديَّة، وآخرُ للنظَّارات الشمسيَّة. على الرفوف ملابسُ سباحةٍ عليها بطاقاتُ أسعار، ونظَّاراتٌ واقية، وألعابٌ، وقواربُ مطَّاطيَّة، ومناشف. تسلبُ انتباهي دُمى الحيوانات المحشوَّة ذات الألوان الزاهية، ويبدو أنَّها ذبُلتْ مع الوقت وفقدَتْ هيئتَها: تمساحٌ أخضر بفكٍّ مرتخٍ، وفهدٌ مفرغٌ تمامًا، وزرافةٌ صفراء، ودلفين أرجوانيّ. ألمحُ أيضًا صندوقًا مليئًا بأقلام حبرٍ جافٍ وقد طُبِعَ عليها اسمُ المكان: «فندق الصمت».

لاريب في أنَّ هذا مخزنُ الفندق؛ آثارُ صورته من زمنٍ مضى؛ آثارُ عالمٍ من الألوان الزاهية.

يُزيح فيفي بعضَ الأشياء، يُنقِّلها من يدٍ إلى أخرى، وكأنَّه طفلٌ في متجر ألعاب! وتبدو الدهشةُ جليَّةً على محيَّاه.

«لم أستكشِفْ كلَّ أرجاء الفندق بعد»، يقولُ موضِّحًا. «لقد جئت وماي إلى هنا منذ خمسة أشهر فقط».

يبدو واضحًا من تعابيره أنَّه لا يدري من أين يبدأ.

«لا بدَّ أن تكون شفرات الحلاقة في مكانٍ ما هنا».

يفتِّش بخفَّةٍ بين الأكوام على الأرضيَّة، فيفتح الصناديقَ والعلبَ التي تمتلئ بزيوت التسمير، ومرطِّباتِ الشفاه، وألواحِ الصابون، والكتب الملوَّنة، والبطاقات البريديَّة، وفُرَش الأسنان التي طُبِع عليها اسمُ الفندق.

في إحدى زوايا الغرفة صندوقٌ شبهُ مفتوح، ويتَّضح أنَّه مليءٌ بالكتب.

«أظنُّ أنَّها الكتب التي خلَّفها نزلاءُ الفندق وراءهم»، يقول الشابُّ بعد تدقيقٍ وجيز. يبحثُ في الصندوق.

«إنَّها بلغاتٍ مختلفة»، يقول مُستنتِجًا.

أنحني وأمرِّرُ أصابعي على المجلَّدات: أجدُ روايتيْن لتوماس مان: الجبل السحريّ ودكتور فاوستوس؛ والقدس لسلمى لايرلوف؛ ومجموعة شعريَّة لإيميلي ديكنسون؛ وأوراق العشب لوالت ويتمان؛ وغرفة تخصُّ المرءَ وحدَه لڤيرجينيا وولف؛ ومجموعة شعريَّة أخرى لإليزابيث بيشوب. أفتحُ الكتاب الأخير، وأتصفَّحه، وأقرأ بعض السطور التي تتحدَّث كيف أنَّه ليس من الصَّعب إتقانُ فنِّ الفقد، إذ إنَّ الكثير من الأشياء مُحمَّلةٌ بمعنى الفقد. هكذا كتبَتْ بيشوب، المؤلِّفة التي خسرتْ هي نفسُها ساعةً، وأمًّا، ومنزلًا، ومُدُنًا، ونهرَيْن، وقارَّة.

افقِدْ شيئًا كلَّ يوم،

وسَلِّمْ لحيرةِ مفاتيحِ الأبواب الضائعة...

أعيدُ كتابَ الشعر إلى الصندوق، وأحملُ آخر ليبتس(15)، وأقلِّب فيه بضعَ صفحات قبل أن أتوقَّف عند: تتداعى الأشياء، لم يَعُدْ بمقدور المركز الصمود.

يلاحظُ الشابُّ أنَّني أتفقَّد الكتب.

«لا بدَّ أنَّهم أرادوا التخلُّصَ من هذه الكتب ، إذ لم تُعجِبهم بما يكفي كي يحتفظوا بها. تفضَّل وخُذ بعضًا منها ، إذا شئتَ. لقد أخبرتني ماي أنَّك كاتب».

ينحني فوق الصناديق ، ويبدو أنَّه في حيرةٍ من كلِّ ما تحتويه.

«أردتُ أن أدرُس التاريخ» ، يقول ، «هذا لو أتيح لي الذهابُ إلى الكلِّيّة. لكنْ ما إن أدركتُ أنَّ المنتصرين وحدهم مَنْ يكتبونه ، حتَّى قرَّرتُ ألَّا أفعلَ ذلك».

يستقيمُ ، وفي يده علبةُ شفرات حلاقة بلاستيكيَّة مُخصَّصة للاستعمال مرَّةً واحدةً فقط.

«ليس لدينا سوى شفراتٍ من ماركة ڤينوس ، الورديَّة» ، يقول ، ويعطيني العلبة. فيها ستُّ شفرات.

سأجرِّبها. أقول للشابِّ أيضًا إنَّني سآخذ من الصندوق قلمَ حبرٍ جافّ ، وأعلِّقه في جيب قميصي.

يسألني إنْ كنت أحتاج إلى أيِّ شيءٍ آخر.

«كلَّا ، لا أعتقد ذلك».

«عوازل ذكريَّة ، يا سيِّد يوناس ؟»

«لا ، شكرًا لك».

يُخبرني أنَّه ليس متأكِّدًا تمامًا من آليَّة تسعير البضائع ، لكنَّه سيضيف ثمنَ الشفرات إلى فاتورتي.

ألاحظُ أنَّه يُمعن النَّظر في المخزن ، ويحرِّك الأشياءَ على الرفوف ، كما لو أنَّه يبحث عن شيءٍ ما.

أقرِّرُ أن أستغلَّ الطابعَ الودِّيَّ لهذا المكان من أجل أن أثير مسألة الجداريَّة الفسيفسائيَّة من جديد. عندما سألْته عنها آخرَ مرَّة ، أخبرَني أنَّ الشيء الوحيد المميَّز في الجدار الذي أستفسر عنه أنَّه ما من أيِّ أثرٍ له على الإطلاق ، فضلًا عن أنَّه لا أحد يعلم بوجود ينابيع حارَّةٍ في هذه المنطقة.

«إنَّه أمرٌ غايةٌ في الغرابة» ، قال حينها.

لكنَّه يُبدي تردُّدًا هذه المرَّة ، فأغتنمُ الفرصة كي أصرَّ أكثر. أجل ، صحيح ، يتذكَّرُ الآن أنَّ هناك بعض الينابيع الحارَّة في المنطقة ، ويؤكِّدُ أيضًا وجودَ حمَّاماتٍ في الطابق السفليِّ من الفندق ، لكنَّها مغلقةٌ في الوقت الحالي.

مع ذلك ، يظلُّ جوابه مُبهمًا عندما يتعلَّق الأمرُ بالجداريَّة.

«صحيح ، لقد كانت هناك» . يستخدم صيغةَ الماضي . «بعضُ الجداريَّات الفسيفسائيَّة في مكانٍ قريبٍ من هنا ، لكنَّ زيارتها غيرُ متاحةٍ للسيَّاح في الوقت الراهن».

يواصل فتحَ الصناديق ، أثناء حديثه. ينظر في داخلها ، ثمَّ يعيد إغلاقها.

«هل سيتغيَّر ذلك قريبًا ؟»

يُبدي تردُّدًا مرَّةً أخرى.

«حسنًا ، الحقيقة أنَّها أزيلَت».

يقفُ بجوار حامل البطاقات البريديَّة. يدفعه بيده ، فيبدأ الحامل بالدوران.

«لمَّا كنَّا قد شرعنا في استقبال السيَّاح من جديد، فربَّما ينبغي أن أضع بعضًا من هذه البطاقات في بهو الفندق»، يقول.

التوقُ أشدُّ من الألم

نتوزَّع ثلاثتُنا على طاولاتٍ مُتباعدةٍ لتناول وجبة الفطور. تجلسُ الممثِّلة بجوار النافذة، وعلى طاولتها قطعةٌ من الخبز وفنجانُ قهوة، فضلًا عن كومةٍ من الأوراق. حيَّيتُها ثلاثَ مرَّاتٍ حتَّى الآن. يجلسُ جاري عند طاولةٍ ثالثة، مُكمِّلًا عددَ نزلاء الفندق. تجذبُ انتباهي الفوانيسُ الورقيَّةُ الملوَّنة التي تتدلَّى من السقف، إذ تبدو الصالةُ مزيَّنةً للاحتفال بمناسبةٍ ما.

«منذ بداية الحرب»، يقول فيفي الذي يُحضِّر القهوة. أُلغيَ الزفافُ في نهاية المطاف. كان من المعتاد أن يُعلِّقوا كرةً في المكان نفسه مرَّةً كلَّ سنة، للاحتفال برأس السنة الجديدة.

يُقدَّم العسلُ مع الخبز، وأتذكَّر ما قرأتُه عبر الإنترنت عن تربية النحل حينما حجزتُ غرفةً في الفندق. أخبرني فيفي أيضًا بأنَّ النحل مات أثناء الحرب، وتوقَّف إنتاجُ العسل.

تراني الممثِّلة، فتتبسَّمُ وتنهض، وتحمل فنجانَ قهوتها وتجمعُ كومةَ أوراقها، ثمَّ تسير باتِّجاهي. أنتبهُ إلى أنَّ جاري يُراقبنا، وأنَّه يُعدِّل جلسته ووضعيَّةَ كرسيِّه كي نظلَّ في مرمى بصره. كان يرتدي سترةً مخمليَّةً صفراء، وسروالًا قصيرًا، وجوربَيْن مرقَّطَيْن.

قال لي إنَّ اسمه ألفرِد.

تسألُني الممثِّلة إنْ كان في إمكانها أن تجلس معي، ثمَّ تضعُ أوراقها على الطاولة وتُسوِّي الوشاحَ حول عنقها.

ببطء.

تُخبرني بأنَّها رأتني عندما كنتُ على الشاطئ.

«أجل، كنتُ أتحقَّق ممَّا إذا كان البحرُ مالحًا».

تتبسَّم.

«وهل وجدتَه كذلك؟»

«أجل، وجدتُه كذلك».

تنظرُ عبر النافذة.

«هذا البحر مختلفٌ عن البحار في مناطقكم».

«أجل، هذا البحر مختلفٌ عن البحار في مناطقنا».

تُحدِّثني امرأةٌ، فأشرعُ على الفور بتكرار ما تقوله. تقول لي إنَّها وُلدتْ في هذه البلاد ونشأتْ فيها، لكنَّها غادرَتها قبل الحرب بزمنٍ بعيد.

«كنَّا نُصوِّر فيلمًا هنا في ذلك الوقت. كان شائعًا تصويرُ الأفلام في هذه المناطق التي كانت مُعدَّةً لتبدو وكأنَّها أماكنُ من بلادٍ مختلفةٍ تمامًا».

تتحدَّثُ، وفمي مُطبق.

أحبُّ الجلوس بفمٍ مطبقٍ أمام امرأة.

«وقفتُ هنا في آخر يوم تصوير» ، تقول ، وتشير إلى الساحة عند مدخل الفندق. «كان النجمُ الشريكُ في الفيلم واقفًا هناك» ، تستأنفُ كلامَها ، مُشيرةً بيدها مرَّةً أخرى. «مدَّ يدَه ، وأُطلِقتْ رصاصة. سارَت الأمور على نحوٍ سيّئ. أعدنا تصويرَ المشهد ستَّ مرَّات ، واستخدمنا عدَّة غالونات من الدم المزيَّف. قضينا أوقاتًا ممتعةً في المساء. كانت أحداثُ العمل بأكمله تدور حول قصَّةٍ مُتخيّلة ، ثمَّ أصبحتْ واقعًا ، واستحال الفيلمُ زيفًا».

تصمتُ فجأةً ، وتنظرُ حولها. لقد اختفى الرجلُ الذي يسكن الغرفة رقم تسعة.

«خلال الأشهر التي سبقَت اندلاعَ أعمال العنف ، اختفى أناسٌ عديدون من على وجه الأرض ؛ صحفيُّون ، وأساتذة جامعيُّون ، وفنَّانون. ثمَّ طال الأمرُ الناسَ العاديِّين. لم يكن أولئك مُستعدِّين بعدُ لتبنّي آراء صحيحة في الحكومة. لقد اختفَت عائلاتٌ بأسرِها ، وكأنَّها لم توجَد من قبلُ قطّ. وبحلول ذلك الوقت ، امتلأت البلادُ بالأسلحة من دون سابق إنذار».

نصمت كلانا.

«استحوذ اليأسُ على الناس حينما أدركوا ما وصلتْ إليه الأوضاع ، لكنَّهم لم يقدروا على تغييرها» ، تقول أخيرًا.

تقتربُ من الطاولة ، وتنظرُ في وجهي مباشرةً ، ثمَّ تقول بصوتٍ خفيض:

«كانت هناك حديقةُ حيواناتٍ في المدينة ، لكنَّهم أطلقوا الرصاصَ على ما فيها عندما بدأت الحرب. يقولون إنَّ حيوانًا بريًّا تمكَّن من الفرار منها. لا يدري الناسُ نوعَه ، بَيْدَ أنَّهم يتحدَّثون عن وحشٍ ذكرٍ كبير الحجم ، يقول البعض إنَّه نمر ، ويظنُّ بعضٌ آخر أنَّه فهد ،

ويعتقد آخرون أنَّه فهدٌ أسود. وثمَّة العديد من القصص التي تُروى عمَّا أفضَت إليه حالُه. بل إنَّ البعض يقول إنَّ الوحش يُدير عمليَّةَ إعادة الإعمار».

تسوِّي الوشاحَ حول رقبتها مرَّةً أخرى، ثمَّ تشربُ فنجانَ قهوتها حتَّى آخره، وتغرفُ بملعقةٍ بقايا السكَّر من قاعه.

تُخبرُني بعد ذلك بأنَّها ذاهبةٌ إلى الريف، بَيْد أنَّها ستعود إلى هنا في غضون عشرة أيَّام. تقتضي خطَّتُها زيارةَ بعضِ أفراد أسرتها، فضلًا عن استطلاع بعض المواقع من أجل تصوير فيلمٍ وثائقيّ، والبحث عن أشخاصٍ مُناسبين كي تُجري معهم المقابلات.

«يُسلِّط هذا الفيلمُ الضوءَ على كيفيَّة إدارة النساء للمجتمعات بعد الحرب»، تُضيف، مُشيرةً إلى أوراق السيناريو المطويَّة. «بالإضافة إلى أنَّهنَّ يحمِلن على عاتقهنَّ أيضًا مسؤوليَّةَ الحفاظ على تماسُك العائلة، وهي مهمَّةٌ تنطوي على جهدٍ هائل».

تقولُ شيئًا آخر، لكنَّني أفكِّر بنبرة التوكيد التي استخدمَتْها عندما أخبرتني بأنَّها عائدةٌ إلى هنا. تريدُ أن تعرف إنْ كنتُ سأظلّ هنا حتَّى عودتها.

«هل ستغادر؟ في غضون عشرة أيَّام؟» تسألني بلامبالاةٍ مُزيَّفة.

أُفكِّرُ في الأمر. على أرض الموتِ، لا يغدو الموتُ حاجةً مُلحَّةً كما كان في السَّابق.

«كلَّا، لا أتوقَّع ذلك»، أقول. ثمَّ أفكِّر في أنَّ هذا هو المكان المناسبُ لإطالة المقام.

ثمَّة أصواتٌ كثيرةٌ جدًّا في العالم،

لا صوتَ منها بلا معنى

أرجعُ إلى الغرفة ، فأجدُ ماي بانتظاري. تقول إنَّها تودُّ أن تطلب منِّي طلبًا رسميًّا. هذا ما قالتهُ بالضبط: «أودُّ أن أطلبَ منك طلبًا رسميًّا».

كانت ترتدي بلوزةً سوداء ، وتأخذ نَفَسًا عميقًا ، وهي تسير بتثاقلٍ في الممرّ.

«تحدَّثتُ مع شقيقي ، وقرَّرنا أن نسألك إنْ كان في وسعك مساعدتُنا في إجراء بعض الإصلاحات الصَّغيرة في الفندق. بعض المهمَّات الصَّغيرة ، كي أكون أكثرَ دقَّةً».

تتوقَّف لحظة ، ثمَّ تستأنف:

«أقصدُ ، حينما لا تزور معالم المدينة». يبدو لي أنَّ استخدام مصطلح «معالم المدينة» غير مألوفٍ بالنِّسبة إليها بعض الشيء.

تُخبرُني بأنَّه ليس في مقدورهم أن يدفعوا لي الكثيرَ مقابل هذا العمل ، لأنَّهم لم يستقبلوا عددًا كبيرًا من السيَّاح إلى الآن ، باستثنائنا نحنُ الثلاثة .أنا والسيِّدة والرجل . أي أنَّهم لم يحصلوا على أيِّ عائداتٍ بعد. وبناءً عليه ، فإنَّهما يُفضِّلان أن يتكفَّلا بنفقات الإقامة والمأكل. وعلى سبيل المثال ، يخطرُ في بالها أنَّني قد أرغب في إطالة فترة إقامتي ، وتمديد إجازتي بإجازةٍ إضافيَّة. تقول هذا بتردُّدٍ ، كما لو أنَّها تُجرِّبُ أن تضع هاتَيْن الكلمتَيْن معًا في جملةٍ مفيدة ؛ إجازة وإجازة. تقول إنَّ بإمكاني البقاء لأسبوعَيْن إضافيَّيْن ، أو ربَّما ثلاثة. وسأحصل خلال هذه المدَّة على الغرفة ووجبة فطور.

«هذا ما اتَّفقنا عليه أنا وفيفي مساءَ الأمس».

بَيْدَ أنَّها لم تُخبرْني بما اتَّفقا عليه بالتَّحديد.

تتقدَّمُ وتقفُ عند مدخل الغرفة ، أمامي. شعرها معقودٌ على هيئة ذيْل حصان ، مثل شعر ووترليلي.

«ثمَّة نقصٌ في الرجال» ، تقول. «والأدوات. مَن لم يموتوا في الحرب أو يفرُّوا من البلاد مشغولون بأمورٍ أخرى. لقد اختفى جيلٌ كاملٌ من الرجال. أمَّا المقاولون الأجانب فلا يصلِّحون أبوابَ الخزائن أو مقابضَ الأبواب».

أكرِّر ما قلتُه لها في السَّابق: إنَّني لستُ نجَّارًا ولا سبَّاكًا. ولستُ كهربائيًّا أيضًا.

«لكنْ لديك مثقاب».

أفكِّر قليلًا في الأمر.

لقد أخبرتُ الممثِّلة بالفعل بأنَّني سأظلُّ هنا إلى حين عودتها بعد أسبوعٍ تقريبًا ، ولذلك فأنا بحاجةٍ إلى فعل شيءٍ ما. ولهذا السَّبب ، أقول:

«أريدُ حقًّا أن أساعدك. ليس في وسعي أن أفعل كلَّ شيء» ، أضيف ، «لكنْ يُمْكنني القيامُ ببعض الأمور».

تتبسَّمُ ابتسامةً عريضة.

ثمَّ تعود إلى جدِّيَّتها مرَّةً أخرى.

«هل تعتقدُ أنَّك تستطيع البدءَ اعتبارًا من يوم غد؟»

«أستطيع أن أبدأ مباشرةً ، إنْ شئتِ» ، أقول.

هومو هابيليس I

(الإنسان الماهر I)

في الفندق ستّ عشرة غرفة نومٍ ؛ وقد تطلَّب الأمرُ بعض الوقت حتَّى نعثرَ على المفاتيح التي تُناسب أقفالَها. نتحرَّكُ أنا وماي بين الطوابق ، وتفتحُ الأبوابَ وتغلقها. ندخل غرفًا يسكنها الغبارُ. تفتحُ الستائر ، وتُريني ما ينبغي إصلاحُه.

أرى أنَّها إصلاحاتٌ بسيطةٌ في معظمها ، وأنَّني قادرٌ على التعامل معها بسهولة ، على الرَّغم من أنَّني كنتُ أفضِّل لو أنَّ لديَّ أدوات أفضل للعمل. تخطر في بالي صناديقُ العدَّة الكبيرة التي ظلَّت في قبو شقَّتي على الجانب الآخر من المحيط. يتَّضحُ لي أنَّ معظمَ أبواب الخزائن معلَّقةٌ بواسطة مفصَّلةٍ واحدةٍ فقط. كما أنَّ الأقفال ومقابض الأبواب والنوافذ تحتاج إلى إصلاح. عليَّ أيضًا أن أتفقَّد الأنابيبَ ، ومفاتيحَ الكهرباء ، وشبكاتِ الأسلاك ، والمقابس.

وعلى الرَّغم من أنَّ لكلِّ غرفةٍ تصميمَها الخاصّ ، فإنَّ في كلٍّ منها مدفأةً تعلو رفَّها مرآةٌ ذاتُ إطارٍ ذهبيّ ، ولوحةً فوق السَّرير لمنظرٍ طبيعيٍّ من غابةٍ تُظهِرُ حيوانًا وصيَّادًا. ثمَّة شيءٌ مشتركٌ آخر بين كلِّ الغرف أيضًا ، وهو أنَّها لم تُدفَّأ منذ زمنٍ بعيد ، ولهذا يمتلئ هواؤها برائحة العفونة نفسها. هناك أيضًا شقوقٌ وبقعُ رطوبةٍ في مواقعَ عديدةٍ على الجدران ، ودهانٌ مُتشقِّقٌ في الأسقف. كما أنَّ ورق الجدران المزخرف بأوراق شجر . والذي يُغطِّي جدارًا أو اثنيْن في كلِّ غرفة .مهترئ ، وقد أخذ يتقشَّر عند أطرافه.

لم أتحدَّث للفتاة عن الطلاء ، إذ افترضتُ أنَّه سيكون من الصعب الحصولُ عليه. وأمَّا الأثاث ، فهو من نوعيَّةٍ جيِّدة ، ويمكن قولُ الشيء نفسه عن الفندق عمومًا.

«إذا ما قورِن ببقيَّة البلاد» ، تؤكِّدُ ماي.

أشرحُ لها أنَّه ينبغي البدءُ بتهوية الغرف من أجل طرد الرطوبة من الجدران. ثمَّة أيضًا سجَّاداتٌ رثَّة تغطِّي كلَّ الأرضيَّات ، لذا أقترحُ أن نلفَّها ونحملَها إلى الخارج ، ثمَّ نضربَها حتَّى نطردَ الغبارَ منها.

نلفُّ أوَّل سجَّادة ، فينكشفُ بلاطٌ جميلٌ فيروزيُّ اللَّون ، ينطوي على أنماطٍ مربَّعةٍ غريبةٍ تُذكِّر بالمتاهات.

نقف في مكاننا ، على منتصف الأرضيَّة ، نتأمَّلُ البلاطَ بإعجاب.

«أجل ، أظنّ أنَّ مركز المدينة القديمة كان هنا» ، تقول ، وتشرح كيف أنَّ لكلّ مدينةٍ نمطَها الخاصَّ في البلاط. يُعتبر الفيروزيُّ البصمةَ المميَّزةَ لهذه المدينة ، ويمكن إيجادُه في المناجم القديمة القريبة. ويطابقُ هذا ما قرأتُه عن الجداريَّة الفسيفسائيَّة التي يبدو أنَّ أحدًا لم يسمعْ بها أو يستطعْ تقفِّي آثارها.

تتجوَّل ماي حول الغرفة ، وهي تنظرُ إلى البلاط ؛ وأسمعُها تقول إنَّ والدها كان عالِمًا مُتخصِّصًا بالمخطوطات القديمة ، وكان لديه أصدقاء متخصِّصون بعلم الأثريَّات. أغفل عن إخبارها بأنَّني مررتُ بجانب الأرشيف الوطنيِّ في الطريق إلى الفندق. لا تقول شيئًا آخر عن البلاط ، غير أنَّها تسقط على السَّرير ، وتحني رأسها. أراها ترفع كفَّيْها إلى أعلى.

«كان والدي رئيسَ قسم المخطوطات في الأرشيف الوطنيّ ، وقد أُطلقَ عليه الرصاصُ أثناء تأديته لعمله. سُمِح لنا بأن نستعيدَ جثَّتَه من ناصية الشارع حيثُ ألقيَتْ».

تغرق في الصمت قليلًا ، ثمَّ تضيف:

«لا يمكنكَ أن تسمحَ لطفلٍ بأن يرى جدَّه الذي تلقَّى رصاصةً في الرأس».

أرفعُ السجَّادة الملفوفة، وأسندُها طوليًّا إلى إحدى زوايا الغرفة، ثمَّ أسحبُ كرسيًّا وأجلس قبالة ماي.

«انتظرتْ أمِّي وقتًا أطولَ من اللَّازم حتَّى تهرب»، تقول بصوتٍ خفيض.

هل يمكن أن أقول لهذه الفتاة الشابَّة، بالتنُّورة والبلوزة الزرقاء ذات الزرَّيْن العلْويَّيْن المفكوكَيْن، إنَّ البشر أحيانًا يَطبَعون سُيُوفَهُم سِككًا ورِماحَهُم مَناجِل(16)؟ ألن يبدو هذا بلا معنى؟ أي القول إنَّ بإمكان الإنسان أن يعود إلى حاله من جديد بعد أن استحال وحشًا مُفتِرسًا؟ أم أنَّ هذا ربَّما من ضروب المستحيل؟

تسحبُ منديلًا من جيبها، تمسحُ به أنفها.

«لقد غصَّت البلادُ بالسلاح من دون سابق إنذار، ووصلتِ الحربُ إلى هُنا في غمضة عيْن. سمعنا الرِّوايات كلَّها، لكنَّ أحدًا لم يستطع فهمَ ما كان يجري».

تتوقَّف برهةً، ثمَّ تستأنف:

«لم نكن نعلم مَن يُفترض بنا أن نُصدِّق، لأنَّ الجميع قالوا الشيء نفسه: إنَّ قوًى شرِّيرةً هاجمَتهُم فجأةً ومن العدم. قال الجميع إنَّ العدو قتل النساءَ والأطفال، وعرَضوا صورًا للضحايا. قال الجميع إنَّه لم يكن لديهم أيُّ خيارٍ سوى الدِّفاع عن أنفسهم».

تهزُّ رأسها.

«لا أدري كيف استشرى هذا الكمُّ الهائلُ من الكراهية في جوانب المجتمع كافَّةً. فجأةً، صار الجميعُ يكرهون الجميع».

يدفعُني هذا إلى التَّفكير في أمِّي. اعتادت القولَ «إنَّ في صميم الشرِّ رغبةً في الانتقام»، ثمَّ تضيف: «تولِّدُ الكراهيةُ كراهيةً، ويُفضي سفكُ الدماء إلى مزيدٍ من سفك الدماء».

«لم يكن الموتُ مُشكلةً»، تقول ماي أخيرًا بشفتيْن مرتعشتَيْن، وتنظرُ إليَّ مباشرةً. «لم أكن أخشى أن أُقتَل برصاصةٍ أو أتشظَّى إلى أشلاء. لكنَّكَ إنْ أُسرْتَ، فستموتُ مئة مرَّة».

هومو هابيليس II

(الإنسان الماهر II)

تسيرُ أمامي ، وأتبعُها حامِلًا صندوقَ العدَّة.

«أَصلِحْ هذه» ، تقول لي ، فأُصلِحُها.

أفكُّ رؤوسَ الأدشاش ، ويبدو لي في حالاتٍ كثيرةٍ أنَّ تنظيفَ الأنابيب من الرَّمل والحصى يكفي كي تستعيدَ المياهُ ضغطها ولونها الطبيعيَّيْن. فعلتُ الشيء نفسه مع البواليع. أقترحُ أن نتخلَّص من السجَّادات الرثَّة ، وأن نتركَ البلاط يلمع بكلِّ بريقه.

«أنتَ أطولُ من أن تحتاج إلى كرسيٍّ من أجل تبديل المصابيح الكهربائيَّة» ، تقول وأنا أصعدُ على كرسيٍّ من أجل تبديل مصباحٍ كهربائيٍّ يتدلَّى من السقف ، وأُلقي نظرةً سريعةً على انعكاسي في المرآة فوق المدفأة. لا أريدُ أن أُخبرها بأنَّني كنتُ واقفًا ، قبل أقلّ من أسبوعٍ واحدٍ فقط ، على كرسيٍّ ، محاولًا أن أجد مكانًا لتثبيت خطّاف. أتمايل فوق الكرسيّ غير الثابت ، كأنَّني على حبلِ بهلوان. كنتُ في قميصي الأحمر ، وتحته زنبقتي المائيَّةُ البيضاء ، وتحت الزنبقة قلبٌ مُدمَّى ما زال ينبض. أمدُّ ذراعيَّ ، ويرتفع صدري الأحمرُ مثل عصفورٍ يوشكُ على الطيران. ثمَّ أقفزُ عن الكرسيّ ، وأتَّجه نحو حافظة المصابيح الكهربائيَّة.

تتحدَّث إليَّ ونحن نعمل.

وأعملُ وهي تتحدَّثُ إليَّ.

وأحيانًا ، تتوقَّفُ فجأةً كي تذكُرَ أمورًا من قبيل:

«كان لدينا بيانو».

أو تقول:

«حدثَ مرَّةً أن وجدتُ في الشارع إصبعًا. كان يحملُ خاتمَ زواج. ماذا كان ينبغي أن أفعل بإصبع ؟»

أو:

«كنتُ أستيقظُ ، فأصرفُ دقيقةً أو دقيقتيْن قبل أن أتذكَّر أنَّنا في حرب. كانت تلك أفضلَ الدَّقائق في حياتي». أُجري بعض الحسابات في ذهني ؛ لو أنَّ أمِّي هنا ، لأجابت على الفور بأنَّ اليوم مُكوَّنٌ من ١٤٤٠ دقيقة.

«وحتَّى لو ساد الصمت ، فإنَّك تعلم أنَّ الحرب ستندلع من جديدٍ في اليوم التالي».

أحيانًا ، تقول أشياءَ تجعلُني أفكِّرُ في أنَّها تُشبهني. لقد اعتدتُ أن أفكِّر في هذه الطريقة أيضًا. أو تقول شيئًا ، وأعلمُ أنَّها تفكِّر في شيءٍ آخر. أو توشِكُ على قول شيءٍ ما ، لكنَّها تمتنعُ وتُطبق فمَها.

يلتزمُ الصبيُّ بروتينه المُعتاد ، فيزحفُ حول أمِّه ويختفي بين الحين والآخر. إنَّه مُتخوِّف ، ويُبقي نفسَه على بُعد مسافة أمانٍ منِّي ، وأستطيعُ أن أشعر باحترازِه. كما أشعرُ أيضًا بالفضول الذي يتزايد في داخله ويتغلَّب على مخاوفه تدريجيًّا. ألاحظُ أنَّ لديه اهتمامًا بالغًا بصندوق العدَّة ، ما يدفعه في نهاية المطاف إلى الاقتراب كي يعطيني مفكًّا.

من الصَّعب أن أنشئَ أيّ اتِّصالٍ بصريٍّ به. وإنْ أبديتُ اهتمامًا به ، أو حاولتُ التَّحدُّث إليه ، هرب. عندما يقترب أكثر ، أرى أنَّ لديه نَدبةً كبيرةً فوق حاجبه.

«جرذ» ، تقول أمُّه. «لقد عضَّهُ جرذٌ خلال نومه على أرضيَّةٍ عفِنةٍ في قبوٍ مكثنا فيه بضعة أشهر ، أثناء هروبنا».

ما إنْ حملتُ المثقاب ، حتَّى غطَّى الصبيُّ أذنيْه وهرب إلى تحت الطاولة. ها هو جالسٌ وذقنُه تضغط على رُكبتَيْه ، ويسدُّ أذنيه كلتيْهما.

«يظنُّ أنَّه سِلاح» ، تقول أمُّه.

ينهضُ مجدَّدًا ، بُعيدَ دقائق ، ويسحبُ كرسيًّا إلى وسط الغرفة ويجلس عليه ، على بُعدِ مسافةٍ مناسبة ، كي يُشاهدنا ونحنُ نعمل. أسمعُه يُكلِّمُ نفسه.

«لقد عاد ينطقُ مؤخَّرًا» ، تقول ماي. «إنَّه لم ينطق بحرفٍ طوال سنةٍ كاملة».

يبدو الصبيُّ غير مسرور ، لأنَّه لا يفهم ما نقول. تتحدَّث والدتُه إليه ، وأشعرُ بأنَّها تُعطيه مُلخَّصًا عن محادثتنا ، لأنَّه يهزُّ رأسه وينظرُ إلينا ، على نحوٍ متبادل.

عندما تتكلَّمُ معه ، ألاحظُ أنَّه يميل رأسه موجِّهًا أذنه اليسرى إليها. تؤكِّدُ شُبهاتي في أنَّ الصبيَّ يعاني مشكلةً في السمع.

«لقد فقدَ معظمُ الذين عايشوا الغاراتِ الجويَّةَ بعضًا من مقدرتهم على السَّمع أو كلِّها. كنَّا ، في البداية ، نسمع أصواتَ إطلاق النار في الحيّ ، ثمَّ أتت بعدها أصواتُ انفجار القنابل».

يبدو أنَّها استغرقتْ في أفكارها ، إذ ثمَّة نظرةٌ بعيدةُ المدى في عينيْها.

«يبدأ الأمرُ بصافرة، يعقبها وميضٌ أصفر في السماء، ثمَّ موجةُ اهتزازٍ كأنَّ شيئًا ما يصفعُ الجدران. وحتَّى لو كان الوقت ليلًا، فإنَّ السماء تُضاء وكأنَّ الشّمس أشرقتْ للحظة. كان ثمَّة طنينٌ مُتواصلٌ في آذاننا، وظلَّت جميعُ عضلاتنا مشدودةً لأيَّام، وأسابيع، وشهور، دونما انقطاع».

يخطر سفانور في بالي.

«على أيِّ حال، من الواضح أنَّ الرجلَ يموتُ وحيدًا»، هذا ما قالَهُ لي حينما كنَّا واقفَيْن على رصيف الميناء تحت الشمسِ الحمراء الغارقة، «ما لم يكن يسكن في بلاد الغارات الجوِّيَّة. إذ هناك فرصةٌ كبيرةٌ لأن تُبادَ عائلةٌ بأسرِها في اللَّحظة نفسها بالضبط».

ما تراهُ الأعيُن

أتساءل إنْ كان ثمَّة ما يمكن أن ينشغلَ به الصبيُّ بدلًا من الجرْي حاملًا منشفةً على كتفيْه باحثًا عن أماكن للاختباء. أطرحُ هذا السؤال على ماي.

«يَصعُب عليه أن يظلَّ ثابتًا بلا حراك»، تقول.

يخطر في بالي أنَّ في مقدوره الرسمَ، وأتذكَّرُ أنَّني لمحتُ كرَّاسةَ رسمٍ وعلبةً من أقلام الرصاص الملوَّنة في متجر الفندق.

بينما أنتظرُ مجيء فيفي، ألاحظُ أنَّ حامل البطاقات البريديَّة في ردهة الاستقبال قد أُعيد تركيبُه. أُديرُهُ، وألقي نظرةً على البطاقات: ثمَّة صورة لزوجيْن مُبتهجيْن يجلسان على مقعدٍ في ساحةٍ مزخرفةٍ بالأزهار ويتناولان المثلَّجات، وأخرى لشابَّاتٍ يتشمَّسن على الشاطئ، بينما يَرْكبُ شبابٌ مفتولو العضلات الأمواجَ المُتكسِّرة. تُدهشني الألوانُ

الزاهية ، والسماءُ الزرقاء التي تنبض بالحياة ، والرمالُ الذهبيَّة ؛ كان العالم لا يزال مُلوَّنًا في ذلك الوقت ، ولم يدرِ الناسُ ما خُبِّئ لهم ؛ كانوا مفعمين بالحياة ، وما زالت أرجلُهم بالطول نفسه ، ولديهم خططٌ مُستقبليَّة ، وقد يُبدِّلون سيَّاراتهم أو يُغيِّرون مطابخَهم ، أو يذهبون في رحلةٍ إلى خارج البلاد. لكنْ ، وقبل كلّ شيء ، فإنَّ أكثر ما يجذبُ انتباهي هو البطاقات البريديَّة التي تُظهر جِداريَّةً فُسيفسائيَّةً ضخمةً من زوايا مُختلفة ، سواء بتفاصيل متنوِّعة ، أم ككلّ. تُمثِّل نساءً عاريات ، تُغطِّي وجوهَهنَّ خُمُرٌ شفَّافةٌ رقيقة ، موضوعَ الجداريَّة ؛ ثمَّة بطاقةٌ لامرأةٍ تملأ الماءَ من ينبوع ، وأخرى تستحمّ ، وثالثة تنتحي فوق زهرةٍ مُغلقة البتلات. أقلبُ إحدى البطاقات ، فأقرأ على ظهرها عبارةً مكتوبةً بثلاث لغاتٍ ، مفادُها أنَّه من المُمكن مشاهدةُ هذا العمل الفنِّيّ في فندق الصمت. يتلاءم هذا كلّهُ مع ما قرأتُه في الموقع الإلكترونيّ.

ألوِّحُ بالبطاقة متعمِّدًا حينما يظهرُ الشاب.

«ها هي الجداريَّة التي سألتُكَ عنها». ينحني قليلًا ، ويبدو أنَّه يُمعن النَّظر في البطاقة التي يُمسك بها من الزاوية بإحكامٍ بين سبَّابته وإبهامه ، وأُدرك أنَّه يُفكِّر مليًّا بما سيقوله لاحقًا ، ومن باب كسب الوقت.

«أجل ، لقد أردتُ أنا وماي أن نتحدَّث إليك بشأن الجدار الفسيفسائيّ» ، يقول أخيرًا.

ينتقي كلماته بعناية ، ويتكلَّمُ ببطء.

«كلُّ ما في الأمر أنَّنا اعتقدنا ، في بادئ الأمر ، أنَّك جئتَ إلى هنا من أجل هذا العمل الفنِّيّ ، وأنَّ هذا ما دفعك إلى أن تجلب معك صندوقَ العدَّة».

يُبدي تردُّدًا.

«وكما تعلم، فقد اختفَت بالفعل قطعٌ أثريَّةٌ عديدةٌ من البلاد». ثمَّ يوضِّحُ لي بأنَّه تلقَّى تعليماتٍ تقتضي عدمَ الحديث مع الأجانب عن الأثريَّات.

«كان علينا أن نتيقَّن من أنَّك لستَ هنا من أجل تنفيذ مهمَّةٍ مُشابهةٍ لمهمَّة النزيل الآخر».

ويبدو أنَّه يقصد بـ«النزيل الآخر» الرجلَ الذي يسكنُ في الغرفة المجاورة لغرفتي، وهو الذي سبق أن قال لي: «بعد الحروب، تصيرُ الأشياءُ كلُّها لقمةً سائغة».

«أخبرتُ ماي أنَّك ابتعتَ موسى للحلاقة، وأنَّكَ أخذتَ قلمَ حبرٍ جافّ، وأنَّك أتيتَ إلى هنا ثلاثَ مرَّاتٍ كي تعيد كتابًا إلى الصندوق وتستعيرَ آخر».

يدير الحاملَ كي يعيد البطاقةَ إلى مكانها.

«لكنْ، لأنَّك صرتَ الآن واحدًا من طاقم عمل الفندق عمليًّا، فإنَّ الوضع قد تغيَّر تمامًا»، يضيف بصوتٍ خفيض. «قرَّرنا، أنا وشقيقتي، أن ندعك تُلقي نظرةً على الجداريَّة الفسيفسائيَّة، إن شئتَ ذلك، وفي أيِّ وقتٍ يُناسبك».

ثلاثةُ أثداء

أسير خلف فيفي نزولًا إلى القبو، ونتجاوز غرفة المخزن، ثمَّ ندخلُ عبر بابٍ يفتحُه ويقفله بمفتاح.

نرى أمامنا الجداريَّة ضخمةً. أضخمَ ممَّا توقَّعتُه. ومُقسَّمةً إلى قسميْن. تبرزُ على إحدى الجهات، حيث الجدار الأصليّ، التحفةُ الأثريَّةُ التي تتباهى بها المدينة، وقد عُثِر عليها

أثناء الحفر لوضع أساسات الفندق. وأمَّا على الجهة الأخرى، فثمَّة ما يوحي أنَّه تتمَّةً للجدار، ببلاطٍ أكثر حداثة، يبدو أنَّه أضيفَ حينما بُني الفندق على الأرجح. هناك جدارٌ زجاجيٌّ يفصل بين الجدار الأصليِّ والحمَّامات البخاريَّة، بَيْد أنَّ الأخيرة جافَّةٌ لا ماء فيها.

«في البدء، بُنيَتْ هذه الحمَّاماتُ قبل ستمائة عام»، يوضِّحُ الشاب.

نقفُ جنبًا إلى جنب، رجُلان يتشرَّبان هذا العالم الخالي من الرجال. أكوامٌ من الأجساد الفاتنة أمامنا، وتكويناتٌ أنثويَّةٌ ريَّانة، وأثداء صغيرةٌ كأنصاف اللَّيمون، وخصورٌ نحيلة، وأوراكٌ عريضة. كم جسدًا عرفتُ قبل أن ألتقيَ غوردون؟ تظهرُ ك مرَّتيْن في مُذكَّراتي، وهناك پ، وم، وي مرَّتيْن أيضًا، هل هي ي ذاتُها؟ ثمَّ هناك ج وپ، وس التي تظهرُ ثلاث مرَّات. وإذا ما قارنتُ هذه التكوينات الأنثويَّة بالنساء اللواتي عرفتُهنَّ على نحوٍ حميميّ. وبعد تفكيرٍ عميق. فسأستنتج أنَّني لا أتذكَّرُهنَّ كاملاتٍ، وإنَّما أتذكَّرُ أجزاءً من أجسادهنّ: ثديًا، وربَّما خصرًا، ورقبةً بيضاء، وطبيعةَ بشرة، أو أتذكَّر إنْ كان المصباحُ مضاءً، أو باب الخزانة مفتوحًا، يتيح أن أرى فستانًا مُعلَّقًا. لكنَّني لا أتذكَّرُ جسدًا كاملًا.

بمقدور المرء أن يرى في الخلفيَّة اللَّونَ الفيروزيَّ نفسه للبلاطات في غرفة النوم، وهو لا يختلفُ عن مِسحة اللَّون التي تُضفيها الجبالُ الجليديَّة في الوطن على بحيرة Jökulsárlón ذاتِ الرِّمالِ الفاحمة.

«تجذبُ الحجارةُ الضوءَ» ، يوضِّحُ فيفي. «ولهذا السَّبب ، يبدو وكأنَّ الضوء يتوهَّجُ من داخل الجدار».

لكنْ ما يثير اهتمامي فوق أيِّ شيءٍ آخر هو أنَّ بعض أجزاء الجداريَّة تبدو وكأنَّها قُصَّت من أماكن متفرِّقة ، ثمَّ وُضِعت مُبعثرةً على الأرض.

يشرحُ لي أنَّ القِطَعَ والتحفَ الأثريَّة التي تحملُ قيمةً ثقافيَّةً قد تعرَّضَتْ لتدميرٍ ممنهجٍ أثناء الحرب ، وهذا ما اضطرَّهُم إلى إخفائها أو نقلها من أماكنها. وكانت الخطَّة تقتضي أن تُنقل الجداريَّةُ إلى مكانٍ آخر من أجل حمايتها ، وهذا ما دفعهم إلى البدء في نزع أجزاء منها.

أرى في أحد المواضع امرأةً بلا ثدي ، وفي آخرَ أخرى بلا ذراع ، وفي ثالثٍ ثالثةً بلا فرج ، وكعبٍ مفقود ، وخصرٍ مفقود ، وأذنٍ مفقودة ، وردفيْن مفقوديْن.

«أحاولُ أن أفرز هذه القطع وأتبيَّن مكانَ كلٍّ منها ، ثمَّ أضع العلامات عليها. أظنُّ أنَّني عثرتُ على كلِّ القطع باستثناء ثلاثة أثداء. ينبغي أن تكون في مكانٍ ما هنا» ، يقول ، وينظرُ حوله.

ألاحظُ أنَّ ملصقاتٍ قد وُضِعتْ على بعض القطع ، وكُتِب عليها بخطِّ اليد.

«لا يُتقِن الناسُ هذا النوع من العمل» ، يقول متأسِّفًا ، ثمَّ يضيفُ: إنَّهم ينتظرون مجيء مجموعةٍ من علماء الآثار لتقويم الأضرار التي لحقتْ بالجدار. سيحدث ذلك في غضون أسابيع قليلة ، كما يأمل.

يختلفُ الجدارُ الجديد كلِّيًّا عن القديم. وبقدر ما يمكنني أن ألاحظ، فإنَّه يبدو لي مصنوعًا من بلاط حمَّامٍ عاديّ. يحمل الجدارُ الموضوعَ نفسَه. أجسادًا أنثويَّةً عارية. لكنْ ثمَّة اختلافٌ كلّيٌّ في التَّنفيذ والتَّركيب البنيويّ؛ أثداء نواهد، وأوراك طفوليَّة صغيرة، وسيقان نحيلة طويلة كأطراف الحشرات.

«باربي»، يُعلِّق فيفي متبسِّمًا، وأومئ برأسي.

إنَّها القطع التي يعمل عليها الشاب. هناك وعاءٌ من الجصِّ على الأرض، وبجانبه مالجٌ وأدواتٌ أخرى، فضلًا عن قطعٍ من السيراميك مكوَّمةٍ على الأرض.

«أحاولُ أن أصلِحَها»، يقول، مشيرًا إلى الصدوع التي تهاوَت منها القطع. «كما ننوي أن نعيد الحمَّامات إلى العمل بحلول العام المقبل. هذا إذا استمرَّت الهدنة».

يبدو أنَّه ليس واثقًا تمامًا بما نفَّذهُ من إصلاحات، ومن الواضح أنَّه لا يدري كيف يستعمل المالج. لقد كسوتُ ما يكفي من حمَّامات، حتَّى صار بإمكاني أن أتساءل إنْ كان يستخدم حشواتٍ بديلةً مناسبةً أم لا.

أطرقُ الجدار. يبدو لي أنَّ الصدوع ليست عميقة. بَيْد أنَّه ينبغي إزالة المزيد من البلاطات، فضلًا عن أنَّه ينبغي تنظيفُ الطبقة التحتيَّة قبل تركيب بلاطاتٍ جديدة.

«استشرتُ مُقاوِلًا، وقال لي إنَّ الإصلاحات لا بدَّ من أن تكون ظاهرةً». قال بتردُّد «كان صديقًا لوالدي».

ثمَّ يصمتُ فجأةً، ويلتفتُ بعيدًا.

يداهُ ترتعشان.

ثمَّ يستأنفُ حديثَه من حيث توقَّف.

«بخلاف ذلك، فإنَّ حالة الجداريَّة جيِّدةٌ جدًّا، إذا ما قورنَت بأشياءَ أخرى في هذه البلاد».

قالت لي شقيقتُه الكلامَ نفسَه أيضًا.

فيفي

في طريق العودة، أدخلُ إلى المخزن كي أبحثَ عن كرَّاسة الرَّسم. يُخبرني فيفي بأنَّه قد شرع في ترتيب الأغراض، وتغيير أماكن بعض الصناديق، كما يتَّضحُ لي، فضلًا عن أنَّه نقل حاملَ البطاقات البريديَّة إلى ردهة الاستقبال. لكنْ من المستحيل معرفةُ ما كان يُرتِّب بالضبط. نتعاون في نقل بعض الأغراض، وأجدُ كرَّاسةَ الرَّسم، وكذلك بعض أقلام التَّخطيط وأقلام الرصاص الملوَّنة.

يقول لي إنَّه عثر على صندوقٍ آخر مليءٍ بأغراضٍ لم يُطالِبْ بها أصحابُها، ويشيرُ إلى صندوقٍ مفتوحٍ على الأرض.

«مُذهلٌ كيف أنَّ بعض الناس يقضون إجازاتهم، ثمَّ لا يفوِّتون مواعيدَ رحيلهم». يمدُّ يده إلى داخل الصندوق.

«ثمَّة هنا شهادةُ زواج، وملاقطُ سُكَّرٍ فضِّيَّة، وجوازُ سفر، وعقدٌ عقاريّ، وخاتمُ زفاف. واحدٌ فقط. نُقِشَ عليه توقيعٌ بحرفَي ل.ل».

يعطيني الخاتمَ كي أعاينه، ويخبرني بأنَّه بحثَ عن الخاتم المماثل لكنَّه لم يجده.

«هذا يعني أنَّهما لم يكونا معًا حين خُلِع هذا الخاتم»، يضيف.

ثمَّ يتذكَّر أنَّهُ أراد أن يُخبرني شيئًا ما.

«قد تكون هناك بعض الأدوات في القبو. ما الذي قلتَ إنَّكَ تحتاج إليه؟»

أعدِّدُ بعضَ الأدوات، وأُخبرُه كيف تُستخدم كلٌّ منها، ثمَّ أختمُ قولي بالحديث عن المسحج.

تتغضَّنُ جبهتُه كما لو أنَّه يحاول حلَّ أحجية.

«كلَّا، لا أظنّ أنَّ هناك شيئًا يُناسب هذا الوصف»، يجيب. «ربَّما من الأفضل أن تُلقي نظرةً بنفسك»، يضيف.

أنظرُ حولي.

أيُمكن أن تكون هذه، التي تلمعُ على الرفِّ العلْويِّ تحت السقف، حافظةُ مصابيحٍ كهربائيَّة؟ أجل، يبدو أنَّها كذلك. إذًا، لسنا بحاجةٍ إلى الاستمرار في تبديل المصابيح الكهربائيَّة بمثيلاتها من الغرف الشاغرة من الفندق. أرى وراء حافظة المصابيح غرضًا ممدودًا ومُغلَّفًا بحافظةٍ من فقاعات الهواء. أُنزلهُ وأقدِّمه إلى الشاب. الغرضُ ثقيلٌ جدًّا، ويبدو قابلًا للكسر. يضعُه بحذرٍ على الأرض، ثمَّ نحدِّق فيه للحظةٍ قبل أن يبدأ بنزع اللاصق وفكِّ التغليف. نصمت كلانا. وما إن يزيح الغطاء، حتَّى يظهرَ الإناء. لقد صُنِع من زجاجٍ أزرقَ جليديّ، وطُلِيَ بأكمله بأنماطٍ مُذهَّبةٍ لا تختلفُ عن تلك التي يوجد في أرضيَّات غرف النوم، لكنْ على نحوٍ أكثر دقَّة. أدركُ أنَّه قطعةٌ أثريَّةٌ أصليَّةٌ بكلِّ تأكيد.

«ها هو إذًا»، يقول الشابّ. «كنَّا نبحث عنه. لقد اختفى من المتحف البلديّ، وظننَّا أنَّه بِيعَ خارج البلاد».

يُعيدُ لفَّ الإناء بعنايةٍ بالحافظة البلاستيكيَّة ، ويحملهُ بين ذراعيْه وكأنَّه طفلٌ حديثُ الولادة.

ثمَّ يشيرُ برأسِه إلى الأغراض التي أخذتُها.

«من الصَّعب تحديدُ ثمنٍ لهذه» ، يقول. يُبدي تردُّدًا.

«سأضيف ثمنها إلى فاتورتك».

ثمَّ يُصحِّح لنفسه على الفور ، قائلًا:

«سأخصمُ ثمنَها من أجرك».

على وجهِ الغَمرِ ظُلمةٌ(17)

أضعُ كرَّاسةَ الرسم وأقلامَ الرصاص الملوَّنة على الطاولة في غرفة النوم ، حيث نعمل ، بَيْد أنَّ آدم لا يُبدي أيَّ اهتمامٍ بها. لا يريد أن يرسم ، بل يُفضِّل اللَّعب بالأدوات. يتجاوزني راكضًا ، ثمَّ يقف أمام صندوق العدَّة. يُريد أن يُسمَح له بحمل المفكّ. وينتظرنا نحن الرجال كي نشرع بمهامنا اليوميَّة.

«سيِّد يوناس».

لقد تعلَّم اسمي.

تومئ والدتُه إليه بأن يعود إلى الطاولة ، ثمَّ تضع وسادةً على الكرسيِّ تحته ، وورقةً من كرَّاسة الرسم أمامه ، وتقول له شيئًا ما. أخمِّنُ أنَّها تسأله عن اللَّون الذي يريدُ أن يستخدمه ، لأنَّها تفتحُ علبةَ الأقلام وتعطيه قلمًا أزرق اللَّون. يرميه فورًا على الأرض. تعطيه لونًا آخر ، فيَرميه على الأرض أيضًا ، ثمَّ يُبعِد علبةَ الأقلام كلّها.

إنَّه غاضب.

لن يرسم شمسًا وسماءً صافيةً اليوم ، ولا قوسَ قزح.

تتركُه والدته عابسَ الوجه ، ثمَّ تناديه بعد فترةٍ قصيرة كي يخرُجا.

يهزُّ رأسه.

تقول له شيئًا ما ، وأشعرُ أنَّها تحاول إقناعَه ، لكنَّه لا يتحرَّكُ من مكانه.

«يريدُ أن يبقى معكَ» ، تقول.

«لا بأس» ، أجيب. «في وسعي أن أكون جدَّه» ، أضيف ، ثمَّ سرعان ما أدرك أنَّ قولي هذا يتطلَّب مزيدًا من التَّوضيح.

«لديَّ ابنةٌ في مثل سنِّك» ، أقول.

«لكنَّه لا يستطيع أن يتحدَّث معك» ، تقول بتردُّد.

«سنكون هادئيْن كلانا إذًا».

«أنتَ انعزاليٌّ جدًّا» ، هذا ما كانت غوردون لتقوله.

«لن يطولَ غيابي ، ساعةً واحدة على الأكثر».

«لا مشكلة» ، أجيب.

ما إنْ تُغلق والدتُه البابَ وراءها ، حتَّى يقفزَ عن الكرسيِّ كي يُحْضر المفكّ.

«لاحقًا» ، أقول له.

أجلسُ أمام المنضدة ، وأُفهِمُه أنَّني على وشك البدء بالرَّسم.

يُراقبني من بعيد ، وأرى أنَّه ليس راضيًا.

ماذا سأرسم ؟

أسحبُ قلمَ رصاصٍ أرجوانيَّ اللَّون ، وأرسمُ صندوقًا. ثمَّ أغيِّر الألوانَ وأرسمُ مُثلَّثًا أحمر أعلى الصندوق. إنَّه منزلٌ بسقف. يقفزُ الصبيُّ فجأةً نحو الطاولة ، ثمَّ ينتزعُ الورقة من الكرَّاسة ويمزِّقها إلى نصفيْن قبل أن يرميَها إلى الأرض ويدوسها بقدمه. يُعطيني قلمَ رصاصٍ أسود اللَّون. يبدو أنَّه لا يُسمح لي باستخدام الألوان.

«حسنًا» ، أقول ، «سنستخدمُ الأسودَ فحسب اليوم».

أرسمُ منزلًا آخرَ على ورقةٍ جديدة ، ثمَّ أرسمُ كرسيًّا في داخله. ينظرُ الصبيُّ إليَّ باستغراب. أضيفُ كرسيًّا آخر ، ثمَّ المزيدَ من الأثاث.

يقتربُ بطيئًا ، خطوةً خطوةً ، إلى أن يقف ورائي تمامًا في نهاية المطاف ، وينظر إلى الورقة من فوق كتفي.

أَفرغُ من المنزل ، ثمَّ أرسمُ أناسًا في داخله: رجلًا وامرأة وطفليْن ، فتاةً وصبيًّا. وعلى حين غرَّة ، يزحفُ الصبيُّ إلى تحت السرير. أرى طرف حذائه تحت المرتبة ، لكنَّني أتركه لشأنه دون إزعاج.

كنتُ أحبُّ أن أُترَكَ لشأني دون إزعاجٍ عندما كنتُ في مثل سنِّه. حينما يخرجُ من تحت السرير ، أجلبُ كوب ماءٍ وأقدِّمه إليه. يشربُ الماء ، ثمَّ يتوجَّه مباشرةً نحو المنضدة ، ويجلس بهدوءٍ على الكرسيّ ، ويمسك بالقلم الأسود ويرسمُ خطًّا على الورقة. ثمَّ سطرًا آخر ، وسطرًا ثالثًا ، إلى أن تمتلئ الورقةُ بالخطوط السَّوداء وتتشكَّل كتلةٌ سوداءُ في المنتصف. أراقبُه. ما إن تمتلئ الورقة بالسَّواد ، حتَّى يمزِّقها إلى قصاصاتٍ صغيرةٍ ثمَّ

يرميها إلى الأرض. أضعُ أمامه ورقةً أخرى. ينظرُ إلى علبة الألوان، ويُبدي تردُّدًا لوهلةٍ قبل أن يسحبَ قلمًا أحمر وينكبَّ به على الورقة. لا يرفع بصرَه إلى مكانٍ آخر إلى أن يفرغ من مهمَّته تمامًا. لا فرقَ بين هذا الرَّسم وسابِقه سوى أنَّه بلونٍ أحمر. ويستحيلُ العالمُ جحيمًا.

أومئ برأسي.

يُبعِدُ علبةَ الألوان، فقد انتهى من عمله لليوم، ثمَّ ينهض ويقفُ أمام صندوق العدَّة. يريدُ أن يبدأ عملًا حقيقيًّا؛ أن يكشف لي عن معدنه.

ليمبو

أعودُ في المساء إلى مطعم ليمبو. في العادة، يُقدِّم المطعم الوجبةَ نفسَها يوميْن متتاليَيْن، بَيْد أنَّ مالكَ المطعم قد أضاف وجبةً جديدةً، ويعرضها عليَّ كخيارٍ آخر.

«لقد أضفنا طبقًا جديدًا إلى القائمة»، يقول، ويسألُني إنْ كنتُ أفضِّل الحساءَ مع الكفتة، أو اليخنةَ مثل البارحة! أختارُ الحساء.

لقد لاحظتُ أنَّه، مثل سائر الأشخاص في المدينة، يتحدَّث غالبًا عن نفسه بصيغة الجمع. لكنَّني لم ألمحْ بعدُ أيَّ موظَّفٍ أو زبونٍ آخر في هذا المكان.

بعد انتظارٍ وجيز، يُقدَّمُ لي الحساءَ الذي تطفو فيه قطعُ كفتةٍ صغيرة.

يتصرَّف مالكُ المطعم مثلما تصرَّف في المرَّة الأخيرة بالضبط؛ إذ يقفُ بجانب الطاولة بينما آكلُ، حاملًا على كتفه منشفةَ صحون، ثمَّ يبدأُ حوارًا من طرفٍ واحد. يُخبرني في البداية عمَّا كنتُ أفعلُه، ويقول لي إنَّه تناهى إلى عِلمه أنَّني دردشتُ مع الممثِّلة،

وشوهِدتُ في ملعب كرة القدم ، فضلًا عن أنَّه سمِع أيضًا أنَّني لم ألتزِم بالمسار المحدَّد إلى الشاطئ.

ثمَّ يُخبرني أنَّه لاحظ أنَّني حلقتُ ذقني. ولا ينسى أيضًا الإشارة إلى أنَّني أرتدي القميصَ الأحمرَ نفسه ، ويصلُ إلى نتيجةٍ مفادها أنَّني بحاجةٍ إلى غيارٍ من الملابس. ثمَّ يقول إنَّ في وسعه استخدامَ بعض نفوذه والحديثَ إلى صاحب أحد متاجر المدينة بهذا الشأن.

«المشكلة أنَّ المتجر مُغلق ، لكنَّه ليس مغلقًا حقًّا» ، يقول.

يمتلكُ صاحبُ المتجر غرفةَ تخزينٍ صغيرة ، لكنْ لا بدَّ أوَّلًا من الاتِّصال به لحجز الطلبيَّة. كم قميصًا أحتاجُ ، وهل أنا بحاجةٍ إلى أشياء أخرى عدا القمصان ؟ حزام ؟

على صعيدٍ آخر ، وفي حال احتياجي إلى بذلة ، فإنَّه يعرفُ رجلًا لديْه معرفةٌ بآخرَ على صلةٍ بثالثٍ يستطيع أن يُحيك لي بذلةً من أفضل أنواع القماش. وفي الواقع ، فقد حصل هو أيضًا على سترةٍ صنعها الخيَّاط ذاته. أمَّا هو ، فإنَّه يرتدي القميصَ نفسه ، بَيْدَ أنَّ سترته مُعلَّقةٌ في حجرة المعاطف عند مدخل المطعم. يُحضِرها ويرتديها. وعندما يوشكُ أن يُريني بِطانتها ، يلمعُ طرفُ مُسدَّسٍ من جيبها الداخليّ. يخلعُها بسرعة ، ثمَّ يُعلِّقها في مكانها مرَّةً أخرى.

«سيكونُ لطيفًا أن يستيقظَ المرء من دون أن يقتلَ أحدًا في اليوم السابق» ، يقول وهو يسوِّي سترتَه.

يُفكِّرُ برهة ، ثمَّ يضيف:

«لا يدري أحدٌ ما إنْ كانت الهدنة ستستمرّ أم لا».

ألمحُ صورةً لزوجيْن شابَّيْن مُعلَّقةً على الجدار. يخطرُ في بالي أنَّ مكتب الاستقبال لا بدَّ من أنَّه كان هناك. لا أذكرُ أيًّا من الصُّوَر التي التُقِطتْ في حفل زفافنا أنا وغوردون. كنَّا قد تزوَّجنا تحت أمطارٍ ربيعيَّةٍ باردة، وكانت ترتدي فستانًا أزرقَ فاتحًا. كان مفتوحًا من الخلف، وجميلًا في نظري.

أسألُه عن الصورة:

«إنَّها ابنتي»، يجيبُ، ويدير رأسَه حتَّى يمسَّ طرفُ عينه منشفةَ الصحون.

ثمَّ يستأنفُ التقريرَ من جديد. فبالإضافة إلى التجوال بمفردي على الشاطئ، يقول إنَّه علِم أنَّني أتولَّى بعض الأعمال الصَّغيرة الإضافيَّة لصالح الشقيق والشقيقة في فندق الصمت.

لا أعلِّقُ على هذا الموضوع.

«سمعنا أنَّ لديك لاصقًا أسود»، يقول، «وأنَّ باستطاعتك إصلاحَ أيّ شيء».

بناءً على تعبير وجهه، أظنُّ أنَّه يودُّ أن أوكِّد هذا. يقول إنَّه تناهى إلى مسمعه أنَّني أصلِّحُ المصابيح.

«إذًا، أنتَ تُصلِّح الكهربائيَّات أيضًا، لا الأنابيبَ فحسب».

«إنَّه أمرٌ مؤقَّت»، أقول.

يدعوني إلى تناول القهوة بعد الحساء، ثمَّ يسحبُ كرسيًّا ويجلس أمامي. يريدُ أن أعمل لديه، ويطرحُ من جديدٍ مسألةَ الأبواب المتأرجحة التي ذكرها في اليوم السابق.

«أبوابٌ مُجنَّحة» ، يُكرِّر القول.

يتَّضحُ لي أنَّه كان يعمل على رسمٍ جديد ؛ رؤيةٍ جديدةٍ للأبواب.

«بالمقاسات» ، يقول.

يُخرِج ورقةً مطويَّةً من جيبه ، ويفتحها على مهلٍ ، ثمَّ يمشِّط بيده فُتاتَ الخبز عن الطاولة ، ويضعُ الرَّسم أمامي. ألاحظُ أنَّه رسمَ بالتظليل ، وأضاف بعض الأرقام.

يقولُ إنَّه حسَّنَ من جودة الرَّسم ، على حدِّ تعبيره.

أسألُه إنْ كان قد تمكَّن من الحصول على الأدوات المطلوبة. يجيبُ بأنَّه يعمل على ذلك.

«هلَّا تُذكِّرني بهذه الأدوات مرَّةً أخرى؟» يسألُ بخجل. يبدو جليًّا من تعبيره أنَّه لم يستوعبْ تمامًا فكرةَ هذا المشروع ، لذا أقلبُ الورقةَ على نحوٍ يوحي بأنَّني أريدُ الرسم. ولأنَّه لا يريدني أن أخرِّب عملَه الأصليّ ، فإنَّه يحُضِّر لي ورقةً جديدة ، فأرسم بدوري عدَّة أدواتٍ بقلم حبرٍ جافٍّ يحمل علامةَ «فندق الصمت».

يومئ برأسه.

ثمَّ يريدُ أن يرسم.

يستغرقُ بعضَ الوقت ، فأُلقي نظرةً في الأرجاء. لا أجدُ أثرًا للهرّ.

يدفعُ الورقة إليَّ. يبدو أنَّه رسمَ مفتاحَ أنابيب ، وشريطًا مُحكم الإلصاق.

ثمَّ يضيف:

«ثمَّة تسريبٌ في حوض المطبخ».

يقول إنَّه سيُقدِّم لي في زيارتي القادمة لحمًا بالصلصة وخوخًا مجفَّفًا.

«وصفةٌ عتيقة ، تخصُّصيَّة. عن جدَّتي».

يمسُّ بطرف عينه منشفةَ الصحون مرَّةً أخرى. وقبل أن أغادر ، أضعُ بعضَ النقود على الطاولة ، وأخبرُه أنَّني بحاجةٍ إلى قميصَيْن.

في المساء التالي ، أجدُ قميصَيْن مطويَّيْن على الطاولة. أحدهما بمربَّعاتٍ بيضاء ، مثل منشفة الصحون والقمصانِ التي يرتديها موظَّفو المصارف اللُّطفاء ؛ والثاني ورديُّ اللَّون.

كانت الأرضُ خربَةً وخالية(18)

يجلسُ الصبيُّ أمام الطاولة ، في الموعد المحدَّد لبدء العمل بالضبط ، ويفتحُ كرَّاسة الرَّسم. وخلال الأيَّام التالية ، يملأ ورقةً تلو أخرى بالرسوم نفسها ، أحيانًا باللَّون الأسود ، وأحيانًا أخرى باللَّون الأحمر. يحمل معه كرَّاسةَ الرَّسم أينما ذهب ، وينكبُّ على العمل ، فيبحث عن طاولةٍ ليرسم عليها ، ثمَّ يرفع نفسه على كرسيٍّ ، ويبدأ. تشبه الرسومُ خربشاتِ طفلٍ صغير ، نيرانًا مشتعلة ، وألسنةَ لهبٍ مرتفعة. فضلًا عن السَّواد.

في الأمسيات ، يحملُ إلى غرفته الكرَّاسة وقلمَيْ رصاص ؛ أسودَ وأحمر. أمَّا الألوان الأخرى ، فيتركها وراءه.

يرسمُ ، في اليوم الرابع ، خطًّا أفقيًّا يقطع الصفحةَ في منتصفها تقريبًا. ما من شكٍّ في أنَّه أفُق. ثمَّ يرسم في النصف العلويِّ من الصفحة دائرةً مثاليَّةً إلى درجةٍ تلفت الانتباه ، كما لو أنَّه استعان ببوصلة. العالم مقسومٌ إلى قسمَيْن ؛ ولهذا فإنَّه يستخدم لونَيْن ، الأحمر والأسود. الشمسُ سوداء قاتمة ، والأرضُ تحتها تشتعلُ بالنيران.

أخيرًا ، يتقلَّصُ القلمان إلى عقبَيْن أسود وأحمر ، ثمَّ إلى مجرَّد خيطيْن من اللَّون ، قبل أن يختفيا في نهاية المطاف. لا خيار لديْه إلَّا أن يوسِّع لوحةَ ألوانه. يُحْضر الصبيّ ورقةً جديدة ، ويقلب علبة الألوان رأسًا على عقب ، ثمَّ يتأمَّلُ ما فيها مليًّا بحثًا عن ألوانٍ مناسبة. يختار قلمًا أزرق اللَّون في البداية ، ويرسم به دائرةً صغيرة. نقف جنبًا إلى جنب ، الوالدة والرجل ذو المثقاب ، ونُراقب ولادةَ عالَمٍ جديد. ثمَّ ينحني الصبيُّ فوق الورقة مرَّةً أخرى ، ويحجب عن نظرنا بكتفه ما يرسمه . لا يريدُ أن يشاهدَه أحد ، كما أنَّه لا يرفع بصره لفترةٍ من الوقت ، لأنَّه منهمكٌ كثيرًا بلوحته. وعندما يستقيم مرَّةً أخرى ، نرى أنَّه قد رسم أربعة خطوطٍ دقيقةٍ تنبعثُ من الدائرة. لا مجال للشكِّ في أنَّه بصدد رسم إنسانٍ صغيرٍ بذراعيْن وساقيْن.

«أنا» ، يقول.

«هو» ، توضحُ والدته.

يتأمَّلُ الصبيّ الأقلامَ الملوَّنة ، ثمَّ يسحب قلمًا برتقاليّ اللَّون ، ويشرع على الفور برسم دائرةٍ أخرى ، أكبر من الدَّائرة السابقة. يضيفُ إليها أربعة خطوط ، خطَّيْن أفقيَّيْن وآخريْن عموديَّيْن ؛ ها قد وُلِدَ إنسانٌ آخرُ ، أكبر هذه المرَّة ، ويملأ الورقة.

«ماما» ، أسمعُ صوته من أمام الطاولة.

وحتَّى يجعل الرسمَ مثاليًّا ، فإنَّه يضيف عدَّة خطوطٍ أقصر ، تشبه الأشعَّة ، بعدد خمس أصابع لكلِّ يد ، يرسمها بعناية. إنَّه يربط ما بين الشخصيْن ؛ يشابكَ أيديهما.

لقد خلق شخصَيْن ، ذكرًا صغيرًا وامرأةً بالغةً ، ووضعهما تحت شمسٍ خضراء. هذا هو اليوم الأوَّل للعالم.

ينظرُ إلى ما صنعَتهُ يداه ، فإذا هو حسنٌ جدًّا(19).

تتبسَّمُ والدتُه في وجهي. وكلَّما حاولتُ نسيان أنَّها امرأة ، ازداد تفكيري في الأمر.

وكان يومًا

لا يبتعد الصبيُّ كثيرًا في العموم.

«هل رأيت آدم ؟» تسألُني. تُقلِّب في بعض الأوراق التي كُتبتْ أرقام عليها ، وأفترضُ أنَّها الحسابات. كان الصبيُّ يلعب بالقرب من والدته ، ثمَّ اختفى فجأةً ، تبخَّر.

«لقد كان هُنا قبل ثانية».

تهرعُ إلى الممرّ. أسمعُ صوتَها تنادي الصبيّ. أضعُ المفكَّ جانبًا وألحقها.

«لا طائل من مُناداته ، فإنَّه لا يجيب» ، تقول. تفتحُ باب إحدى الخزائن في الممرّ.

«يزحفُ أحيانًا إلى هنا» ، تقول ، ثمَّ تضيف أنَّها عثرتْ عليه في المرَّة السَّابقة وراء أكوامٍ من المناشف النَّظيفة وبيَّاضات الأسرَّة.

وبينما كنَّا نتنقَّل بين الغرف ، تقول إنَّها تخشى دائمًا من أن تفقد آدم. تفتحُ أبوابَ الغرف واحدةً تلو أخرى ، وتتفحَّصُ محتويات كلٍّ منها بسرعة. نبحثُ أيضًا في الحمَّامات ، وفي خزائن الملابس ، وتحت الأسرّة.

«من المعتاد أن يزحفَ تحت الطاولات والأسرَّة ، وأن يختفي في زوايا منعزلة» ، توضِّح والدتُه. «يبحثُ دائمًا عن أماكن للاختباء ، وأخشى كثيرًا أن يكون عالقًا ، أن يكون قد وجد مكانًا لا يستطيع الخروجَ منه بمفرده».

تجثو على ركبتيْها ، وتبحث تحت السرير.

وعندما تنهضُ ، تسوِّي تنُّورتها.

«ليس مع فيفي» ، تقول. «لا أفهم ما يحدث».

نبحث في الطابقيْن كلَيْهما. وفي نهاية المطاف ، تقرعُ باب الرجل ذي الجوارب المرقَّطة. تشيرُ إليَّ بأن أنتظر خارجًا.

«انتظِرْ» ، تقول. «سأتولَّى الأمر».

أقفُ في الممرِّ على بُعد مسافةٍ. وبعد بضع لحظات ، يفتح الرجل البابَ قليلًا. أسمعُها تعتذرُ منه على الإزعاج ، وتسألُه إنْ كان قد رأى الصبيَّ الصَّغير. هل تسألُه إنْ كان الصبيُّ قد جاء إلى غرفته؟ يتبادلان بعضَ الكلمات ، ثمَّ تدخلُ إلى الغرفة ، وتختفي من مرمى بصري. أسمعُ مُحادثةً ، تتحدَّث فيها ماي بنبرةٍ خافتةٍ وسريعة ، لكنَّني لا أتمكَّن من فهم ما يُقال.

بعد مدَّةٍ وجيزة ، تَخرجُ مُمسِكةً بيد الصبيّ. أطرافُ فمه مُلطَّخةٌ بلونٍ بنّيّ.

«كان برفقته» ، تقول بصوتٍ مُختنق. «أعطاهُ قطعةً من الشوكولا» ، تقول ، من باب التوضيح.

ثمَّ تضيفُ بصوتٍ خفيض: «شكرًا لك على المساعدة».

تعضُّ على شفتها السُّفلى، ثمَّ تعترفُ بأنَّها لا تخشى على آدم فحسب، بل على أخيها أيضًا. «يحبُّ شبابُ هذه الأيَّام أن يلتقوا في الغابات، وقلَّةٌ على استعدادٍ للذهاب إلى هناك وجلب ما يتبقَّى من أشلائهم». تستخدمُ الشابَّةُ عبارة «شباب هذه الأيّام» التي تستخدمها أمِّي، البالغة من العمر ثلاثًا وثمانين سنة.

ما إنْ تعود الأمُّ وابنها إلى غرفتهما، حتَّى أطرقَ بابَ جاري.

«حَذارِ أن تقترب من الصبيّ»، أقول.

ينظرُ إليَّ، وترتسمُ على وجهه ابتسامةُ مكر.

«أتُعجبك الفتاة؟ كنت أظنُّ أنَّك تتقرَّب من نجمة الأفلام».

لا نيَّةَ لديَّ لإجابته، لكنَّه يشيرُ إلى أنَّ ثمَّة مسائل علينا أن نناقشها، وأنَّه كان في الواقع يبحث عنِّي.

ثمَّ يدخلُ مباشرةً في صلب الموضوع، ويسألُني إنْ كنتُ قد تمكَّنتُ من مشاهدة الجداريَّة.

لا ينتظرُ منِّي جوابًا، ويسألُني مباشرةً إنْ كنت أريدُ العمل لصالحه.

«في الحصول على أشياء معيَّنة».

«أيُّ أشياء تقصد؟»

يرشفُ من كأسٍ زجاجيَّةٍ يحملها بيديْه كلتيْهما.

«أشياء تستطيعُ الوصولَ إليها. إنَّ الناس يثقون بشخصٍ مثلك ، شخصٍ تغمره هالةٌ من حسن النيَّة».

أنا مثل الآخرين: أحبُّ ، وأبكي ، وأعاني

لقد أصبحتُ واحدًا من طاقم العمل في فندق الصمت ، وصارت لديَّ حزمةٌ من المفاتيح.

يُناديني فيفي ويُعطيني الحزمة.

«لأنَّك الآن واحدٌ من طاقم العمل في فندق الصمت ، فقد شعرنا بأنَّه ينبغي أن تحصل على المفاتيح».

في المقابل ، بإمكاني أن أُقيم في الفندق لفترةٍ غير محدودة ، سأحصل خلالها على وجبات الفطور والغداء ، فضلًا عن أغراضٍ من متجر الفندق «ما دام فيه مخزون» ، بحسب تعبير فيفي. تقول ماي إنَّ بمقدوري أيضًا أن أحضِر عائلتي لاحقًا إن أردت. يُعدُّ فيفي الحساءَ أو العجَّة لوقت الغداء. أمَّا الأمسيات ، فأقضي مُعظَمها في مطعم المدينة ؛ ولقد ساعدتُ المالك في عددٍ من الأعمال الصَّغيرة ، ولم أضطرَّ إلى إخراج محفظتي في الآونة الأخيرة. ولسببٍ غير معلوم ، فإنَّه لم يذكُر أمر الأبواب المتأرجحة طوال الأسبوع الفائت. عندما أعود إلى الفندق ، أقرأ. وقد انتهيتُ البارحة من قراءة ربيع بارد لإليزابيث بيشوب ، وشرعت بقراءة الآباء والبنون لتورغينيف. بالإضافة إلى ما سبق ، فإنَّني أُلقي نظرةً كلَّ يومٍ على الإصلاحات التي يعمل عليها فيفي في الحمَّامات ، وأقدِّم له بعضَ الإرشادات عن رصف البلاط.

«من الجيّد الحصول على وجهة نظرٍ خارجيَّة» ، يقول. «ربَّما ينبغي أن أذهب إلى مدرسةٍ كي أتعلَّم هذا على نحوٍ صحيح».

في كلِّ يوم ، نتولَّى أنا وشقيقته شؤونَ غرفةٍ واحدة ، ونتساعد على تهيئتها مثلما ينبغي. إذ ينبغي عليها أن تعتني بطفلها أيضًا.

أحيانًا ، تتوقَّف ماي عمَّا تفعله أيًّا كان ، كي تنظُر إليَّ أثناء عملي. وفي أوقاتٍ أخرى ، أرفع بصري ، فأنتبهُ إلى أنَّها تنظرُ إليَّ عبر المرآة ، وألاحظُ أنَّها تُعايناني. عندما أراها ، تنظرُ بعيدًا. وأحيانًا توشِكُ على قول شيءٍ ما ، لكنَّها تمتنعُ فجأةً في منتصف الجملة. وفي أوقاتٍ أخرى ، تنظُر من دون أن ترى ، فأعلمُ حينها أنَّها تُفكِّرُ في أمرٍ آخر! ثمَّ تقفُ ثابتةً بلا حراك ، وتحدِّق في الفراغ بعينيْن خاليتيْن من أيِّ تعبير. بعد لحظات ، تستفيقُ فجأةً ممَّا هي فيه ، وتقول:

«آسفة ، كنتُ أفكِّر».

ثمَّة أوقاتٌ تنظرُ فيها إليَّ وكأنَّها عاجزةٌ عن معرفة من أكون ، وتُحاول أن تتبيَّن الموقع الذي أنتمي إليه ضمن عالمها الأبيض والأسود ، الذي يلفُّه الغبار. يخطرُ ذلك في بالي حين تجابهني للمرَّة الثالثة.

نتساعدُ في بسط بعض بيَّاضات السرير ، فنَسْحبها في اتِّجاهيْن متعاكسيْن ، قبل أن ندسَّ أطرافَها تحت المَرْتبة.

«لا أحد يأتي إلى هنا ليقضي إجازته» ، تقول ، وهي تحدِّق في عينيَّ مباشرةً.

أعتدل. أقفُ قرب أحد جوانب السَّرير ، وتقف هي قرب جانبٍ آخر.

تريدُ أن تعرف ما الذي أفعله هنا ، بعيدًا عن مساعدتها في بسط الملاءات.

لو قُدِّر لنا ، أنا وهذه الشابَّة ذات الحذاء الورديّ ، أن نُقارِن بين نَدباتنا وجسديْنا المشوَّهيْن ، ونحسبَ الغُرَز التي خيطَتْ من الرقبة إلى الأسفل ، ثمّ نرسمَ خطًّا لكلٍّ منها ونجمع عددَها ، فستكون ماي هي الفائزة. خُدوشي عديمةُ الأهمّيَّة ، مُضحِكة. وحتَّى لو كانت لديَّ جراحُ حِرابٍ على جانب جسدي ، فستظلُّ الفتاة من يفوز بالجائزة!

«لا أحد يسافر إلى هنا بلا أيِّ هدف» ، تُكرِّر القول.

لقد قال لي الرجلُ ذو الجوارب المرقَّطة الشيءَ نفسَه.

لم أرَهُ منذ عدَّة أيَّام. ألم يقل إنَّ لديه بعضَ الأعمال في المدينة ؟

حينما صادفتُه آخرَ مرَّة ، قال لي: «إنَّ العالَم مليءٌ برجالٍ من أمثالك ؛ أنتُم الذين تُسيئون فهمَ الحياة».

حتَّى أنا بدأتُ أشكُّ في غايتي.

وبلا انتباهٍ ، أُخبرُها بالأمر.

«في الواقع ، لقد جئتُ إلى هنا كي أموت».

تنظُر في وجهي مباشرةً.

«هل أنت مريض ، أمْ...؟»

«كلَّا».

أشعرُ بأنَّها تريدُ المزيدَ من المعلومات.

«كي تموت ؟ كيف ؟»

«أن أنتحِر. لم أقرِّر الطريقةَ بعد».

«أفهمُك».

لا أدري ما الذي تفهمُه!

هل عليَّ أن أذكُر لها أنَّ ثمَّة أشخاصًا في هذا العالم يطلبون الموتَ، لأنَّهم ما عادوا قادرين على احتمال المزيد ممَّا يحدُث؟ قد تكون هذه أطولَ جملةٍ تفوَّهتُ بها خلال هذيْن الأسبوعيْن.

«لماذا لم تبقَ في منزلكَ فحسب؟»

لا تسألُني إنْ كان من الأفضل أن أموتَ مُحاطًا بجبالٍ بارِدة.

«أردتُ أن أحميَ ابنتي من العثور على جثَّتي».

«لكنْ ليس أنا؟» تسأل. «لا تريدُ أن تحميني؟»

«سامِحيني»، أقول. «لم أدرِ أنَّكِ ستكونين هنا. ولا الصبيّ. لم أتوقَّع أن ألتقيَكِ. لم أكن أعرفك في ذلك الوقت»، أضيف، وأشعر بتفاهة كلِّ كلمةٍ أتلفَّظُ بها.

لا أستطيعُ أن أقول لهذه الشابَّة، التي لا تملكُ أيَّ شيءٍ سوى حياتها، إنَّني تائه، أو أنَّه قد تبيَّن لي أنَّ حياتي مغايرةٌ لِما كنت أعرفه. لو قُدِّر أن أقول لها: أنا مثل الآخرين؛ أحبُّ، وأبكي، وأعاني.. فإنَّها ستفهمُني على الأرجح، وستقول لي: أعرفُ ما تعنيه.

«كنتُ حزينًا»، أقول.

إنَّها المرَّة الثانية التي أذكرُ فيها ذلك، وأمام أمِّي ضمنًا.

«لم أكن أعرف كيف أُصلح هذا الأمر»، أضيف.

أكادُ أسمعُ صوتَ أمِّي تقول ، كما قالت من قبل: «كلُّ معاناةٍ فريدةٌ ومختلفة ، وهي من ثمَّ لا يمكن أن تخضع للمقارنة. وأمَّا السَّعادة ، فتتشابَه».

تُحدِّق ماي في الأرض.

«كان والدُ آدم خبيرًا اقتصاديًّا ، وعازفًا في فرقةٍ تُقدِّم موسيقى الجاز. وفي قبو منزل شخصٍ غريب ، وُلِدَ آدم ، وكنَّا هناك أنا ووالده وحدنا. بكينا معًا. يا لَهذا الملاكِ الوسيم الذي هبطَ من السَّماء! هكذا قال والدُه».

تغرقُ في الصَّمت وتسير نحو النافذة ، ثمَّ تستأنفُ كلامَها بعد أن تبحث عن كلماتٍ تنتقيها بعناية:

«أُطلِق عليه الرَّصاصُ في ملعب كرة القدم ، ولم يكن في وسعنا أن نصلَ إليه ، حتَّى إنَّنا لم نستطع أن نأخذ الجثَّة ، لأنَّه سقط في ساحة قتال. لم يتسنَّ لنا حملُه ، ولا غسلُه ، ولا دفنُه. رأيناه عبر المنظار ، وكان الدمُ ينساب جداولَ من بنطاله وكُمّيْ سترته. ظنَّنا أنَّه ميِّت ، لكنَّه غيَّرَ مكانه في اليوم التالي. استلقى على ظهره في بادئ الأمر ، ثمَّ على جانبه في اليوم التالي ، وفي المساء ، كان قد زحفَ مسافةَ مترين باتِّجاه المرمى. لم أكن لأصدِّق يومًا أنَّ في إمكان إنسانٍ واحدٍ أن ينزف هذا القدر من الدِّماء! ظلَّ لمدَّة ثلاثة أيَّامٍ على هذه الحال حتَّى مات. بعد ذلك ، بقي ثابتًا في مكانه ، بينما كنَّا نشاهده يذوي في ملابسه ، إلى أن اضطُرِرنا إلى الفرار وتركه وراءنا».

«سامحْني» ، تقول مرَّةً أخرى.

هل ينبغي أن أقول لها إنَّني لا أستطيع أن أفهمَ شيئًا ؟ ألن يزيد هذا الطينَ بلّةً ؟

تجلسُ على الكرسيّ ، ثمَّ أسير نحوها وأجلس بجانبها.

«الأسى أشبهُ بقطعة زجاجٍ في الحلْق» ، تقول.

«لن أموت. ليس عاجلًا» ، أقول.

ربَّما كان ينبغي أن أقولَ أخبرْها أيضًا بألَّا تقلقَ ، فأنا لا أعرفُ كيف أموت. ليس أكثر ممَّا تعرفه أمِّي. أو بمقدوري أن أقول لهذه الفتاة ، التي شاهدَتِ الكثيرَ جدًّا من فوّهات البنادق ونجَتْ ، إنَّني لم أعد الرجلَ الذي جاء إلى هنا قبل عشرة أيَّام ، أو البارحة ؛ فأنا في حالةٍ من التبدُّل المتواصل.

«يا أبي ، ألا تعلم أنَّ خلايا الجسم تُجدِّد نفسَها كلَّ سبع سنوات؟» ، هكذا قالت لي ووترليلي ذاتَ يوم.

«أجل ، يظلُّ المرءُ في طور التحوُّل على الدوام ، يتجدَّدُ باستمرار ، أليس كذلك؟» ، هكذا سألني سفانور عندما كنَّا نتمشَّى قريبًا من الميناء والمحيط الأخضر متلاطم الأمواج ، حيثُ كانت سفنُ مراقبة الحيتان على جهةٍ من الرصيف ، وسفنُ صيد الحيتان على الجهة الأخرى.

«نحنُ نولَد ، ونحبُّ ، ونعاني ، ونموت» ، أسمعُها تقول ، وتتنهَّدُ بعمق.

«أعلمُ» ، أقول.

«إنَّ بعض أصدقائي لم يحصلوا ولو على فرصةٍ لتجربة الحبّ» ، تستأنفُ كلامها. «لم يتسنَّ لهم سوى المعاناةِ والموتِ فقط».

أومئ برأسي.

«وعلى الرَّغم من أنَّنا لم نعرف إنْ كنَّا سنُرْدَى بالرصاص غدًا أو بعد غد ، فإنَّنا لم نتوقَّفْ عن الحبِّ قطّ»

تنهضُ مرَّةً أخرى ، تقفُ قرب النافذة وقد أدارت ظهرَها لي. بلوزتُها الضيِّقةُ مشدودةٌ إلى كتفيْها.

«أبقينا نحنُ الثلاثة ، أنا وفيفي وآدم ، السفينةَ طافيةً. أردنا أن نحيا معًا ، أو أن نموتَ معًا إنْ لم تتسنَّ لنا الحياة ، لئلَّا يُترك أحدٌ بمفرده وراءنا».

كان الصبيُّ جالسًا أمام الطاولة ، يضعُ حبَّاتٍ من الخرز داخل القلب الورديِّ الذي كنتُ قد وجدتُه في متجر الفندق. ينزلق عن كرسيِّه ، ثمَّ يقفُ بجانب أمِّه. يمدُّ لها يده ، ويقفان جنبًا إلى جنبٍ وقد أشاحا بوجهيْهما عنِّي. يَفهمُ أنَّها غاضبة. ينظرُ إلى أمِّه أوَّلًا ، ثمَّ إليَّ من فوق كتفه. يُكرِّر هذا مرَّةً أخرى. أسمعُه يقول شيئًا ما بنبرة تساؤل. يريدُ جوابًا. يريدُ أن يعرف ما يجري.

«هل تعلمُ أنَّ الدّم يستحيلُ أسودَ حينما يتخثَّر ؟» تقول أخيرًا ، وتُواصلُ النَّظرَ بثباتٍ إلى المحيط.

هل ينبغي أن أقولَ لها إنَّ بمقدورها أن تتَّخذَ ملجأً تحت جناحيَّ في انتظار طلوع الضوء من جديد ؟

أسيرُ نحوها ، وأقول:

«لقد قمتِ بعملٍ رائعٍ حقًّا».

تلتفتُ إليَّ ، لكنَّها لا تُفلِتُ يدَ الصبيّ. تقفُ ، والشمسُ من ورائها ، وسطَ سحابةٍ مُضيئةٍ من الغبار المتلألئ.

«نحاولُ أن نبذلَ قصارى جهدنا» ، تقول. «مثل الآخرين».

غَمرٌ يُنادي غَمرًا(20)

ينتشرُ خبرُ مساعدتي الشقيقيْن ، فأتلقَّى العديدَ من الاستفسارات والطلبات من أشخاصٍ آخرين في المدينة ، من النساء بصورةٍ رئيسة ، من أجل أن أساعد في هذا الأمر أو ذاك. تضاعفَ عددُ هذه الاستفسارات خلال الأيَّام القليلة الماضية. وفي الصباح ، وجدتُ خمسَ رسائل في انتظاري في بهو الفندق. يقول فيفي إنَّه سمح لنفسه بكتابة الطلبات ، ثمَّ يعطيني بضعَ أوراقٍ مطويَّة. تتعلَّق معظم هذه الأعمال بمياهٍ حمراءَ في الأنابيب ، أو بواليعَ مسدودةٍ ، أو تسريبٍ في التمديدات ، أو أفرانٍ مُعطَّلة وما سواها من الأجهزة المنزليَّة.

أعرفُ مكانَ قاطع التيَّار الكهربائيّ ، بَيْدَ أنَّ هناك نقصًا في قطع الغيار: الصِّمامات ، والأسلاك ، والصفائح ، والحلقات.

هل أستطيعُ إصلاحَ غسَّالةٍ آليَّة؟ هل أعرفُ أيَّ شيءٍ عن الحواسيب؟ ينبغي أيضًا أن أركِّب مرآةً في الطرف الآخر من المدينة.

أفعلُ ما يُطلَب منِّي فعلُه ، ما لم تنتهِ المهمَّةُ بي في شبكة الصرف الصحّيّ ، حاملًا مشعلًا في يدي.

«مرحبًا ، يا سيِّد تصليح!» هذا ما وردَ في الرسالة الأولى. هذا ما صاروا يلقِّبونني به.

«يقول الناسُ إنَّك قادرٌ على تصليح أيِّ شيء»، يوضحُ الشابُّ لي، «يُلقِّبونك أيضًا بالسيِّد مُعجِزة».

«إنَّهم مخطئون بهذا التَّقدير»، أقولُ له. «بالإضافة إلى ذلك، هذه التَّصليحات مؤقَّتةٌ فحسب»، أضيف.

يُلاقي إصراري على تكرار حقيقة أنَّني لستُ سبَّاكًا ولا كهربائيًّا آذانًا صمَّاء. يحتاجون إلى كهربائيّ. يحتاجون إلى نجَّار. يحتاجون إلى سبَّاكين. يحتاجون إلى بنَّائين.

«قلائلُ جدًّا من يعرفون كلَّ شيءٍ عن الكهرباء»، يقول فيفي.

«يعتقد البعض أنْ ليس من العدل أنَّك تساعد النساءَ فحسب»، أسمعُه يضيف، من دون أن ينظر إليَّ. «أردتُ فقط أن تعرف ذلك. وثمَّة شيءٌ آخر. لقد انتَّصلوا من المطعم. يُفترض بي أن أخبرك بأنَّهم سيُقدِّمون السجق الأسود هذا المساء».

أحمَر

أستجمعُ شجاعتي كي أُذكِّر ماي بحاجتنا إلى الطلاء، على الرَّغم من أنَّني أدركُ مدى صعوبة الحصول عليه.

«تحتاجُ الغرفُ إلى طلاء».

تطفئُ المكنسةَ الكهربائيَّة.

«شريطة ألَّا يكون أحمر».

يُربكني تعليقُها، نظرًا إلى أنَّ الجدران التي تقشَّرَتْ عنها أوراقُها مطليَّةٌ بلونٍ أزرق فاتح.

أقترحُ أن نلتزم باللَّون نفسه.

«ألا تُريدين الإبقاءَ على اللَّون نفسه؟»

«كان الدم يُغطِّي جميع أنحاء البلاد. كانت كلُّ خطوةٍ داميةً، وكانت هناك بركٌ من الدم في الشوارع، جداولُ من الدم على طول الطرق، سماءٌ تمطرُ دمًا، واصطبغت الأنهارُ كلُّها بلون الدم الأحمر»، تقول بنبرةٍ متجرِّدة، كأنَّها تلقي محاضرة، وتحدِّق في الجدار الأزرق الفاتح أثناء حديثها.

«سكَبنا الطلاءَ الأحمرَ داخل الفجوات التي خلَّفتها القنابلُ في الإسفلت، كي تبدو مثلَ ورودٍ دامية. لذا لم يبق أيُّ طلاءٍ أحمر في البلاد»، تختتم حديثَها.

أظلُّ صامتًا.

«ربَّما نجد بعضَ دهانات الحشوات»، تقول، وتلتفتُ إليَّ مُجدَّدًا، «لكنَّك بحاجةٍ إلى التواصل مع المعارف المناسبين للحصول عليها».

تقفُ متسمِّرةً وسطَ الغرفة، وتسحب نَفَسًا عميقًا قبل أن تقول:

«إنَّ الجسد البشريّ حسَّاسٌ جدًّا، والجلد سريع جدًّا في التمزُّق. تُمزِّق الرصاصاتُ الأعضاءَ إلى أشلاء، ويَسْحق الإسمنتُ العظام، ويبتر الزجاجُ الأطراف»، تُتمتم، بوجهٍ خالٍ من أيِّ تعبير.

«اهدئي، اهدئي»، أقول لها، كما لو كنت أكلِّمُ طفلًا خائفًا من الظلام!

«يا له من طريقٍ مختصرٍ إلى القلب!» تقول.

«اهدئي، اهدئي»، أكرِّر القول، وأضمُّها بين ذراعيّ. باب الغرفة مفتوحٌ إلى الممرّ.

أنتبهُ حينها فقط إلى أنَّ الصبيّ يقف عند المدخل ، يحدِّق بنا الواحد تلو الآخر. كان قد ذهب إلى خاله ليعطيه بعضَ البلاطات ، وبعدها راح يُجرِّب تحريكَ الجصّ ، ثمّ عاد إلى هنا. أفلِتُها وأبتعِد. على الرَّغم من أنَّني لا أشعر بنفسي إلَّا قليلًا ، لكنَّني كنتُ قادرًا على الشعور بمعالم جسدٍ حيٍّ آخر.

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

يندفعُ الصبيُّ باتِّجاه أمِّه.

أوشِكُ على قولِ شيءٍ ما ، لكنَّني أسألُ:

«أين ذاك المنزل الذي ستنتقلنَ إليه ، أنتِ وصديقاتك ؟» كانت ، في مناسباتٍ عدَّة ، قد تحدَّثتْ عن منزلٍ ستعملُ مع بعض صديقاتها على ترميمه ثمَّ العيشِ فيه معًا. سبعُ نساء ، إذا ما أسعفتني الذاكرة ، وثلاثة أطفال. وفيفي.

تنظرُ إليَّ. تحدِّق في وجهي وكأنَّني غريب. وأنا كذلك بالفعل ؛ غريبٌ عن نفسي وعن الآخرين.

«بإمكاني أن ألقي نظرةً عليه ، إذا شئتِ» ، أستأنف القول.

تظلُّ صامتةً للحظةٍ طويلة.

«أنتَ محظوظ ، لأنَّك لم تقتُل أحدًا» ، تقول أخيرًا.

منزلُ النساء

يقعُ المنزل على الجانب الآخر من مركز المدينة. وفي طريقنا إليه ، تُخبرني ماي كيف أنَّ النساء اللواتي سيعشن فيه معًا ما زلن يهِمنَ من مكانٍ إلى آخر ، ويُقِمْنَ في مساكنَ مؤقَّتةٍ في الوقت الحاليّ. ولا تملك أيٌّ منهنَّ ، سوى حقيبة أمتعةٍ أو أقلّ.

«لدى واحدةٍ منهنَّ أوراقٌ تُثبتُ مُلكيَّتها للمنزل ، وقد دعت الأخريات إلى العيش معها. وبناءً عليه ، ستسكنُ في المنزل سبعُ نساءٍ وثلاثة أطفال» ، تقول ، قبل أن تضيف: «بالإضافة إلى فيفي». ثمَّ تستأنف بالقول: «وهكذا يصيرُ المجموع رجلَيْن ؛ واحدًا في العشرين من عمره ، والآخر في الخامسة ؛ وهما خالٌ وابن أخته استطاعا أن ينْجوَا من الحرب معًا».

تقول لي إنَّ بعض النساء سيُساعِدن في أعمال الفندق ، حينما تعود الرَّحلات السياحيَّة.

المنزل عبارةٌ عن مبنًى قائمٍ بذاته ، ومكوَّنٌ من ثلاثة طوابق عند بداية الشارع ؛ أمَّا المنازل التي تحيطُ به ، فقد نُسِفت عن بكرة أبيها. للمنزل حديقةٌ كبيرةٌ لكنَّها بور ، ويمتدُّ اللبلابُ المتسلِّق وصولًا إلى الطابق العلويّ. تقول ماي إنَّه كان من المفترض أن يُساعِدهنَّ في التصليحات أحدُ أقارب إحدى شريكاتها في السكن ، لكنْ لم يُسمع عنه أحدٌ أيَّ خبرٍ منذ وقتٍ طويل.

«أظنُّ أنَّه ربَّما غادر البلاد» ، تختتمُ قولها.

للحديقة أسوارٌ عالية ، وأرى أنَّه يُمْكن إنشاءُ ساحة لعبٍ للأطفال. وعلى الرَّغم من أنَّ معظم نوافذ المنزل مكسورة ، فإنَّ الأساسات تبدو في حالةٍ جيّدةٍ للوهلة الأولى. الجدران سليمة ، والأرضيَّات في حالةٍ جيّدة أيضًا لدرجة مدهشة ، لكنْ لا مياه تجري في المنزل ، ولا كهرباء ولا تدفئة. تصلُ أنابيب المياه والصرف الصحيّ حتَّى نهاية الحيّ ، ومبعثُ القلق الرئيس هو أنَّ المنزل مُستبعَدٌ من التَّخطيط الجديد للمدينة.

«نبذل جهدًا جهيدًا من أجل إدراجه ضمن المخطَّط» ، تقول ماي.

لا أثاث في المنزل ، لكنْ بالنَّظر إلى وجود مرتبةٍ على أرضيَّةٍ واحدةٍ من غرف النوم ، فإنَّه من الواضح أنَّ شخصًا ما يقيم هنا. أرى أنَّ تصليح المنزل ممكن ، لكنَّني سأحتاجُ إلى المزيد من الأدوات والموادّ. فالأنابيب ، ونظامُ الصرف الصحيّ ، والأسلاكُ الكهربائيَّة ، بحاجةٍ إلى تصليحٍ أيضًا. ومن خلال بعض التَّعديلات الطفيفة غير القانونيَّة ، سيكون من الممكن توصيلُ الكهرباء على نحوٍ مؤقَّت ، والبدءُ بتنفيذ بعض المهامّ الأكثر إلحاحًا. بدايةً ، ينبغي عزلُ المنزل عن القوارض والأمطار ، فضلًا عن تغيير ألواح الزجاج في النوافذ. أُجري فحصًا أكثر دقَّة ، فأرى أنَّ إطارات النوافذ وفواصلها لم تتضرَّر.

«أريدُ حقًّا أن أساعدكنّ» ، أقول. «بمقدوري أن أفعل بعض الأشياء ، لكنْ ليس كلّها».

نتجوَّل في الطابق الثاني ، وعندما أنتهي من قياس أبعاد إحدى النوافذ ، أشعرُ بأنَّ ثمَّة شيئًا ما يثقل كاهلَ ماي.

«أريدُ أن أذكُر لكَ أمرًا قبل أن تلتقي بقيَّةَ النساء» ، تقول ، وتستندُ إلى جدار. «بقدر عدم التحدُّث عمَّن فعلَ ماذا ، فإنَّنا كذلك لا نسألُ أحدًا عمَّا مرَّ به».

«أفهمُ ما تقصدين».

أشعرُ بأنَّها منفعلةٌ بعضَ الشيء.

«لا تسألْ رجلًا إن كان قد قَتلَ أحدًا ما ، ولا امرأةً إنِ اغتُصِبَت أو عن عدد من اغتصبوها».

«أجل ، لا داعي للقلق من أن أطرح أيَّ أسئلة» ، أقول.

«وعندما يرى المرءُ طفلًا ، فينبغي ألَّا يتساءلَ إنْ كان طفلَ امرأةٍ اغتصبها جنديٌّ من الأعداء».

«أجل ، ينبغي ألا يتساءل كذلك».

تُسوِّي خصلةً من شعرها ، تُثبِّتها تحت المشبك.

«النساء كلّهنَّ عرضةٌ للعنف أثناء الحرب» ، تستأنف القول ، من دون أن تنظر إليَّ.

أفكِّرُ في مدى شبابها ، وكم من أهوالٍ مرَّت بها!

«إنَّ الجنود لا يطرقون بابك من أجل أن يطلبوا الإذن لإطلاق النار».

«أجل ، هم لا يفعلون ذلك».

تُسوِّي شعرَها مرَّةً أخرى.

«والطريقة الوحيدة للاستمرار هي التظاهرُ بأنَّنا نحيا حياةً طبيعيَّة ؛ أن نتظاهر بأنَّ كلَّ شيءٍ على ما يُرام ؛ أن نعضَّ الطرفَ عن الدَّمار».

ألاحظُ أنَّها ترتدي قرطيْن لؤلؤيَّيْن صغيرَيْن ، تلمسهما بين الفينة والأخرى ، كما لو كانت تُطمئِنُ نفسَها أنَّهما ما زالا في مكانهما.

أخبرُها بهذا ، وأقول لها إنَّهما جميلان.

«هديَّةٌ من أمِّي» ، تقول ، ثمَّ توشِكُ على إضافة شيءٍ ما ، لكنَّها تمتنع.

تُبدي تردُّدًا.

«على الرَّغم من الخوف ، ما زلتُ أتذكَّرُ بوضوحٍ النجومَ في اللَّيل. والقمرَ أيضًا ، أجل».

أذكُر الحالة التي يخسرُ الجميعُ فيها أنفسَهم ،

الطيِّبون والأشرار

بعد عودتي إلى الفندق ، أمزِّق الصفحةَ الأخيرةَ من دفتر مذكَّراتي ، وأكتب فيها قائمةً بما ينبغي فعلُه في المنزل ، وما سأحتاجُ إليه.

كنتُ قد لمحتُ جاري في الممرّ ، وعلمتُ أنَّه عاد. أطرقُ باب الغرفة رقم ٩.

عندما يفتح ، أعطيه القائمة من دون أن أقبل دعوتَه إلى الدخول.

يقول إنَّه ربَّما يعرفُ بعضَ المقاولين الذين لديهم أعمالٌ في المنطقة. السُّؤال هو عمَّا سيحصل عليه في المقابل!

«لا شيء».

«لا شيء ؟ لا تسير الأمورُ هكذا. أقدِّمُ خدمةً إليك ، وتردُّها إليَّ بخدمةٍ في المقابل».

«ليس في هذه الحالة. سوف تفعل أشياء ولن تحصل على شيءٍ مقابلَها ، إلَّا الرضا» ، أضيف.

«عليك أن تتَّبع قواعدَ اللُّعبة».

«كلَّا، بل عليك أن تقولَ للمقاولين، أصدقائك، إنَّهم في حال امتناعهم، فسيجدون النساءَ في مواجهتهم».

يأخذُه قولي على حين غرَّة.

«تريدُني أن أقولَ للمقاولين، أصدقائي، إنَّهم في حال امتناعهم، فسيجدون النساءَ في مواجهتهم؟»

يُكرِّرُ ما قلتُ، فأعتبرُ الأمر إشارةً إلى أنَّه يفكِّر.

ثمَّ يقول:

«المنزلُ غير مُدرَجٍ في خطَّة إعادة البناء، وربَّما ثمَّة أشخاصٌ لا يريدون منك أن تحشر أَنفكَ في ما يفعلونه. أتريدُ أن تُصلِحَ البلاد بأسرِها، مُسلَّحًا بمثقابك الصغير ومترِ القياس؟ أَوَتظنُّ أنَّكَ قادرٌ على إعادة إلصاق عالَمٍ مكسور؟»

بينما كان يتكلَّم، خطر في بالي فجأةً الصحنُ الورديُّ ذو الأطراف المذهَّبة، وكنتُ قد كسرتُه أثناء طفولتي ثمَّ أعدتُ إلصاقَه. استغرق الأمرُ جهدًا كبيرًا كي أضع القِطَعَ المكسورةَ في مكانها، لكنَّني نجحت. ولهذا السبب، تفاجأتُ حينما رمَتهُ أمِّي في سلَّة المهملات بعد بضعة أيَّام.

«لن تتحسَّنَ أوضاعُ العالم لمجرَّد حصولك على بكرة شريطٍ لاصق»، أسمعُه يقول.

تبادُل رسائل

بعد يومين ، أجدُ في مكتب الاستقبال رسالةً موجَّهةً إليَّ. يُسلِّمُني الشابُّ ورقةً مكتوبةً بخطِّ اليد: بدأ العملُ على نظام الصرف الصحّيّ.

في الرِّسالة التالية ، أرسلُ إليه قياساتِ النوافذ والزجاج الذي أريده.

يصلُني الردُّ في اليوم التالي:

ستُسلَّمُ البضائع يومَ الاثنين.

بإمكاني إذًا أن أشرع في العمل على النوافذ.

نتبادل الرسائلَ لمدَّة أسبوعٍ كامل.

تمَّ تسليم الموادِّ اللَّازمة للأرضيَّات.

يَرِدُ في الرسالة الأخيرة: تمَّ تنظيف المنطقة من الألغام (الحديقة آمنة).

NOLI ME TANGERE

(لا تلمسني)(21)

آدم برفقة فيفي في الحمَّامات ، يُساعده في ترتيب أجزاء الهيكل ، بالإضافة إلى البحث عن ثلاثة أثداءٍ مفقودة. أمَّا أنا وماي ، فنُغيِّر مكان إحدى خزائن الملابس ، وحينها تسألُني:

«هل أنتَ مُتزوِّج ؟»

«كلَّا ، مطلَّق».

«هل لديْك أيّ أولادٍ آخرين بخلاف ابنتك التي ذكرتَها في ذلك اليوم ؟»

«كلَّا».

«كم عمرها ؟»

«ستٌّ وعشرون سنة».

ومن دون انتباه ، أخبرُها بأنَّ ووترليلي ليست ابنتي.

«ابنتي ليست ابنتي بالضَّبط» ، أقول.

ومن باب التَّوضيح ، أضيف:

«ليست من لحمي ودمي».

أفكِّرُ في هذه الكلمات: من لحمي ودمي.

«وهل أنت بمفردك منذ مدَّةٍ طويلة ؟»

«ستَّة أشهر».

لو أنَّها سألَتني إنْ كنتُ وحيدًا منذ مدَّةٍ طويلة ، لأجبتُها بأنَّني كذلك منذ ثماني سنوات وخمسة أشهر.

ثمَّ تسألُني عن هذا تحديدًا ؛ عن الوحدة.

«ألستَ وحيدًا ؟»

«أحيانًا».

تقتربُ منِّي أكثر ، وتكادُ تقف قبالتي مباشرةً.

«ألا تحنُّ إلى الشعور بدفءِ جسدٍ آخر ؟»

أظلُّ صامتًا ، ثمَّ أقول:

«مرَّ زمنٌ طويلٌ مذ حدث ذلك».

«كم ؟»

«زمنٌ طويلٌ جدًّا».

«أكثر من سنتيْن ؟»

هل عليَّ أن أأتمِنَها على هذا الشأن ؟

آخذُ نَفَسًا عميقًا قبل أن أجيب:

«ثماني سنوات وخمسة أشهر». في وسعي أن أضيف ؛ وأحدَ عشرَ يومًا.

تدنو أكثر ، وأشعرُ باقترابها يزداد مثلما يكتمل القمرُ حتَّى يصير بدرًا.

هل ينبغي أن أخبرَها بما آلت إليه الأحوال ؛ بأنَّني لم أعد أعرفُ كيف يُمارَس الحبُّ ؟

بأنَّني خائف ؟

أُبدي تردُّدًا.

«أنتِ في مثل سنِّ ابنتي».

«أنا أكبر منها» ، تقول. «أنا أكبر منك. عمري مئتا سنة ، ولقد خَبِرتُ كلَّ شيء. وفضلًا عن هذا ، كنت أظنُّ أنَّها ليست ابنتَك».

«كلَّا ، بل لا تزال ابنتي». وكان بمقدوري أن أضيف ، « إنَّها ووترليلي يوناسدوتّير الوحيدة في هذا العالم كلِّه».

«لكنَّني لستُ هي».

يخفق قلبي بقوَّة.

«كلَّا ، لستِ هي».

أحاول أن أفكِّر سريعًا.

«ماذا عن الرجال الأصغر سنًّا ، في مثل عمرك ؟»

«لا وجود لهؤلاء. إنَّني أستيقظُ وأنظرُ إلى الرجل الذي يضع رأسه على الوسادة بجانبي ، فأفكِّرُ بأنَّه قتلَ شخصًا ما. مع ذلك ، لم أسألك لهذا السَّبب» ، تضيفُ بهدوء.

ماذا بإمكاني أن أقول ؟ أنَّني لستُ الرجلَ المناسب لها ؟ أنَّها ستعرفهُ حينما يأتي ، لأنَّه سيصنعُ لها من السيف محراثًا ؟ ثمَّ سيكون في وسعي البدء برصف البلاط ، وكأنَّ شيئًا لم يحدث.

«أنا بحاجةٍ إلى المزيد من الوقت» ، أقول.

«كم ؟»

ليس الأمرُ أنَّ هذا السؤال غير مهمّ ، بل إنَّني لا أعرف له جوابًا.

الرجلُ نصفان: نصفٌ بشريّ ، وآخرُ حيوانيّ

يُقدِّمون يخنةً مع نوعٍ من اللُّحوم والمعكرونة في مطعم ليمبو. ألتقِطُ نكهةَ الفلفل الحلو والكمُّون ، وأسحبُ ورقة غارٍ من الهريس وأضعُها على حافَّة الطبق. يسحبُ مالكُ المطعم كرسيًّا على الفور كي يدردشَ معي ، ويقول إنَّه علِم أنَّني أساعدُ نساءً في البلدة ببعض الأعمال الصَّغيرة ، ويشيرُ إلى المغاسل ، وأجهزةِ التلفاز ، والهوائيَّات ، والغسَّالات.

«لقد صار هذا حديثَ البلدة» ، يقول. «سمعنا أيضًا بأنَّك مُنهمكٌ جدًّا في إصلاح أحد المنازل».

يصمتُ برهةً ويتنفَّس الصُّعداء ، ثمَّ يقول:

«إنَّ أمورًا كهذه تنتشرُ سريعًا».

«أجل ، لقد طلبنَ منِّي أن أساعدهنّ» ، أقول.

كان بمقدوري أن أضيف أنَّه إذا طلبَتِ امرأةٌ منِّي شيئًا ، فسأفعله.

اعتدتُ ذلك مذ كنتُ في بلادي.

«قد يسبِّب ذلك لك المشاكل».

«حقًّا ؟»

«أجل ، لا يبدو الأمر على ما يرام ؛ أقصدُ إنَّك تساعد النساء فحسب ، ومثلُ هذا ليس مقبولًا تمامًا. وقد يشعر البعض بالإهانة لهذا السَّبب».

ترتسمُ على وجهه تعابيرُ رجلٍ على وشك البكاء.

يتوقَّف للحظات ، كي يمنح نفسَه وقتًا ليعود إلى توازنه.

«أجل ، ثمَّة في هذا العالم أيضًا رجالٌ يحتاجون إلى المساعدة. ينبغي أن تكون القسمةُ مُتساوية» ، يقول. ثمَّ يضيف: «وإنْ لم يدرك البعضُ ذلك».

ينهضُ كي يأخذ الطبق ، ويقول إنَّه كان في نيَّته أن يقدِّم لي قطعةً من كعكة اللَّوز. يُشدِّدُ على عبارة «أنَّه كان في نيَّته» ، كما لو أنَّه تخلَّى عن هذه الفكرة. إذ لم يَعُد ثمَّة أيُّ سببٍ يدعو إلى ذلك.

«على الرَّغم من أنَّني أطهو لك ، كلّ يومٍ تقريبًا ، فما زلتَ ترفضُ أن تصنع لي تلك الأبواب المتأرجحة».

كنتُ قد نسيتُ الأمر.

«لقد تناقشنا بصددها عدَّة مرَّات».

ينهضُ حاملًا الطَّبَق بين يديْه ، ويبدو أنَّه لن يذهب بعد الآن إلى المطبخ.

«أحضرتُ لك قمصانًا ، وتقول إنَّك لا تستطيع صنع بابيْن متأرجحيْن».

أفكِّرُ مليًّا في الأمر.

«ألم نكن بحاجةٍ إلى بعض المواد ؟»

«أحضرتُها».

«بما في ذلك المفصَّلات ؟»

«أجل ، بما في ذلك المفصَّلات».

«وماذا عن المعدَّات ؟»

«أعملُ على ذلك».

أخبرُه أيضًا بأنَّني أريدُ أجرًا في المقابل:

«أريدُ أن أتقاضى أجرًا».

يوافق على مضض.

«ستتقاضى أجرَكَ بالوجبات. وجباتٌ مجَّانيَّة. واحدةٌ كلَّ يوم».

أفكِّرُ في مدى حاجته إليَّ ، وبالمطالب التي يمكنني أن أطلبها منه. إنَّ المقايضة هي العملةُ الوحيدةُ التي تصلُح هنا. أخبرُه بأنَّني سأصنع له الأبوابَ المتأرجحة إنْ سمح لي بأن أحتفظَ بالمعدَّات:

«أريدُ أن أتقاضى أجري بالمعدَّات» ، أقول.

ثمَّ أقلبُ قائمةَ الطعام ، وأشرعُ برسم المخطَّطات.

«أنا بحاجةٍ إلى منشارٍ عاديّ ، وآخر آليّ» ، أقول.

مسامير

أزاميل بقياسيْن مختلفيْن

ورق صنفرة

حشوات

فُرَشٌ وكاشطات..

كان قد جلسَ إلى الطاولة أمامي ، وشرع بإعداد قائمته أيضًا. ثمَّة حاجةٌ إلى التحقُّق من بعض الأشياء في مطعم ليمبو.

«و» ، أضيفُ ، «أريدُ أن يتاحَ لي الاختيارُ من قائمة الطعام. وليس فقط الطيور واليخنة. لا أرغب في المزيد من الحمام».

بعدئذٍ ، يودُّ أن يتمّ الاتِّفاق بقدحٍ من الشراب.

الشمس حمراء ، وتغرقُ أثناء عودتي إلى الفندق.

في تلك اللَّيلة ، أحلمُ بأنَّ ثمَّة جرذًا طليقًا في غرفة النوم.

الأرضيَّة مُغطَّاةٌ بقطعٍ من الخشب ، وأُميِّزُ بعض المفروشات من منزلنا ، أنا وغوردون ، بما في ذلك الكرسيّ الذي صنعتُه ، ذو المقعد القابل للتعديل.

الفحولةُ أن تقتلَ حيوانًا بالغًا

استغرقَ العملُ على نوافذ الطابق الأرضيّ في منزل النساء وقتًا أطولَ ممَّا توقَّعت، وسرعان ما بدأ حظرُ التجوُّل. تزدادُ الظلمة، وعمَّا قريب، سيُمْسي القمرُ المصدرَ الوحيدَ للضوء. أتحقَّق ممَّا إذا كان بإمكاني أن ألمحَ القمر، وما إذا كان في مكانه أم لا!

أشعرُ فجأةً بأنَّني لستُ بمفردي، وأنَّ ثمَّة شخصًا ما يراقبني، وأعتقدُ أنَّني أسمعُ صوتَ خطوات، لكنَّني لا أعيرها انتباهًا بعد أن أدركَ أنَّ هناك ظلًّا ضخمًا وساكنًا قد اختفى وراء الزاوية أمامي. يخطر في بالي أنَّه حيوانٌ ما. قطٌّ كبير. ما هي الحيوانات التي قالت الممثِّلة إنَّها هربَتْ من حديقة حيوانات البلديَّة؟

أقتربُ من ساحة الفندق، وأتوقَّف برهةً لأتفحَّص المحيط. بيْد أنَّني لا ألمح أيَّ شيء، إنسانًا كان أو حيوانًا. ليس ثمَّة أحياء على مرمى البصر.

يتجسَّدُ أمامي جسدٌ من دون سابق إنذار، ويبدو لي أنَّه على عجلةٍ من أمره. لا أقوى على تبيُّن أيِّهما أكبر: الرجل أم القمر، وما إذا كان يرتفع أو يقترب، أو يندفع نحو الغيوم، أو يتَّجهُ إليَّ مباشرة!؟ ما إنْ يقترب منِّي، حتَّى يُتمتَم بشيءٍ لا أفهمه. أكان سؤالًا أم بيانًا؟ قبل أن تتسنَّى لي الفرصةُ للإجابة، أشعرُ بضربةٍ سريعة، ثمَّ أجد نفسي ممدَّدًا في الشارع. أشعرُ بعدها بضربةٍ أخرى، وينهمر مطرٌ أحمر فوقي. سائلٌ حارٌّ ورطبٌ يتدفَّق أسفلَ صدغيّ. يلوح الرجلُ فوقي وكأنَّه خسوفٌ قمريّ، أو دبَّابة، ويركلني. أشتمُّ أثرًا لرائحة جلد، ولعطرٍ ما بعد الحلاقة: أينبغي أن أدافع عن نفسي، أم أستسلم لهذه اللَّيلة؟ بعد ذلك، وبالسُّرعة نفسها تقريبًا، يتوقَّف عن ضربي، وأسمعُ وقعَ قدميْه تبتعدان، وأرى توهُّجَ سيجارةٍ كومضةٍ من ضوءٍ في منتصف القمر. ثمَّ أسمعُ صوتَ محرِّك

درَّاجةٍ ناريَّة ، وقد أداره أحدٌ ما بقدمه. ثمَّة مذاقُ دمٍ في فمي ، بَيْد أنَّني أشعرُ باطمئنانٍ غريب. يفرك كائنٌ مألوفٌ ومكسوٌّ بالفراء نفسَه على كتفي ، بينما لا أزال ممدَّدًا في الشارع ؛ يتَّضحُ لي أنَّه الهرّ من المطعم ، الهرّ ذو العيْن الواحدة. أمدُّ يدي النازفة كي أداعبه ، وتبرزُ هالةٌ سوداءُ حول عينيّ.

أجرُّ ساقيَّ بصعوبةٍ بالغة. أسمعُ صوت خطواتٍ مرَّةً أخرى ، شخصًا ما يركض باتِّجاهي قادمًا من الفندق.

«سيِّد يوناس!» يقول الصوتُ المضطرب. إنَّه فيفي الذي يندفع نحوي ، ويرفعني من تحت ذراعي. أشعرُ بالبرد ، لكنَّني أتمكَّنُ من إبقاء تفكيري في منتهى الصفاء:

حين عودتها من رحلتها ، وفي حال طلبَت الممثِّلةُ منِّي أن أنام معها ، فسأقول نعم ، من دون أيِّ تردُّد. لقد انقضى أكثرُ من أسبوعٍ ولم تَعُد بعد.

أربعة

تُحملقُ فيَّ أربعةُ وجوهٍ كالحةٌ من أعلى ، تتفحَّصُني: ماي ، وفيفي ، والصبيّ ، وامرأةٌ لا أعرفها.

كنتُ قد تقيَّأتُ مرَّةً ، وأوشِكُ على التقيُّؤ مرَّةً أخرى.

«لقد تعرَّضتَ إلى ضربةٍ في رأسك أدَّت إلى ارتجاج ، وعلينا أن نخيطَ هذا الجرحَ في جبينك» ، تقول المرأة ، وتُخرِجُ إبرةً طبِّيَّةً من صندوق عدَّة.

«بضعُ غرز» ، تضيف.

ألتقطُ رائحةَ قشر البرتقال. وحينما أديرُ رأسي ، أرى الصبيّ واقفًا على مقربةٍ من السَّرير ، ويحمل بيده شريحةً من برتقالة ، ويرتدي قميصًا بكُمَّيْن قصيريْن ، كُتِبتْ عليه عبارة Stockholm I love you. يقتربُ خطوةً إضافيَّةً إلى الأمام ، فيضغط بنفسه على حافَّة السرير مباشرةً ، ويرفع البطَّانيَّةَ التي مدَّها أحدُهم فوقي ، كي يشرع بإجراء فحص. أحاول أن أتذكَّر ؛ كان فيفي هو مَنْ حملني إلى غرفتي.

«مرحبًا» ، أقول ، محاولًا أن أبتسمَ للصبيّ.

تُخبره والدتُه بأمرٍ ما ، فيترك البطَّانيَّة ؛ ثمَّ تنظرُ إليَّ بعينيْن دامعتيْن ، ووجهٍ ترتسم عليه ملامحُ القلق والانزعاج.

«ماذا حدث ؟» تسأل. «مَن هاجمك ؟»

أعتقدُ أنَّني أجيبُها ، لكنَّني لستُ متأكِّدًا.

«لا بأس» ، أقول.

أنا مثل صخرةٍ منصهرة. أنا مثل الآخرين.. أعاني. هكذا ، كتبتُ في مذكِّراتي حين كان عمري إحدى وعشرين سنة. وكنتُ قد كتبتُ في السَّطر السَّابق: بدرٌ كامل. ثلاثُ درجاتٍ مئويّة.

حين أقفُ ، أجد أنَّ رأسي ليس وحده ما يدور ، بل الغرفة بأكملها. أشعرُ بالدوار ، كما لو أنَّني أنظر إلى الأرض من قمَّة جبل ، وتتذبذب المشاهدُ أمامي وتومِض على نحوٍ بطيء ، وكأنَّني تحت زجاج الأكريليك.

أترنَّحُ نحو الحمَّام ، ثمَّ أتقيَّأ.

حين أستلقي مرَّةً أخرى ، تنتحي المرأةُ التي لا أعرفها فوقي ، وتسلِّطُ ضوءًا على عينيَّ. تطلبُ منِّي أن أفكَّ أزرار قميصي كي تتمكَّن من فحصي ، بينما تأخذ ماي شقيقَها وابنَها بعيدًا إلى إحدى زوايا الغرفة. يقفون متلاصقين ، ويراقبون.

تطرحُ المرأةُ أسئلةً غير مترابطة ؛ تسألُني عن اسمي ، وعمري ، وتطلبُ منِّي أن أعدَّ أصابعي. لديَّ خمسٌ في جهة ، وخمسٌ في الجهة الأخرى ، بخلاف الكثيرين من أبناء هذه البلدة.

«هل أنت متزوِّج ؟»

«أجل» ، أقول. «أو ، كي أكون دقيقًا ، كلَّا».

أجلسُ عاريَ الصدر على حافَّة السرير.

«هل أنت متزوِّج أمْ لا ؟»

«لم أعد كذلك. مطلَّق».

«هل لديْك أطفال ؟»

«أجل. أو ، كلَّا. لديَّ ابنة ، لكن ليس لديَّ».

تواصلُ من دون أن يبدو عليها أيُّ انزعاج.

«متى عيد ميلادك ؟»

أشعر ، وأنا أنظرُ إليهم وإلى غرفة النوم ، كأنَّني أشاهدُ لقطاتٍ ثابتةً مفكَّكة ، بتشويش ، ثمَّ انتقالٍ فجائيٍّ من إطارٍ إلى آخر ، وذلك بانتظار أن يبدأ الفيلم بسلاسةٍ من جديد.

«في الخامس والعشرين من شهر أيَّار».

تنظرُ المرأة إلى ماي ، وتنظرُ الأخيرة إلى شقيقها. وينظر الثلاثة بعضهم إلى بعض.

«أي اليوم» ، تقول المرأة.

أسحب جوازَ سفري ، وأسلِّمهم إيَّاه. يمرِّرونه فيما بينهم. ألاحظُ كيف يتفحَّصونه ، ويقلِّبون صفحاته.

ماذا عليَّ أن أفعل بهذا الصدد ؟ هل أدعوهم إلى حضور حفلة عيد ميلاد ؟

«لقد أُصبتَ بكدمات ، لكنْ ما من كسور ، لذا يُمكن القول إنَّك محظوظٌ إنْ نظرنا إلى الأمر من هذه الزاوية» ، تقول حينما تنتهي من فحصي. « بإمكانك الآن أن تُزرِّر قميصك».

تومئ برأسها إليَّ ، بينما تحزم حقيبتها.

«زهرةٌ جميلة».

أمِّي

«لقد تحدَّثتَ عن والدتك» ، تقول ماي. «قبل أن تصلَ الطبيبة. قلتَ ، أمِّي. وكنت تكرِّرُ الكلمة».

أنظرُ إليها مُستغرِبًا ، فتقول:

«ليسَ على المرء أن يفهمَ كلَّ ما يُقال كي يفهم».

أسألُها عن اليوم.

«هل هو الاثنيْن ؟»

«كلَّا».

«الثلاثاء ؟»

«كلَّا ، الأربعاء».

«منذ متى وأنا هنا ؟»

«منذ ثلاثة أسابيع».

أنهضُ ، وأسألها إنْ كانت في البلدة جوقةُ رجال.

ترتسم على وجهها ملامحُ الحيرة.

«أجل» ، تقول بتردُّد. «أظنُّ أنَّ ثمَّة نقصًا في الأصوات. التينور بصورة رئيسة ، بحسب اعتقادي».

«يجب أن أتَّصل بابنتي» ، أقول.

«هل ستعود إلى منزلك ؟»

«ليس بعد. لا بدَّ قبل ذلك أن أنتهي من بعض الأمور».

تتبسَّم.

ثمَّ تتذكَّر شيئًا ما.

«بالمناسبة ، تقول ، لقد تمَّ توصيلُ تمديدات المياه إلى المنزل. وبدأت المياهُ تتدفَّق إلى الحوض. لذا ، فإنَّ الأمور تتحسَّن».

لو سألتُها عمَّا تحلمُ به ، فبماذا ستجيب ؟

بالضوءِ يطفو فوق الأفقِ من جديد ؟

يموت المرءُ مرّةً واحدةً فحسب

سمحوا لي باستخدام الهاتف في مكتب الاستقبال.

يتطلَّبُ الأمر بضعَ ثوانٍ قبل أن تُجيب ووترليلي:

«أهذا أنت ، يا أبي ؟ هل كلُّ شيءٍ على ما يرام ؟»

«نعم ، كلُّ شيءٍ بخير».

صوتُها مشحونٌ بالدموع ، وتقول إنَّ القلق قد تملَّكها منذ أن وجدَتِ الرسالة ، واختفيتُ.

«كان العثورُ عليكَ مستحيلًا».

تُخبرني بأنَّها وجدَتْ هاتفي المحمولَ على طاولة السرير ، وكانت خزانةُ ملابسي في غرفة النوم فارغةً.

«أجل ، لقد تخلَّصتُ من الملابس».

أبدي تردُّدًا ، ثمَّ أضيف:

«لم أعد في حاجةٍ إليها».

أحاولُ أن أتذكَّر الرسالة ، وما كتبتُ فيها. فتنشِّطُ ووترليلي ذاكرتي ، بالقول:

«قلتَ إنَّك ذاهبٌ في رحلة ، من دون أن تذكُر وجهتك أو مدَّة غيابك».

تقول إنَّني عاجزٌ عن الإفصاح عن مشاعري ، وتسألُني مرَّةً أخرى إنْ كان كلُّ شيءٍ على ما يرام. أين أنا بالضبط ؟ ماذا أفعلُ هنا ، ومتى سأرجع إلى المنزل ؟ هل تورَّطتُ في أيِّ مشكلات ؟ أسمعُ صوتها وهي تحبسُ الدمع.

«أمِّي قلقةٌ أيضًا» ، تضيف.

يرتعشُ صوتي حينما أسألُها:

«حقًّا ؟ أمُّكِ قلقةٌ أيضًا ؟»

«أجل ، أمّي أيضًا. هي ليست عديمةَ التأثُّر عندما يتعلَّق الأمر بك» ، تضيفُ بعد تردُّدٍ للحظات.

تُخبرني بأنَّها تلقَّت بطاقةً بريديَّةً يومَ أمس ، تحملُ صورةً لجدارٍ فسيفسائيٍّ واسمًا لفندق ، لكنَّ أحدًا لم يُجب على رقم الهاتف الذي عثرَتْ عليه عبر شبكة الإنترنت. تضيفُ أيضًا بأنَّها ، هي ووالدتها ، لا تشعران بالرضا لأنَّني اخترتُ الذهاب إلى البلد الأخطر في العالم.

«لم يَعُد كذلك. لقد انتهت الحرب».

تعيدُ صياغةَ ما قالته:

«حسنًا ، من المؤكَّد إذًا أنَّه أحدُ أخطرِ البلدان في العالم».

أسمعُ صوتَ تنظيفها لأنفها.

«أليسَ كلُّ شيءٍ مُدمَّرًا ؟»

«أجل».

«والألغام الأرضيَّة في كلِّ مكان ؟»

«أجل ، هي كذلك».

هل لها أن تستقلَّ طائرةً ؟ هل لها أن تأتي إليّ ؟

يسود صمتٌ على الطرف الآخر من الخطّ. هل شرعتْ في البكاء ؟

آخذ نَفَسًا عميقًا قبل أن أقولها:

«تقول والدتك إنَّكِ لستِ ابنتي. لقد كان لها حبيبٌ حينما التقينا».

كان بمقدوري إضافة أنَّ ذلك حدث قبيلَ ذهابنا في رحلةٍ لتسلُّق الجبال ، وكان ينبغي أن تحملَكِ في أثنائها. وتشهدُ على ذلك طيورُ الترمجان الصخريَّة ، والخروف ، والجبل.

«لم يكن هناك أحدٌ غيرك بعد رحلة الجبل» ، هكذا قالت غوردون.

«أجل ، أعلم. كنتُ غاضبةً في بادئ الأمر ، لكنْ لم يَعُد ذلك مهمًّا الآن. أنت أبي ، ولا أحدَ غيرَك».

«وماذا عن الآخر ؟»

«وهل سأبدِّل بين أبويْن بعد أن صرتُ في السادسة والعشرين من عمري ؟ هل ستتبرَّأ منِّي حقًّا ؟ هل ستتخلَّى عنِّي ؟»

يسود الصمت على جانبيْ خطِّ الهاتف.

«ألهذا السببِ رحلت ؟» تسأل.

لا أنبس ببنت شفة.

«لماذا هناك الكثير من المال في حسابي المصرفيّ ؟»

«لقد بعتُ شركة ستيل ليغز المحدودة». ثمَّ أضيف: «أحاولُ أن أبسِّط حياتي».

«شعرتُ بأنَّ ثمَّة خطبًا ما حينما سألتَني إنْ كنتُ سعيدة» ، تقول أخيرًا.

ومن دون أن أنتبه ، أسمعُ نفسي أقول:

«سأطيلُ فترة إقامتي هنا. لقد حصلتُ على عمل».

«عمل ؟»

«أجل ، نوعًا ما. سوف يؤخِّر عودتي عدَّة أسابيع».

«عدَّة أسابيع ؟»

«أجل ، أنا أساعد بعضَ النساء في إصلاح منزل».

«بعض النساء ؟»

هذه المرَّة ، صارت هي التي تُكرِّر ما أقول.

«ثمَّة فتاةٌ هنا في مثل سنِّك. لديْها صبيٌّ صغير».

«هل هي معجبةٌ بك ؟»

أبدي تردُّدًا.

«لستُ متأكِّدًا. ربَّما».

«وماذا عنكَ ؟ هل تعجِبُكَ ؟»

«مثلما قلت ، هي في مثل سنِّكِ. أكبر منكِ ببضع سنوات» ، أضيف.

«لم تُجِب على سؤالي».

«كلَّا ، ليس الأمر كذلك. ثمَّة نقصٌ في الرجال الحرفيِّين الذين يمتلكون مثقابًا».

«هل أخذتَه معك ؟ المثقاب ؟»

«أجل».

صمت.

ثمَّ أقول:

«أشعرُ بالمسؤوليَّة».

يبدو لي أنَّه لو كان سفانور هنا ، لقال: «إنَّ المُذنبَ هو الذي يدري ثمَّ لا يفعل شيئًا».

أسمعُ صوتَ أنفاسها ، فأعلمُ بأنَّها لم تغلقْ سمَّاعةَ الهاتف.

لا تزال على الطرف الآخر من الخطّ.

«هل تتذكَّر ، يا أبي ، حينما استلقينا على بطوننا فوق البحيرة المتجمِّدة ، ونظرنا إلى الغطاء النباتيِّ تحت الجليد ؟»

«أجل ، أتذكَّر ذلك».

«عدني بأنَّك ستتَّصل».

«أعدُكِ».

«عيد ميلادٍ سعيد ، يا أبي» ، تقول أخيرًا.

قلَّةٌ من الرجال يَقتُلون ، أما الأغلبيَّة فيموتون فحسب

ألمحُ مسحةً من الضوء في الممرّ ، فأعلمُ أنَّ بابَ غرفة الرجل مفتوح. أراهُ يرتدي ملابسَ النوم ، وينتظرُني.

«لا فائدة من إقحام الشرطة في هذه القضيَّة» ، هذا ما يقوله لي في البداية ، بينما أترنَّحُ عبر الممرِّ بعد أن فرغتُ من تناول حساء البازلَّاء الذي أعدَّه فيفي لي.

يستمرُّ العالمُ في الدوران.

سكون.

يقول ما قالَهُ من دون اكتراث ، وكأنَّه كان يُحدِّث نفسه.

«ألا تشعرُ بالفضول لمعرفة سبب عدم قتلك ؟»

«كلَّا».

«لقد ظنُّوا أنَّك كنتَ شخصًا آخر».

لا أسألُه عن هويَّة الشخص الآخر ، ولا أخبرُه أنَّ من الممكن جدًّا أن أكون شخصًا آخرَ غيري ؛ أنَّني لا أدري نهايتي من بدايتي.

«هل كنت خائفًا من الموت ؟»

«كلَّا».

«كلَّا ، فمثلُكَ يُفضِّل أن يموت قتيلًا على أن يصير قاتلًا. ولستَ من طينة الرجال الذين يكسرون مفاصل أصابع أعدائهم في نهاية المعركة».

لا أكلِّف نفسي عناء الردِّ عليه.

يستأنفُ كلامَه:

«لو كان ينبغي أن تُقتلَ ، لقُتِلت».

لا مجال للمنافسة بين رجلٍ بمفرده ومتعهِّد بناء. ولا يملك رجلٌ يحمل مثقابًا أيَّ فرصةٍ في مواجهة جرَّافة!

«هل أُصلِحَ نظامُ الصرف الصحّيّ ؟»

«بإمكانهنَّ أن يشكرنك على ذلك ، أقصدُ السيِّدات».

يُغيِّر الموضوع.

«بعيدًا عن ذلك ، فأنا مثلُك تمامًا. Per se(22)».

إنَّه يعرف اللَّاتينيَّة.

«لكنَّني أدركتُ مباشرةً أنَّك تعاني بعضَ المشكلات ، أنَّك في عجلةٍ أكثر ممَّا ينبغي للفرار من نفسك ، رجلٌ بلا أمتعة ، كلُّنا نعرفُ ما معنى ذلك».

الكلمات والأشياء(23)

أتصفَّحُ بعجالةٍ دفترَ المذكَّرات الأخير. ثمَّة في الجزء الأخير منه عدَّةُ جملٍ متفرّقةٌ وغير مؤرَّخة ؛ جملةٌ واحدةٌ في كلِّ صفحة:

هل صحيحٌ حقًّا أنَّ سنة ٥٢٥ أعقبَتْ سنة ٢٤١ مباشرةً ؟

وبعد صفحتيْن ، كتبتُ:

لا تحدثُ كلُّ الأشياء وفقًا لترتيبها الصحيح.

أعقب هذه العبارةَ عدَّةُ صفحاتٍ فارغة. ثمَّ هناك جملةٌ تقول:

من الممكن أن يحدُث أيّ شيء. ومن الممكن أيضًا أن يكون مغايرًا لما يتوقَّعه المرء.

أسمعُ في المساء طَرْقًا خفيضًا على الباب. يقفُ آدم في الخارج ، وتليه أمُّه مباشرةً.

تحملُ ماي كعكةَ عيد ميلاد ، تقدِّمهُا إليَّ متبسِّمة.

«عيد ميلادٍ سعيد ، يا سيِّد يوناس» ، يقول الصبيّ.

«ظلَّ يتدرَّب على قولِها» ، تقول.

كنتُ قد أسدلتُ الستائرَ على النوافذ ، بَيْدَ أنَّ الشمس تتسرَّب عبر الفجوات ، وتُشكِّل صندوقًا بيضاويًّا على الأرض ؛ رقعةً بيضاء من ضوءٍ تسقطُ على البلاط.

يقدِّم الصبيُّ إليَّ رسمًا تظهرُ فيه ثلاثُ أشجارٍ ذوات تيجانٍ كبيرة ، وقممٌ برتقاليَّةٌ تعلوها سماءٌ خضراء.

«غابة» ، توضِّح الأمّ.

تقفُ الأمُّ وابنُها في منتصف الضوء ، فوق المتاهة مُباشرةً.

دموعٌ مالحة لغيومٍ مُتكسِّرة

أستيقظُ مصحوبًا بصداعٍ وألمٍ ينتشران في خلايا جسدي كلّها. ملاءةُ السرير ملتصقةٌ بي. وأشعر بدبقٍ غريب ، وبتنميلٍ على جلدي ترافقه قشعريرةٌ ، كما لو أنَّه غُطِّي فجأةً بمُستقبِلاتٍ عالية الحساسيَّة إزاء هذا العالم!

أسيرُ متثاقلًا إلى الحمَّام ، وأنظرُ إلى المرآة. وجهي متورِّمٌ ومنتفخ ، وثمَّة شحوبٌ يحيطُ بعينيَّ.

أفتحُ الدشّ ، وأقف تحت نافورته إلى أن ينفدَ الماءُ السَّاخن. في البداية ، يصطبغُ الماءُ بلون الدم. أتحسَّسُ جسدي ، ومفاصلي ، وكتفيّ ، ومعصميّ ، وركبتيّ ، والترقوتيْن. ثمَّة خدشٌ مؤلمٌ على جانبي ، وتمزُّقاتٌ وجروحٌ على كفيَّ. حينما أنتهي من الاغتسال ، أنتزعُ الحصى من يديَّ ، حصى ضئيلة بحجم حبوب البازلَّاء. ثمَّ أرتدي قميصي الورديّ على شرف هذا اليوم ، وأخرجُ إلى الشرفة. غيومُ السماء كئيبةٌ ودانية. أمدُّ يديَّ وأرفعُ كفّيَّ نحو السماء .ثمَّة رباطٌ أبيض حول إصبع يدي اليُسرى ، في المكان الذي اعتدتُ أن أضع فيه خاتمَ زواجي . ثمَّ أرفعُ يديَّ على مهلٍ باتِّجاه السماء ، وأسمحُ للمطر بأن ينهمر على جروحي وقميصي الورديّ ، فيلتصقُ الأخيرُ بزنبقتي المائيَّة.

لديَّ جسد.

أنا جسدي.

فجأةً ، ترفرفُ فراشةٌ زجاجيَّةُ الأجنحة باتّجاهي ، ثمَّ تحطُّ على ذراعي وتطوي أجنحتَها الفضِّيَّة ؛ فراشةٌ ضخمة الحجم. تطقطق قطراتُ المطر على الشرفة. وأفكِّر في نفسي ؛ لم تَعُد الأمطار تنفذ إلى منزل النساء. لقد بدَّلتُ النافذة الأخيرة فيه أوَّل أمس.

للكلماتِ عواقب

يقفُ فيفي أمام باب الغرفة ، يحملُ صندوقًا من الكتب بين ذراعيْه ، ويرتدي قبَّعةً مقلوبةً إلى الخلف.

«فكَّرتُ بأنَّك ربَّما بحاجةٍ إلى بعض الراحة» ، يقول ، «بدلًا من أن تضطرَّ إلى النزول إلى القبو كلَّما أردتَ أن تقرأ كتابًا جديدًا».

يضعُ الصندوقَ على الأرض ، في منتصف الغرفة.

«بمقدورك الآن أن تقلِّب بين هذه الكتب بهدوءٍ وعلى مهل ، إلى أن تُشفى» ، يضيف.

أُخبرهُ بأنَّني أصبحتُ الآن أفضلَ حالًا.

ينظرُ إليَّ بشكٍّ عظيم.

«لا أرى ذلك».

يمدُّ يده إلى داخل الصندوق ، ويسحب كتابًا.

«هذا كتابٌ يتضمَّن بعضَ المصطلحات من أجل تعليم اللُّغة ، قد تجده مثيرًا للاهتمام. أنصحك به. من الواضح أنْ لا أحد يتكلَّم الأيسلنديَّة هنا ، وقلائل يجيدون الإنكليزيَّة

أيضًا». أفتحُ الكتاب، فأرى أنّه مصمَّمٌ لمساعدة السيَّاح على تدبُّر بعض شؤونهم في ظروفٍ مختلفة، على غرار طلب الطعام في مطعم، أو شراء تذكرة قطارٍ أو طوابع بريديَّة من مكتب البريد، أو السؤال عن طُرُق الخروج من الغابات. لفظُ الكلمات مكتوبٌ ما بين قوسيْن في نهاية كلِّ عبارة. أقلِّب بين صفحات الكتاب. ثمَّة فصلٌ خاصٌّ بعنوان «استكشاف الأخطاء وإصلاحُها»، ويتضمَّن، من بين أشياء أخرى، العبارة التالية:

أنا تائه. كيف بإمكاني أن أعودَ إلى الفندق الذي أقيم به؟

وعلى نحوٍ مشابه:

من فضلِك، انتظرْ لحظةً بينما أبحثُ عن عبارةٍ في هذا الكتاب.

أتابع التصفُّح، فأرى في الصفحة الأخيرة هذه العبارة:

ما جرى ناجمٌ عن سوء تفاهم، أنا آسفٌ جدًّا.

ثمَّة فصلٌ إضافيٌّ بعنوان «أشياء قد تفقدها في بعض الأحيان»، ويتضمَّن قائمةً مفصَّلة، على غرار:

معطفٌ مطريّ

قفَّازات

وشاح

مظلّة

نظَّارات

خاتم زفاف

جواز سفر

قلم حبر

مفكّ

لكنْ لم يرد المرءُ نفسُه ضمن القائمة ، أقول لنفسي. أحسبُ أنَّني قادرٌ على تعلُّم خمس عباراتٍ جديدة كلّ يوم.

في غضون أسبوع ، سأكون قد تعلَّمتُ خمسًا وثلاثين عبارة. كم عدد الكلمات التي يحتاجها المرءُ كي يبقى على قيد الحياة ؟

يبدو كما لو أنَّني أسمعُ صوتَ أمّي تقول: «من الممكن أن يُساء فهمُ الكلمات بطرقٍ شتَّى. انظُر إلى والدك ، على سبيل المثال».

يقول فيفي إنَّه كان يجمع المعلومات ، لكنْ لا أحد يدري مَن هاجمني بالضبط.

«ظنَّ بعضُ الأشخاص أنَّك تعمل لصالح رجلٍ يُدعى ويليامز» ، يقول. المعلومات مُحيِّرةٌ ومتناقضة. بالإضافة إلى ذلك ، وردَ ذِكرُ النساء اللواتي أعمل لصالحهنّ من دون مقابل. بعض الأشخاص غير راضين عن ذلك ، وفقًا لِما عرفتُهُ في اليوم السابق.

«يشعرون بأنَّ هذا إجحافٌ في حقِّ البقيّة» ، يُكرِّر ما قالَه صاحبُ المطعم.

أخيرًا ، يخبرني أنَّه سمع أنَّني استفززتُ المهاجِم ، وذلك عندما نظرتُ إلى عينيْه . في البؤبؤ مباشرةً .حينما قابلتُه.

«لا نفعلُ مثلَ هذا هنا» ، يقول.

«لكنَّنا نفعل ذلك في المكان الذي أتيتُ منه» ، أقول.

نحنُ ننظرُ إلى أعين الناس الذين نقابلهم في الشارع ، وإلَّا فلن نتمكَّن من معرفة إنْ كان يُفترض أن نُحيِّيهم أم لا.

قبل أن يغادر فيفي ، يمدُّ يدَه إلى جيب قميصه ، ويسحب نظَّارةً شمسيَّة.

«هذه من المخزن» ، يقول ، ويُسلِّمها إليَّ. أحاول أن أرتديها.

لا تزالُ بطاقةُ الثمن مُعلَّقةً بها.

«بعدستيْن واسعتيْن» ، يقول ، «كي تحمي عينيْك المتورِّمتيْن». يبدي تردُّدًا. «لم يَعُد بإمكاني أن أقرأ الكتب» ، أسمعُه يقول. «قرأتُ كثيرًا حينما كنتُ صبيًّا ، لكنَّني توقَّفتُ مع اندلاع الحرب».

يبدي تردُّدًا مرَّةً أخرى.

«لا يتطلَّب الأمر سوى جملةٍ واحدةٍ لكي تنسف قريةً عن بكرة أبيها.. جملتيْن لكي تُدمِّر العالم».

لم يقل إنَّه رأى كلّ شيء ، على غرار: إنّي شاهدتُ أبي وفي رأسِه ثقبُ رصاصة ، أو ولِدَ ابنُ شقيقتي في قبوٍ عفِن.

يُسوِّي قبَّعته.

وثمَّة شيءٌ آخر ، أجل. لقد وجدَ في الحمَّامات القديمة أربعة صناديق من قطع الغيار ، ويتساءل إنْ كان في وسعي أن استخدمها في إصلاح منزل النساء.

«ذلك المنزل لك أيضًا» ، أقول.. «ولآدم».

«أجل ، للنساء ، ولي ، ولآدم».

ما زلتُ موجودًا

ما زلتُ هُنا

أفتحُ دفترَ المذكَّرات ، وأقلِّب سريعًا بين صفحاته الممتلئة عن آخرها ، حتَّى أصل إلى بعض الصفحات الفارغة في نهايته. أتركُ صفحةً فارغةً واحدة بعد التدوينة الأخيرة ، التي كنتُ قد كتبتُها قبل قرابة سبعةٍ وعشرين عامًا: ستعيش أطول منِّي. ثمَّ أحملُ قلم حبرٍ طُبِعَ عليه «فندق الصمت» ، وأكتبُ تاريخ اليوم في أعلى الصفحة: ٢٩ أيَّار. يليه: إلى ووترليلي.

أعلمُ أنَّ بإمكاني الاختيارَ من بين ثلاثة وثلاثين حرفًا ؛ وهذا عددُ أحرفٍ يفوق معظمَ أبجديَّات اللُّغات الأخرى. أبدأ بجملتيْن:

ما زلتُ موجودًا

ما زلتُ هنا

ثمَّ أضيف:

أحاول أن أفهم سببَ ذلك.

ماذا عساي أن أضيف؟ هل ينبغي أن أصف السماء ، وأقول إنَّني أستيقظُ ليلًا ، وإنَّ الأشجار السوداء تُصارع السَّماءَ السَّوداء ، وإنَّ القمر هنا أكبرُ ممَّا هو عليه في بلادنا ، وإنَّني بدأتُ أنظرُ إلى نفسي في المرآة؟ وإنَّني أقرأ الشعر؟ وإنَّ نصفَ طعامي مكوَّنٌ من أشياءَ لم أتناولها من قبل؟

أتوقَّف برهةً ، ثمَّ أستأنِف:

المياه حمراء ، كأنَّ أحدهم يغسل قميصًا داميًا في حوض استحمام.

هذه جملةٌ من عشر كلمات.

ثمَّ أضيف خمسَ كلماتٍ أخرى: كلُّ الأشياء هنا رماديَّةٌ مُغبرَّة.

وبعدها جملةٌ طويلةٌ في السطر التالي:

بالأمس ، تناولتُ على العشاء حبَّات بطاطا كبيرة مع اللحم (كتلك التي اعتادَت جدَّتكِ أن تسلقها مع الغولياش(24)) ، وقد زُرعَت في حقولٍ خاليةٍ من الألغام الأرضيَّة.

أخيرًا:

هل ثمَّة حاجةٌ إلى مسامير ؟

أشطبُ الجملة الأخيرة:

هل ثمَّة حاجةٌ إلى مسامير ؟

أتجاوز قِطَع الغيار.

فجأةً ، أجدُ ماي واقفةً أمام الباب ، تسألني عمَّا أكتب.

«هل تكتبُ قصَّة ؟» تقول.

«شيء من هذا القبيل».

«وما أحداثها ؟»

«لم أقرِّر كلَّ شيءٍ بعد».

«هل يموت فيها شخصٌ ما ؟»

«كبار السنِّ فحسب. كلٌّ يموتُ وفقًا لتسلسلٍ زمنيٍّ ملائم».

«جيِّد».

تضعُ المنشفة بعيدًا.

«ما عدتُ أخشى من اللَّيل» ، أسمعُها تقول وهي تغلقُ الباب وراءها.

أترقَّبُ أن يتَّخذ العالَمُ شَكلًا

يُخبرني فيفي بأنَّ ثمَّة في الطابق السُّفليِّ من يسأل عنّي.

إنَّه مالك المطعم ، وقد حضرَ بصحبته البلطجيُّ الذي هاجمَني. يقفُ الرجلان بجانب حامل النظَّارات الشمسيَّة. ألاحظُ أيضًا أنَّ هناك دميةً قابلةً للنفخ على هيئة نَمرٍ ، وقد أضيفَت إلى متجر الفندق في الأمس.

«حدث ما حدث نتيجة سوء تفاهم» ، هكذا يبدأ مالكُ المطعم حديثَه.

يظلُّ قاطعُ الطريق صامتًا. كان يرتدي سترةً جلديَّةً فوق قميصٍ مُخطَّط ، وقرطًا في أذنٍ واحدة.

يدفعُه المالكُ جانبًا.

«يقول إنَّه آسف» ، يستأنفُ حديثه. بَيْدَ أنَّ التعبير المتجهَّم على وجه ذلك المتوحِّش لا يوحي بأيِّ علامةِ ندم.

«لن يُكرِّرها مرَّةً أخرى».

«من الجيِّد معرفةُ ذلك».

«يريدُ أن يريكَ شيئًا. عليكَ أن تلحق به».

هل عليَّ أن ألحق بمُهاجِمي ؟ أن ألحق به إلى زقاقٍ ضيِّق ؟

«كلَّا، لستُ في مزاجٍ يسمح بذلك».

«لن تندم. إنَّه يريدُ أن يعوِّضك عن سوء التفاهم الذي جرى».

«لا، لستُ مهتمًّا». ثمَّ أضيف بأنَّني مشغول. وهذا صحيح.. فأنا أقرأ السيرة الذاتيَّة لدوروثي پاركر، يا له من جحيمٍ طازَج!

«سيُحضرُ أثاثًا للمنزل الذي تعمل على إصلاحه. لقد قلتَ إنَّ النساء بحاجةٍ إلى أثاث».

أفكِّر مليًّا في الأمر. نحتاجُ أثاثًا لثلاثة طوابق، وسبع نساء، وثلاثة أطفال، وشقيق.

«ما قولُك في ذلك؟» يواصل حديثَه.

«لا شيء».

«هل ستفكِّر في الأمر؟»

أرافقُ مالكَ المطعم باتِّجاه المدفأة. نقفُ بجانب اللَّوحة التي تصوِّر مشهدًا طبيعيًّا لغابة، أو تحتها، كي أكون أكثر دقَّة؛ من هذا المنظور، ينسكب الضوءُ على اللَّوحة القماشيَّة بصورةٍ مختلفة، وألاحظُ أنَّ جذوعَ الأشجار التي تتصدَّر الصورةَ ذاويةٌ من جهةٍ واحدة.

«لقد أثبتَّ بوضوحٍ أنَّكَ رجلٌ حقيقيّ»، يقول، ويربِّت بيده على كتفي.

يومئ برأسه باتِّجاه قاطع الطريق. جُلُّ ما بإمكاني ملاحظته أنَّ الرجل يُجرِّب النظَّارات الشمسيَّة أمام المرآة. يراقبُه فيفي، ويبقينا في مدى نظره أيضًا.

«أخبرَني بأنَّكَ لم تكن خائفًا».

أقلِّب الأمر في ذهني بعجالة. لا تزال الغِرزُ تملأ رأسي.

«يجبُ على الرجل أن يُسامِح» ، يقول مالكُ المطعم ، ثمَّ يضيف بأنَّهم كانوا يتحدَّثون عن مستودعٍ مليءٍ بالمفروشات ، وكان على وشك أن يُهدَم من أجل بناء مصنع أدوية. يصادفُ أيضًا أنَّه يعرف المقاول الذي يشرف على المشروع. المفروشات مُكدَّسةٌ في المستودع ، وقد أُحضرَتْ من هنا وهناك بعد انتهاء عمليَّات إزالة الأنقاض ، وإفراغ المنازل المهجورة. وتتضمَّنُ الموجوداتُ كلَّ ما يحتاج إليه المنزلُ تقريبًا.

«معارفي بحاجةٍ إلى التخلُّص منها قبل أن تدهسها عجلاتُ الجرَّافة. في وسعك أن تأخذ منها أيَّ شيءٍ إنْ شئت. كان من الأسرع أن يضرموا النار في المخزون كلِّه ، لكنْ لم يحصل المقاول على تصريحٍ من البلدة لفعل ذلك» ، يختتم حديثَه.

يُخفض صوتَه ، ويمسك بذراعي.

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

«لقد سمعتُ أنَّ هناك بعضَ المفروشات الفاخرة بين الأكوام. أثاثٌ راقٍ. كراسي تدليك فخمة مع مساند للقدميْن».

أفكِّر في الأمر قليلًا. أرى مهاجمي ينظرُ إلى المرآة وقد تدلَّت بطاقةُ الثمن ما بين عينيْه.

«غدًا ، عند التاسعة صباحًا» ، أقول. «بالضبط».

فتى الجوقة

يحضر المُعتَدي في الموعد المحدَّد تمامًا ، وينتظرُ في ردهة الفندق. الأزرار الأربعة الأولى لقميصه مفتوحة ، وتكشفُ قليلًا عن صدره المسمرّ ، فضلًا عن أنَّه يرتدي النظّارةَ الشمسيَّةَ العاكِسة التي اشتراها في اليوم السابق ، ولا يخلعها مع أنَّ الضوء خافت. يَظْهرُ القلقُ على وجه فيفي الذي يطلبُ الذهابَ معنا ، لكنَّني أرفض عرضَه ، وأرافق البلطجيّ.

يقع المستودع في إحدى ضواحي المدينة ، ويُكرِّر مرافقي في الطريق إلى هناك أنَّ كلّ ما جرى كان ناتجًا من سوء فهم.

لستُ في حالةٍ مزاجيَّةٍ تسمح لي بمناقشة المسألة ، فأبيّنُ له أنَّ عليه أن يخلع نظَّارته الشَّمسيَّة أوَّلًا إنْ أراد التحدُّث إليَّ.

يستجيبُ لطلبي مباشرةً.

«بإمكانك أن تناديني بينغو» ، يقول.

يسحبُ البابَ الجرّارَ للمستودع ، فأرى أنَّه مليءٌ عن آخره بالأثاث والأدوات الشخصيَّة المكدَّسة بعضها فوقَ بعض بصورةٍ عشوائيَّة.

حيواتٌ كاملة ، أقول لنفسي.

«تمَّ تمشيطُ المكان للتأكُّدُ من أنَّه خالٍ من المتفجِّرات» ، يقول قبل أن نخطو إلى الداخل.

يشبهُ المستودعُ شيئًا يتراوح بين سوق سلعٍ مستعملةٍ وغرفة تخزين أثاث. وعلى نحوٍ مثير للدَّهشة ، فإنَّ معظم محتوياته تبدو بحالةٍ جيِّدة بما فيه الكفاية. وأمَّا بالنِّسبة إلى ما تبقَّى ، فيمكن إصلاحُه أو تعديلُه. لن يكون من الصعب صناعة بعض الأرجل للطاولات ، أو تجديد بعض قطع الأثاث ، فهذا ما أتقنُ فعله حقًّا.

«كان الناس يستخدمون هذه المفروشات حطبًا للتدفئة» ، يقول ، ويدفعُ جانبًا خزانةً صغيرةً ذات أدراج.

هل ينبغي أن أخبرَه بأنَّني لا أشعر برغبةٍ في الكلام؟ وبأنَّني سأكون مُمتنًّا له إذا ما قضينا هذا الوقتَ معًا في صمت؟

أحتاجُ إلى أثاثٍ يغطِّي ثلاثة طوابق ، فأبدأ بجمع ما يلزم للطابق الأرضيّ. أسحب طاولةَ طعامٍ من خشب الساج ، وأريكتيْن ، وأشرع بالبحث عن كراسٍ تُلائم الطاولة.

«أحتاج إلى شاحنة نقل» ، أقول ، وأتصيَّد طاولةً أخرى ، ومصباحًا مكتبيًّا ، وآخر قائمًا. أحسب في ذهني عددَ الأسرّة اللَّازمة ، وأحاول أن أتخيَّل الأماكن التي سيتوضَّع الأثاثُ فيها.

يقول بينغو إنَّه يستطيع تأمينَ شاحنة ، كما أنَّه سيُحضِر رفيقًا كي يساعدنا في حمل الأغراض.

يساعدني في نقل بعض خزائن الملابس ، ومهدٍ لطفلٍ رضيع ، إلى مدخل المستودع. ها أنا أجمع الأثاث. ليس عليَّ سوى أن أقول ما أريد حتَّى ينفِّذ من دون أيِّ أسئلة. من الواضح أنَّه معتادٌ على إطاعةَ الأوامر. أتمكَّنُ من العثور على أسرَّةٍ تكفي سكَّان المنزل

جميعًا ، على الرَّغم من أنَّ المراتب رثَّة ، وينبغي استبدالُها بأخرى. من جهةٍ ثانية ، أخبرتني ماي بأنَّ ثمَّة بيَّاضات أسرّةٍ قديمة ، لكنْ في حالةٍ جيِّدة في الفندق ، وقد يكون بمقدورها أن تجلبها إلى المنزل. أتجوَّل بين الأغراض ، وأشير بيدي قائلًا: هذا ، وهذه ، وهذا. أجل ، ذلك المكتب ، وذلك الكرسيّ الدوّار هناك في الأعلى. أحضِرُ بعض الدرَّاجات أيضًا.

يرفع بينغو قفصَ عصافير ، وأومئ له برأسي موافقًا.

«ثمَّة أغراضٌ هُنا من شِققٍ رحل عنها الأجانبُ حينما فرُّوا من البلاد» ، يقول تابعي المخلص ، وهو يجلس على أريكةٍ ويمدُّ قدميْه على الطاولة. أنتبهُ إلى أنَّ الكرسيَّ عتيقٌ ونفيس ، لكنَّني لا أخبره بذلك. بل أشير إليه بأن يقف.

أنا الآن في الجزء الخلفيِّ من المستودع ، أبحثُ عن خزانة ملابس أخرى. ألمحُ سجَّادةً مزخرفةً ألقاها أحدُهم فوق شيءٍ ما. أرفعُها ، فأعثرُ تحتها على وجود كوْمةٍ من عِلب الطِّلاء. أتفحَّصها ، فأرى أنَّها غير مفتوحة.

يتبعني بينغو ، وترتسم على وجهه ملامحُ الدَّهشة أيضًا.

«لا بدَّ أنَّها تخصُّ واحدًا من متاجر مستلزمات البناء ، قبل أن ينتهي بها المطافُ إلى هنا» ، يقول ، ثمَّ يضيف: «لو كنَّا نعلم بوجودها ، لبعناها».

يُخرِجُ مديةً ، ويفتح بها إحدى العلب.

أشرعُ بِحَمْلِ العِلب وفتحِها ، واحدةً تلو الأخرى.

«هذه العلبة ، وهذه ، وهذه أيضًا» ، أقول ، بينما يضعها بينغو بجانب الأثاث.

أبحثُ عن ورنيش.

«أنا بحاجةٍ إلى ورق صنفرة، وفُرَش، وورنيش»، أقول.

وهكذا، سيكون في وسعي أن أعمل على تصليح الأرضيَّات ابتداءً من الأسبوع القادم.

يجثو على يديْه وركبتيْه، ويفتِّش بدقَّةٍ بين علب الطِّلاء، محرِّكًا شفتيْه بقراءة ما كُتِب على مُلصقاتها. وفي هذه الأثناء، ألتقطُ أربع لفَّاتٍ من ورق الجدران المزخرف بأوراق الشجر.

نخرج من المستودع. وقُبيل أن يغلق بينغو البابَ الجرَّار، ألمحُ مشغِّل أسطواناتٍ موسيقيَّةٍ عند المدخل مباشرةً، على الأرض تحت إحدى الطاولات. يبدو للوهلة الأولى أنَّه ما زال سليمًا. أرفعُ غطاءه وأتفحَّصُ الإبرة. على الرَّغم من خمس سنوات من الحرب، والغارات الجويَّة، والإسفلت المذاب، والأجساد الممزَّقة، فإنَّ الإبرة لم تُصَبْ بأيّ ضرر. أنظرُ حولي. أعثرُ، بُعيدَ أمتار، على صندوقٍ يحتوي على مجموعةٍ واسعةٍ من الأسطوانات. أقلِّب بينها على عجلٍ، فأجدُ أنَّها تتضمَّن بعضَ التسجيلات الممتازة لماري كالاس ويوسي بيورلينغ. ثمَّة تسجيلٌ أيضًا لـ رقصة الموت لفرانز ليست، وآخر لـ Rhapsody on a Theme of Paganini لرخمانينوف، بالإضافة إلى مجموعة أسطواناتٍ لديفيد بووي، تتضمَّن أغانيَ مثل ليزا جين، و Can't Help Thinking About Me، و Never Let Me Down. أسحبُ إحدى الأسطوانات خارج غلافها، وأرى أنَّها لم تُصب بأيّ خدش.

أشيرُ إلى تابعي الأمين بأنَّني سآخذ مشغِّلَ الأسطوانات معي إلى الفندق، وبأنَّ عليه أن يحمل مجموعة الأسطوانات.

«سأعود إلى هنا يوم غد، وسأحضرُ السيِّدات معي»، أقول.

ما زلنا بحاجةٍ إلى تجهيزاتٍ للمطبخ ومفروشاتٍ أخرى. أَلسنَ بحاجةٍ إلى خزانةٍ للكتب أيضًا؟

يأخذُ بينغو دوره على محمل الجِدّ، ويسير أمامي وهو يحمل صندوق الأسطوانات بين ذراعيْه. يتحرَّكُ بخطواتٍ بطيئةٍ وحذِرة، كي يضمن ألَّا تهتزَّ حمولتُه الثمينة. نصل إلى الفندق، فأُخبره أنَّ بمقدوره أن يضع الصندوقَ على الأرض. توقَّف المطر، وأرى أنَّ أحدهم قد وضع أصيصًا للزهور عند مدخل الفندق.

«كنتُ مُغنِّيًا في إحدى الجوقات قبل أن تندلع الحرب»، يقول فجأةً من فوق درجات الفندق. «باريتون».

يتردَّد صدى كلمات ماي في رأسي: «كلُّ الرجال هنا قتلى».

«حقًّا! وأنا كنتُ مغنيًّا في جوقةٍ أيضًا»، أقول. في الواقع، التقيتُ زوجتي السابقة في تلك الجوقة.

كان بمقدوري أن أضيف: «لم يكن لي وجودٌ حقيقيٌّ في ذلك الوقت».

وماذا لو أجاب: «والآن؟ هل أضحى لك وجود؟»

الأرضُ التي تفيضُ لبَنًا وعسلًا

يحمل فيفي أخبارًا، أخبارًا سارَّة.

«لدينا حجوزاتٌ جديدة»، يقول. «ثلاثة، على وجه الدقَّة، لكنْ ليس قبل الشهر القادم».

لم يكن هذا بالخبر السارِّ الوحيد الذي يحمله فقط؛ فعلماء الآثار الذين أخبرني عنهم سيصلون في غضون أسبوعيْن أيضًا.

«لقد ثبَّتوا حجوزاتهم. حجزوا غرفةً واحدة. معنى هذا أنَّ الأمور بدأتْ بالتحسُّن»، يضيف.

يقفُ بجانب جهاز الكمبيوتر بثيابٍ شبه رسميَّة؛ قميصٌ أبيض وربطة عنق، ولكنْ تحتها سروال جينز مُمزَّق وحذاء قماشيّ.

«أحاول أن أبدو بمظهرٍ لائق»، يقول، موضِّحًا سببَ ارتداء ربطة العنق.

يخبرني بأنَّ إحدى صديقات ماي في المنزل ستتولَّى مهمَّة تحضير الطعام حينما يفتتحون المطعم.

«لقد رتَّبَتْ أختي لكلِّ شيء».

واحتفالًا بهذه الأخبار، فإنَّ صديقة ماي في مطبخ الفندق بالفعل، بينما نتحدَّث، حيثُ تسلق بعضَ اللَّحم البقريّ الذي سيصير جاهزًا عمَّا قريب.

«سيكون ذلك تغييرًا عن حساء البازلَّاء الذي أُعدُّه في العادة»، يضيف فيفي.

يديرُ شاشة جهاز الكمبيوتر كي أتمكَّن من رؤية ما فيها، ويقول إنَّه يجري بعض التعديلات على موقعهم الإلكترونيّ، إذ لم يُحدَّث منذ ما قبل الحرب.

«نركِّزُ على الحمَّامات، وعلى أنَّ لكلِّ غُرفةٍ من غرفِنا طابعَها الخاص. ما رأيك في ذلك؟»

«لطيف».

يقول إنَّ ثمَّة ما يريدُ أن يسمعَ رأيي فيه. فلمَّا بات جليًّا أنَّ عمَّتهم لن تعود، فإنَّه . وشقيقته .يُفكِّران بتغيير اسم الفندق، وثمَّة بعض الأسماء المحتملة في بالهما.

ماذا عن فندق الجِنان الزرقاء؟ أو فندق السماء الزرقاء المُطلَقة؟

وهناك احتمالٌ آخر أيضًا: فندق الفردوس المفقود.

«ما رأيُك؟»

«أليس اسم فندق الصمت ملائمًا تمامًا؟»

يصمت لوقتٍ طويل.

«أجل، لعلَّه ينبغي لنا أن نلتزم بالصمت»، يقول، ثمَّ يعيد السمَّاعات إلى أذنيْه مرَّةً أخرى.

بسماءٍ تتلألأُ فوق الجفون

انقضى اثنا عشر يومًا، وعادَت الممثِّلة.

أقابلها على السلالم، وأشعرُ كما لو أنَّني تعثَّرتُ مصادفةً بسياجٍ مُكهرَبٍ بعض الشيء.

أراقبُها. تبدو عليها أماراتُ الاكتئاب والإجهاد.

«كيف كانت الرِّحلة؟» أقول.

«الأشياء كلُّها في حالة خراب»، تقول. «لقد دُمِّرت البنيةُ التحتيَّة للمجتمع عن بكرة أبيها».

عَظمُ وجنتي مُتورِّم ، وعيناي محتقنتان بالدم ، وثمَّة لاصقٌ طبِّيٌّ أبيض فوق حاجبَيّ. تظهَرُ على وجهها ملامح القلق.

«سمعتُ أنَّك تعرَّضتَ إلى هجوم» ، تقول.

«صحيح ، يبدو أنَّ هناك شخصًا لم يُعجبه أنَّني أقضي إجازتي هنا».

«هل أنت بخير ؟»

ترفعُ يدها ، ببطءٍ ، كما لو كانت على وشك أن تلمس الجرحَ ، لكنَّها تُبقيها معلَّقةً في الهواء فحسب ، على مقربةٍ من وجهي ، وكأنَّها أرادت أن تتحسَّس وجنتي ، بَيْدَ أنَّها تتركها لتعود إلى مكانها.

«لا شيء يدعو إلى القلق» ، أقول. «لقد كان الرجلُ الذي هاجمَني مُغنِّيًا في جوقة» ، أضيف.

تحدِّق فيَّ كأنَّها تحاول أن تحلَّ أحجية.

«سمعتُ أيضًا أنَّك تقدِّم العونَ إلى النساء. الناس يتحدَّثون».

«أجل ، أساعدهنّ في إصلاح منزل».

تأخذ نَفَسًا عميقًا.

«لقد فقدَتْ كلُّ امرأةٍ زوجًا ، أو أبًا ، أو طفلًا ، أو إخوة. وفقد الأطفال آباءهُم أو إخوتهم الأكبر سنًّا. وأمَّا مَن ظلوا على قيد الحياة ، فقد فَقدَ كلٌّ منهم ذراعيْه ، أو ساقيْه ، أو أجزاء أخرى من جسده».

«هل عثرتِ على مواقع لتصوير الفيلم الوثائقيّ ؟»

«النساء شديدات الحذر ، وليست لديهنّ رغبةٌ في الحديث عمَّا مررن به. لم توافق أيٌّ منهنّ على إجراء مقابلةٍ معها. إنّهنَّ مُتعَبات. يحاولن أن يفهمنَ ما يجري فحسب».

تصمتُ برهةً.

«إذًا ، سيكبر جيلٌ كاملٌ من دون أيِّ ذاكرةٍ عمَّا حدث. وسيكون هناك خطر اندلاع حربٍ جديدة».

تصمتُ مرَّةً أخرى.

«لكنْ ، لن يحدث ذلك قبل عشر سنوات من الآن» ، تضيفُ ، «وهي المدَّة المطلوبة لإنشاء جيلٍ جديدٍ من الرجال».

ثمَّ تأخذ نَفَسًا عميقًا ، ويتغيَّر صوتُها ، كما لو أنَّها تشعرُ بالتعب.

«ازدادت أعدادُ المرتزقة قبل أن تنتهي الحرب ، كانوا على صورة جيشٍ خاصٍّ يعمل لصالح شركاتٍ أمنيَّة. لقد شاركوا في الحرب على نحوٍ مباشر. لا يمكن لأحدٍ أن ينتصر في حربٍ من دون إشراك أجهزةٍ أمنيَّةٍ خاصَّة. كانوا يدفعون لهم مبالغَ ضخمة. هيَ الشركات نفسها التي تصنع الأسلحة ، وتُجنِّد المرتزقة ، وتعمل على إعادة إعمار البلاد بعد الحرب. والآن ، تبني هذه الشركاتُ أيضًا مصانعَ الأدوية والصيدليَّات في كلِّ مكان. يسألون الناسَ إنْ كانوا يعانون الصُّداع ، ثمَّ يُعطونهم أقراصَ الأسبرين. يقولون إنَّه لا ينبغي لأحدٍ أن يشعر بالألم».

«لكنْ ، ماذا عن نصِّ الفيلم ؟»

لا تجيب على السؤال ، لكنَّها تقول إنَّها انتهت من فعل ما كانت تنوي أن تفعله.

«سأرحلُ غدًا» ، تقول ، وتنظرُ في عينيَّ مباشرةً. «لذا ، هذا آخر يومٍ لي هنا».

تتبسَّم..

في وجهي.

إنَّ عبارة آخر يومٍ تعني آخر ليلةٍ أيضًا.

«سأزوركِ في المساء» ، أقول ، من دون أيِّ مقدِّمات.

معطفٌ من جسد

أُلقي نظرةً سريعةً على المرآة ، وأمرِّر يدي عبر شعري قبل أن أغلقَ البابَ ورائي.

رقم غرفتها ١١ ، وتقع في نهاية الممرِّ تمامًا.

تقفُ قبالتي وتنزع الغطاءَ عن السَّرير ، لكنَّها لا تطويه. تَهدلُ بضعُ حماماتٍ خارجَ النافذة.

أفكُّ الزرَّ العلويَّ من قميصي الأحمر ، فيتكشَّف تحته بعضُ جسدي. ثمَّة زنبقةُ ماءٍ بيضاء تحت القميص ، وتحت زنبقة الماء قلبٌ ما زال ينبض. أفكَّ الزرَّيْن التاليَيْن ، بينما تفكُّ هي أزرارَها والسَّحَّابات. أخلعُ قميصي وسروالي ، ثمَّ جوربيَّ ، من دون إبطاء. بعدها ، أخلع سروالي الداخليّ وأقفُ أمامها ، على الأرضيَّة ، عاريًا كيوم وُلِدت. في منتصف لوحة الغابة ، فوق السرير ، بين جذوع الأشجار السَّوداء ، يقفُ صيَّادٌ يحملُ قوسًا ونشَّابًا ، وينظرُ مباشرةً إلى عينيْ فهد. ثمَّ أنتبه إلى أنَّ بين تلك الأشجار طريقًا متعرِّجًا يبدو أنَّه يُفضي إلى خارج اللَّوحة. أمدُّ يدي وكأنَّني أتحسَّسُ الطريق إليها ، وأتقدَّم خطوةً إلى الأمام. ما زالت تفصل بيننا ثلاثةُ ألواحٍ من الأرضيَّة. ثمَّ أتقدَّمُ خطوةً أخرى. وبعد برهةٍ ،

يلتقي الجسد بالجسد. نضغطُ كفَّيْنا بعضهما على بعض: خطُّ حياةٍ يقابل خطَّ حياة، وشريانٌ يقابل شريانًا. وأشعرُ بنبضات قلبي تسري في جسدي بأكمله؛ في رقبتي، وركبتيّ، وذراعيّ، وبالدَّم يتدفَّق من عضوٍ إلى آخر. ثمَّ ألمسُ لوحَ كتفها.

«أهذه زهرة؟» تسألُني، وتبسطُ كفَّها على صدري.

أعبُّ نَفَسًا، ثمَّ أُرسلُ زفرةً.

شركة ستيل ليغز المحدودة

أتَّصلُ بووترليلي، وأدخلُ في صلب الموضوع بلا مُقدِّمات، بينما يضربُ فيفي على لوحة مفاتيح حاسبه.

«أليسَ...»، أحاولُ أن أتذكَّرَ اسمَ الحبيب السَّابق لابنتي. «أما زال فروستي يعمل في شركة الأطراف الاصطناعيَّة تلك؟»

أشرحُ لها عبر الهاتف أنَّني على تواصلٍ مع اختصاصيَّةٍ في العلاج الفيزيائيّ، تعمل على إعادة تأهيل ضحايا الألغام الأرضيَّة. وهي في الواقع أيضًا واحدةٌ من نساء المنزل، وقد عرفتُها من خلال ماي.

«إنَّ معظم الذين فقدوا أطرافًا قد حصل لهم ذلك بعد الحرب»، أقول.

«أجل».

«تقول الاختصاصيَّة إنَّها تستقبلُ أشخاصًا بلا أطراف، وبحالاتٍ في مُنتهى السوء، لكنَّها لا تتركهم يغادرون إلَّا وهم يسيرون على أرجلٍ اصطناعيَّة».

أواصل الحديث:

«أنا بحاجةٍ إلى أرجلٍ اصطناعيَّةٍ لأربعة عشر شخصًا».

«حقًّا؟»

«صبيٌّ في السَّابعة من عمره، وفتاةٌ في الحادية عشرة، وفتى في الرابعة عشرة، وشابَّةٌ في الحادية والعشرين، وشابٌّ في الثالثة والثلاثين، ورجلٌ في الرَّابعة والأربعين». أسرد بعض الحالات التي تتضمَّنها القائمة، وأخبرها بأنَّني سآخذ المقاسات اللَّازمة، وأُرسلها إليها.

أُبدي تردُّدًا:

«أريدُ أيضًا أن أقترض منكِ مبلغًا لهذا الغرض».

تصمتُ برهةً، ثمَّ تجيب:

«بابا، هل سترجع إلى المنزل في وقتٍ قريب؟»

«ليس على الفور. ما زلتِ تزورين جدَّتك، أليس كذلك؟» تخفض صوتها وأشعر بأنَّها تتحرَّك من مكانها.

«في الواقع، أنا برفقتها الآن».

«انتظِرْ»، تقول، ثمَّ توضح أمرًا ما لجدَّتها بصوتٍ عالٍ.

في غضون ذلك، أنتظرُ ويساورني شعورٌ بالقلق بصدد فاتورة الهاتف.

«بابا، تريدُ جدَّتي أن تتحدَّث إليك».

أسمعهُا، وهي تعطي سمَّاعةَ الهاتف إلى أمِّي.

«مرحبًا، معكُم غوردون ستيلّا يوناسدوتّير سنايلانت».

«نعم ، يا أمِّي ، هذا أنا».

«أخبرتني ووترليلي بأنَّك قد سافرت. هل غادرتَ البلاد؟ هل تعمل على تسوية شؤونك ؟»

«أظنُّ ذلك».

«كيف حال الطقس لديك ؟ يظلُّ الطقس على الحال نفسها طيلة الوقت خارج البلاد ، أليس كذلك ؟»

«إنَّها تمطر».

«هل هناك حرب ؟»

«كلَّا ، لقد انتهت».

«المذنبون يفرُّون. أمَّا الأبرياء ، فهم من يُعانون على الدوام».

«أجل ، أعلم هذا ، يا أمِّي».

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf

«في شهر العسل ، زرنا أنا ووالدك المتحف الحربيّ ؛ كم كان رومانسيًّا ، والدُك!»

«أجل ، سبق أن أخبرتِني بذلك».

ثمَّ تُذكِّرني بغصن الشجرة الذي يضرب على النافذة.

«كنت أظنُّ أنَّك سوف تقطعُه. ما زال لديك منشارُ والدك ، صحيح ؟»

فجأةً ، أتخيَّل في ذهني مشهدًا لأمِّي وهي ترقصُ فوق مُشمَّع الأرضيَّة في المطبخ. كانت ترتدي بلوزةً مُرقَّطة ، وقد شغَّلتْ تسجيلًا موسيقيًّا في مُشغِّل الأسطوانات ، بينما أقف هُناك مُتفرِّجًا عليها. ذراعي ملفوفةٌ بحمَّالةٍ طبِّيَّة ، ولا أحد سوانا ، أنا وأمِّي ، في المنزل. كنتُ قد تغيَّبتُ عن المدرسة لبضعة أيّام. ما الموسيقى التي كانت أمِّي تستمعُ إليها؟ ليتل ريتشارد؟ تريدُ أن تعلِّمني كيف أرقص ، فتجذبُني من ذراعي السليمة. كنتُ مُرتديًا جواربي.

أسمع صوتَ ووترليلي مرَّةً أخرى عبر الهاتف.

«هل من الممكن أن يحبَّ المرءُ شخصًا لم يره سوى مرَّةٍ واحدة فحسب؟» تسألُني.

«لماذا تسألين؟»

«لا شيء ، لقد رأيتُ رجلًا في المصرف يوم أمس».

أشعر أيضًا أنَّ ثمَّة شيئًا آخر يُثقل كاهلَها.

«خطر لي أنَّ بإمكاننا الذهابَ في نزهةٍ جبليَّةٍ حين عودتك ، فاشتريتُ أحذيةً للسَّيْر لمسافاتٍ طويلة. أتوق إلى النوم في خيمةٍ لأكبر عددٍ مُمكنٍ من اللَّيالي في هذا الصيف».

ثمَّ ساد الصمتُ عظيمًا ، وكأنَّه جَبل

ألاحظُ أنَّ فيفي يسترقُ النظرَ إليَّ بين الحين والآخر ، وأنا أتحدَّث عبر الهاتف. وما إنْ أُنهي المكالمة حتَّى أشعر بأنَّه على وشك أن يسألني عن شيءٍ ما ، لكنَّه ما زال يقلِّب في الأمر.

وبدلًا من ذلك ، يقول:

«في اللَّيلة الماضية ، أتوا واقتادوا النزيلَ الآخر».

«من أتى ؟ واقتادوا من ؟»

«الشرطة. الرجل الذي يقيم في الغرفة رقم ٩. اقتادوه مُكبَّلًا بالأصفاد».

«ماذا حدث ؟»

يُقول لي إنَّ آدم قد تسلَّل إلى غرفة الرجل ، واختبأ في خزانة الملابس ، بينما كانت ماي مشغولةً بالتنظيف. وحينما عثروا عليه ، وجدوا قطعًا أثريَّةً كانت قد بيعَت في السَّوق السوداء . بالإضافة إلى الأثداء الثلاثة المفقودة من الجداريَّة الفسيفسائيَّة . ولهذا أبلغوا الشرطة عنه.

«ستُوجَّهُ إليه تهمتا السرقة والإتْجار غير المشروع في الآثار».

ثمَّ يُغيِّر الموضوع ، بالقول:

«قرَّرنا أن نصغي إلى نصيحتك ونُبقي اسمَ الفندق على حاله ؛ فندق الصمت. لقد جهَّزنا لافتة ، بثلاث لغات» ، ويشيرُ إلى لافتةٍ وراءه جاء فيها:

«الصمتُ مَنجاةُ العالم».

أعدُّ الخطى بيني وبينك

تفتحُ ماي الباب مرتديةً سترةً صوفيَّةً خضراءَ ذاتَ أزرار. «هذا لأجلِكِ» ، أقول ، وأعطيها مشغِّل الأسطوانات. «ليس عليكِ سوى أن توصليه بالكهرباء فقط».

«لم تكن بحاجةٍ إلى المزيد من الوقت» ، تقول لي ، من دون أيِّ مقدِّمات. «أنتَ لم ترغب بي فحسب».

أستأذِنُها بالدخول ، فتهزُّ رأسها موافقةً.

الصبيُّ نائمٌ في سريره ، فاغرًا فاه باسطًا كفَّيْه ، وبجواره كتابٌ لتعليم الأبجديَّة مرفقٌ بالصور. تُخبرُني بأنَّه سيُعاد افتتاحُ المدرسة في فصل الخريف ، وبأنَّ الصبيَّ قد بدأ بالتدرُّب على القراءة.

أصِلُ المشغِّلَ بمقبس الكهرباء ، ثمَّ أجلبُ مجموعةَ الأسطوانات الموسيقيَّة.

أسحبُ أسطوانةَ زيغي ستاردست خارج غلافها ، وأضعها في المشغِّل.

«كنتُ أتساءل إنْ كان بمقدورِكِ أن تعلِّميني كيف أرقص».

ما الذي قالته أمِّي ذاتَ مرَّة؟ قالت إنَّه حينما يتوقَّف ضجيجُ المدافع الرشَّاشة ، يشعرُ الناس بالحاجة إلى الرقص والذهاب إلى دُور السينما.

تنظرُ إليَّ بوجهٍ خالٍ من أيِّ تعبير ، ثمَّ تنفجرُ ضاحكة.

أشعرُ بأنَّه ينبغي أن أوضِّح ما قلتُه.

«قالت زوجتي .زوجتي السَّابقة .بأنَّني لا أجيد الرَّقص».

«وأيُّ نوعٍ من الرقص تقصد؟ ثنائيُّ الخطوة؟»

«طريقة رقص رجلٍ مع امرأةٍ فحسب».

يَصعُب عليَّ قول هذا.

«متى تريد أن تبدأ؟»

«الآن؟ ما لم تكوني مشغولة. وإذا كان ذلك لن يوقِظ آدم».

تقول:

«لقد اعتاد أن ينام أثناء الغارات الجويَّة».

ثمَّ:

«تضعُ يدك هنا وأمسكُ بك من هنا، تخطو إلى الأمام وأخطو إلى الخلف، ثمَّ أخطو إلى الأمام وتخطو إلى الخلف».

نقفُ في منتصف الغرفة، ونشرع بالرقص، وتحملنا خُطانا نحو النافذة.

«تخيَّل الأمرَ وكأنَّهُ رحلة»، تُواصِلُ القول.

«هكذا؟»

«أجل، هكذا. كأنَّك تمشي».

«نحنُ مُتشابهان، أنا وأنتِ»، أقول.

«أعلم»، تقول، من دون أن تنظر إليَّ.

تُبدي تردُّدًا، ثمَّ تقول:

«في صباح هذا اليوم، شممتُ رائحةَ عشبٍ للمرَّة الأولى منذ فترةٍ طويلة».

ضوء النجوم بحاجةٍ إلى وقتٍ كي يصل

قال سفانور ذات يوم: «ثمَّة شروقاتٌ أبرزُ من غيرها». تشرقُ الشمس، قاطعةً السماءَ إلى نصفيْن، من دون سفك دماء. في البدء، يُغطِّي الأرضيَّةَ خطٌّ أفقيٌّ من الضوء، مسحةٌ واحدة، ثمَّ يزداد عددها أكثر وأكثر إلى أن تتشكَّل بِركةٌ صغيرةٌ من الضوء على الأرضيَّة.

بينما أحلق ذقني، أُستدعى لتلقِّي مكالمةٍ هاتفيَّة. كان فيفي يرتدي سروالَه الرياضيّ، ويبدو أنَّ الاتِّصال قد أيقظَه من نومه.

«تقول إنَّها ابنتُك»، يقول.

أُدركُ مباشرةً، من نبرة صوتها، أنَّ ثمَّة خطبًا ما.

«إنَّه سفانور، يا أبي. لقد أغرق نفسه في البحر. عُثِر على كلبته على الشاطئ، كانت مُبلَّلةً تمامًا. ظلَّت تسبحُ وراءه، لكنَّها عادت أدراجها فيما بعد».

«هل سبق لأيِّ امرئٍ أن تعافى من مجيئه إلى هذه الحياة؟» سألني سفانور في أحد الأيَّام. «لو خُيِّر الناسُ في هذا الأمر»، أضافَ، «فهل سيُقرِّرون ألَّا يُولَدوا؟»

تُخبرني بأنَّها ذهبتْ إلى الشقَّة قبل يوميْن كي تسقيَ النباتات، فالتقَت بسفانور مصادفةً في الخارج.

«كان مُنهمكًا بتنظيف الكاراڤان، ثمَّ ظنَّ أنَّه سمع صوتًا مُريبًا يأتي من سيَّارتي حين كنت أقودها. كان يعتقد أنَّ توازن العجلات على الجانب الأيمن بحاجةٍ إلى ضبط، وعرضَ عليَّ أن يتحقَّق من ذلك. ثمَّ عانقَني، وقال إنَّ المرأة مُستقبلُ البشريَّة. لا أزال أحاول معرفة إن كان قد أقتبسَ هذا القولَ من مصدرٍ ما».

«لحظة!» يقول سائقُ سيَّارة الأجرة ، بعد أن وضعَ حقيبة سفري في الصندوق ، ودعاني إلى الجلوس في المقعد بجانبه. «لقد أوصلتُكَ من قَبل. بعد ميك جاغر بفترةٍ غير طويلة. قلتُ لنفسي منذ اللَّحظة التي رأيتُك فيها: إنَّه هوَ. الرجلُ الذي يحمل صندوقَ عدَّة».

(8) سفر المزامير (91 :4). (المترجم)

(9) لورد (Lorde): مغنِّيَّة ومنتجة وكاتبة أغاني من نيوزيلندا (المترجم).

(10) Neptunus: كلمةٌ هولنديَّةٌ تعني نبتون ؛ ثامن كواكب المجموعة الشمسيَّة ، وهي أيضًا اسم علامةٍ تجاريَّةٍ لجعةٍ هولنديَّة. ونبتون في الأصل اسم إله البحر والماء العذب في الميثولوجيا الرومانيَّة (المترجم)

(11) مشروبٌ كحوليٌّ يصنع من أنواعٍ مختلفةٍ من الفواكه ، معروفٌ في اسكندنافيا وشمال أوروبا. (المترجم)

(12) ميخائيل طال (1936 . 1992): بطل عالميّ في لعبة الشطرنج ، من لاتفيا. يُعَدّ واحدًا من أبرز ممارسي هذه اللُّعبة ، وكان معروفًا بأسلوب لعبٍ ذي نزعةٍ هجوميَّةٍ حادَّة. (المترجم)

(13) المقصود هنا هو الشاعر الإسبانيّ المعروف فيديريكو غارثيا لوركا (1898 . 1936). (المترجم)

(14) Homo erectus أو الإنسان المُنتصِب: اسمٌ علميٌّ لإحدى مراحل التطوُّر التشريحيّ للإنسان. (المترجم)

(15) ويليام بتلر ييتس (1865 . 1939): شاعر أيرلنديّ. (المترجم)

(16) سفر إشعياء (2: 4). (المترجم)

(17) سفر التكوين (1: 2). (المترجم)

(18) المصدر السابق نفسه. (المترجم)

(19) سفر التكوين (1: 31). (المترجم)

(20) سفر المزامير (42: 7). (المترجم)

(21) عنوانُ روايةٍ كتبها خوسيه ريزال (1861 . 1896)، وهو طبيبٌ وصحفيّ وروائيّ فلبينيّ ، ويُعتبر أحد الأبطال الوطنيين في البلاد. أطلِق «يومُ ريزال» على اليوم الموافق لوفاته ، تخليدًا له واحتفاءً بذكراه. (المترجم)

(22) عبارةٌ لاتينيَّة تأتي بمعنى «في حدِّ ذاته» ، أو «بمعنى الكلمة». (المترجم)

(23) The Order of Things: (نظام الأشياء/الكلمات والأشياء)، عنوان كتابٍ للفيلسوف الفرنسيّ ميشيل فوكو ، صدر للمرَّة الأولى في سنة 1966 باللُّغة الفرنسيَّة. (المترجم)

(24) غولياش: طبق هنغاريّ تقليديّ ، مكوَّن من حساء اللَّحم والخضار مع التوابل. (المترجم)

مكتبة ٧٣٤

Telegram @t_pdf